ترجمة: خميلة الجندي

الرواق للنشر والتوزيع

سيدة إنجليزية فـي مـصـــــــر

صوفيا لين بول

ترجمة

خَميلة الجِنْدي

الرواق للنشر والتوزيع

سيدة إنجليزية في مصر

صوفيا لين بول

ترجمة: خَميلة الجِنْدي

الطبعة الأولى ---- يناير 2022

الغلاف: كريم آدم

الإخراج الفني: ضياء فريد

المراجعة اللغوية: محمد حسن

رقم الإيداع: 2021/30446

الترقيم الدولي: 978-977-824-142-6

جميع حقوق الطبع محفوظة

186 عمارات امتداد رمسيس 2 - أمام أرض المعارض - مدينة نصر

هاتف: 20220812006+

rewaq2011@gmail.com

alrewaqpublishing

alrewaqpublishing

www.alrewaqpublishing.com

الرواق للنشر والتوزيع

Interior of Bab Zuweyleh, the Southern Gate of Cairo.

الجزء الداخلي من باب زِويلة، البوابة الجنوبية للقاهرة

مُقدِّمة الكاتبة

الرغبة في تقصير مدة الغياب عن أخي العزيز كانت الدافع الأهم والأول لحَثِّي على التفكير في مرافقته إلى البلد التي أكتب منها الآن، والتي يزورها للمرة الثالثة. فضول مُلِحّ، لا سيَّما بعد قراءة كتاباته عنها، أسْهَم في تحفيز هذه الرغبة. بالطبع احتجت لبعض الإقناع من جانبه لاتخاذ قراري الأخير، مع ذلك بمجرد ما طرحت الفكرة وجد أخي أسبابًا عديدة تؤيدها. أملك فرصًا قد تسنح لي بالتعرُّف إلى أنماط حياة السيدات من الطبقات العليا في هذه البلد، وفرصة التعرُّف إلى أشياء مثيرة تخصهم، بل، لأني امرأة، سَبْر أغوار غامضة عنهن. هذه الفرصة أوحت له بفكرة: يمكنني إشباع فضولي، وفي الآن ذاته جمع أكبر قدر ممكن من الأخبار عن حياتهن. رجَّح أن أعرضها في سلسلة رسائل إلى صديق. لتشجيعي على تنفيذ هذه الفكرة، وضع تحت تصرُّفي مجموعة ضخمة من خواطره غير المشورة، حيث يمكنني اختيار ما شئت منها وإدراجه في رسائلي بما يتسق مع ما أكتب. ولأنني قد أتمادى في التعبير عن مشاعري أثناء تسجيل انفعالاتي وملاحظاتي ربما أكثر مما اختبرته بالفعل، وعدني أنه سيختار من هذه الرسائل ما يراه مناسبًا للنشر، ويعدُّها لعملية النسخ. لذا فالمجموعة المُقدَّمة من اختياره، ولكني أخشى أن يظن القارئ أن إعجابه بهذا البلد قد أفسد حكمه، مع ذلك أشعر بما يشجعني على الأمل في قراءته - القارئ - العادلة في سبيل المسألة الأهم التي تضمَّنتها هذه الرسائل. من سجلَّات واحدة أصبحت مصر مألوفة لها تقريبًا بقدر وطنها إنجلترا.

صوفيا بول

الرسالة الأولى

الإسكندرية، يوليو ١٨٤٢.
صديقي العزيز،

نعمة الوصول إلى المرفأ بعد رحلة طويلة توقظ في النفس شعورًا عميقًا ودائمًا يجب أن يُشكِّل في عمر كل مسافر لحظةً فارقة. بحماسٍ بالغ، خلال نهار طويل، حملقت أنا وأبنائي النظر في ساحل مصر الرَّتِيب الممتد في الأفق، آملين في أن تقع أعيننا على واحدة من تلك الآثار التي دائمًا ما سمعنا عنها دون أن نراها. أول ما التقطته أنظارنا كان برج العرب الذي يقع على أرض متوسطة الارتفاع، بعد ظهوره بفترة وجيزة أبصرنا الفنارة الجديدة على شبه جزيرة فاروس، وطواحين جيش الباشا؛ مما أشار إلى اقترابنا من الإسكندرية، كما بدا عمود السواري (عادة يُلقَّب بعمود بومبي) يرتفع في سماء الخليج.

كان ساحل المتوسط في هذه المنطقة ساحلًا رمليًّا طويلًا يغطي مساحةً شاسعةً من الأراضي المنعزلة عدا حي الإسكندرية. أما غرب هذه المدينة، فلم نَرَ سوى دروب صفراء من صخور كربونات الكالسيوم والرمال التي تناثرت عليها أشجار النخيل غير مكتملة النمو التي تزين، ولو قليلًا، المنطقة الموحشة.

تُعدُّ مياه المرفأ القديم، أو المرفأ الغربي (سُمِّي قديمًا إينوستس بورتس)، أكثر عمقًا وأمانًا من الميناء الجديد (المُسمَّى ماجنوس بورتس). الأول، الذي كان حكرًا على سفن المسلمين، أصبح الآن مرفأً مفتوحًا ل للأمم كافةً، أما الثاني الذي كان «مرفأ الكفار» فأصبح شبهَ مهجور. مدخل المرفأ الغربي يتميز بحَيْدِه الصخريّ ومسالكه الثلاثة الطبيعية وأعمقها المسلك الثاني. تسبب الصخور متاعب لحركة السفن عانى منها الجميع؛ وبالأخص أنا، لا يمكنني وصف قدر امتناني حين وَطِئت قدماي الشاطئ بعدما مررت بمياه المرفأ الناعمة. أرى الكثير هنا مما يستحق الذِّكْر؛ لذا ينبغي أن أستغرق في كتابة رسالتين أو ثلاثة قبل الوصول إلى القاهرة حيث لم تمسَّ يد الاختراعات الأوروبية طبيعة المجتمع العربي، آمُل أن أرى الكثير مما قد يثير اهتمامك لا سيَّما عن أحوال مجتمع النساء المحليات. لا أنوي الكتابة لك عن ملاحظاتي بشأن العادات الذكورية، وملابس الرجال لأن أخي قد تولى بالفعل الكتابة بصورة مفصلة عن تلك الفئة من الشعب، وقد قرأ شريحة كبيرة من الناس ما نُشر من هذه المشاهدات؛ لذا لا يمكن وصف أخي، على عكس ما قد أُوسَم به، بالتحيُّز.

إذا حدثتك عن وصولنا، عن الادِّعاءات العنيفة التي تلقيناها من البحَّارة العرب، عن استقبال الجمارك المهذب لنا، وسعادتنا بهدوء الفندق الذي نقيم فيه، سآخذك بعيدًا عن الموضوعات الأكثر تشويقًا. ولكني أتحرق شوقًا للحديث عن الناس المحيطين بنا والشوارع والحارات المُكتظَّة المزعجة التي مررنا بها. الشوارع، التي لا تقع في حي

الفرانكس، ضيقة لدرجةٍ تمنع من سير أي عربات في الطريق. المباني متقاربة بشدة، وقد مدَّ السكان حصائر تمتد بين الأسطح وبعضها لتغطي الشوارع من حرارة الشمس، هذا لا يمنع وجود قَطْع هنا أو هناك يسمح بنفاذ الضوء، وتتدلى منه خرَق الحصير المقطوع. باختصار، يبدو المشهد بصورة عامة كئيبًا ومُوحشًا. مع ذلك، لا ينبغي أن أشكو من ضيق الشوارع؛ لأن الطرقات التي لم يُفلح الحصير في حمايتها من أشعة الشمس، فلَحَت طريقة بناء المنازل في حجب الشمس، وهو أمر بالغ الأهمية في هذه البلاد المشمسة. بالطبع حين وصلنا إلى الجزء الأوروبي من المدينة، والذي بدا لنا كسائر المدن في أوروبا، كانت الشوارع واسعة رَحْبَة، والميادين فسيحة، ما بدا نقيضًا للجزء العربي من المدينة، مع ذلك فقد هنَّأنا أنفسنا بهذا الوصول لأن الحرارة كانت حارقة، وهُرعنا إلى الفندق لننعم بالنسيم المنعش في غرفنا. سمعت أن الكثير من الأشخاص يفضلون مناخ الإسكندرية على المناخ في القاهرة، ويؤكدون أنه أكثر صحة، لكن المواطن القاهري يطعن في صحة هذه الآراء - بالطبع الطقس أكثر برودة في الإسكندرية، ولكن الهواء مُحمَّل بالرطوبة، وبالرغم من تمتُّع السكان بنسيم البحر، فإن هذه الرفاهية يرافقها بعض المضايقات.

دَعْنِي أحدثك عن الناس، في البداية لم أقابل سوى كبار المسئولين المرموقين، أما في الأزقة فاحتشد الشحاذون البائسون كما لو كانوا متجمعين لمناسبة عامة. مع ذلك، حين أمعنت النظر، قابلت اختلافات شتَّى في أشكال أزياء الطبقتين: الوسطى والعليا، لكن تصرفات الشرقي تتشابه (حتى الخَدَم حَسَنِي المظهر)، وعرباتهم مختلفة؛ لدرجةٍ تضع الأوروبي في حَيْرَةٍ من أمره لتحديد مكانة هذا الشخص أو ذاك.

أؤمن أنني قابلت أشخاصًا من مختلف مدن المتوسط، ولكن يمكنني وصف القليل غير الوافي مما أراه هنا. لقد تأثرت للغاية بالفروقات الكبيرة بين عادات الطبقات العليا المبهرجة المترفة، وملابس البائسين حُفاة الأقدام الرَّثَّة وأبنائهم الذين يعيش عدد كبير منهم دون ثياب. كما تأثرنا بصورة كبيرة من عدد الأكِفَّاء أو ضعاف النظر؛ خاصةً كبار السن منهم، مع ذلك سعدنا باهتمام البعض بأحوالهم. أعتقد أن كل من زار هذا البلد يعي الاحترام الجَمَّ الذي يُمنح لكبار السن، هذا الاحترام لا يميز بين فقير وأمير. الحق أن الناس في هذه البلد شبُّوا على الإيمان بالبركة في احترام كبار السن، وهذا الشعور المجيد يعزز من قُوَاهم ويؤثر بصورة كبيرة على تصرفاتهم.

عدد كبير من أبناء الفقراء استدعوا تعاطفي: رؤوسهم متدلية في إرهاق، وأقدامهم شاحبة نحيلة تُظهر عدم قدرتهم على الركض، بل السير، أما رقَّة أمهاتهم الملموسة فأثارت في نفسي الأسى حينما أفكر فيما تكابده هذه النساء لتحيا. بطبيعة الحال، يمكنك الاستنتاج أنني أتوقع نجاة عدد قليل من هؤلاء الأطفال ليخطوا بأقدامهم نحو المراهقة، وأيضًا استنتاج، أنني أنظر لهؤلاء الصغار وأفكر في مدى صعوبة نجاتهم في مراحل الطفولة الأولى. ربما من سوء حظِّي أنني قابلت عددًا كبيرًا من الأطفال ليس بينهم سوى اثنين يبدو عليهم الصحة، أما البقية فيعانون وضعَهم الرَّثّ. البعض تظهر علامات الجُذَام واضحةً

على ملامحه السمراء، ومع ذلك يبدو عليهم الصمود أمام المرض والقدرة على مجاراته؛ ما أثار مشاعري لحد كبير.

أمر حزين أن أرى هذا الفقر المُدْقِع الذي تحيا فيه الطبقات الدنيا، وعلى الصعيد الأخرى أُفاجَأ بتصرفات الطبقة العاملة الكَسُولة، حين دُعيت إلى أحد المصانع أخبروني أن عددًا كبيرًا من العاملين يعملون دون كَدٍّ أو شغفٍ حقيقي. أجد شبهًا كبيرًا بين طبيعتهم وطبيعة جِمالهم، لكن الجمال تعترض أحيانًا إذا حاول صاحبها تحميلها بأكثر مما تستطيع، وفي بعض الأحيان قد لا تنهض عن الأرض حتى يُخفف عنها الأحمال، أما العرب فلا يبالون بما يوضع من أحمال فوق عاتقهم كأنهم شاحنات، أو عربات نقل. تجد العربي الذي، على سبيل المثال، يعمل في الإسطبل لا يجد غضاضةً في المكوث إلى جوار حصان سيِّده مهما طالت المدة دون أن يغمغم بأي اعتراض. القوة الجسدية لهؤلاء الرجال غير عادية. كان لديَّ فرصة كافية لألحظ ذلك خلال إفراغ المركب من الأمتعة.

تطل نافذة الفندق على منظر الميدان الفسيح، بالكاد يمكنني وصف المنظر الخلَّاب. من بين سمات الملابس المميزة، الملامح، والوجوه المألوفة للسكان الأصليين لأفريقيا والشرق، لم يجذبني أكثر من المظهر المميَّز للبدوي الغربي الجَسُور يرفُل في سُترته الصوفية، أو عباءته ذات القَلَنْسُوَة المُنسدلَة على ظهره، كما لو كان يستعد لشتاء روسيا. يمكنك أن تتوقع انجذابي للنساء المُختمِرات، رغم أن مظهرهنَّ الكئيب لا يوحي بأي إثارة، فإن لديهنَّ عيونًا جميلة واسعة ومآقي سوداء، لا يميزها فقط رَسْمتها الخلابة بالوراثة، بل ويضيف الكُحل المزيد من السحر للوجه المُغطَّى بالنقاب. يمكنك تخيُّل الجلبة والإزعاج في الشوارع بسبب سائقي الجِمال الذين لا يتوانون عن الصياح بين الفَيْنَة والأخرى وفي كل مكان: «هلُمّ»، «بشويش»، «ساكن».(1)

هناك صفٌّ من الجمال يقف في المساحة الخاوية أمام الفندق، بعضها مُحمَّل بجِرَار الماء، والبعض الآخر بالبالات والبضائع، تتحرك بحرص دون ضجة وبكرامة - لو صح وصف الجمال بالكرامة - لدرجة أنك تميزها سريعًا من بين بقية الدَّوابَ.

لا يجب أن أنسى ذكر المَحالِّ في الإسكندرية، هي أشبه بالحوانيت الصغيرة أكثر منها محالّ واسعة، وهذا، كما فهمت، الحال في سائر المدن العربية والتركية. تبلغ مساحة الحانوت نحو ثلاثة أقدام من حيث الارتفاع، ومثلها أو أكثر بقليل في العرض. تتناثر الحوانيت على جانبَي الطريق، ويجلس أصحابها - الحِرَفيِّين - أمام حوانيتهم، إما يدخنون التبغ أو منهمكين في أعمالهم. من المُسلِّي مشاهدتهم يحصلون على قوت يومهم بصورة غاية في السهولة، الحقيقة أنهم قوم سعداء لدرجة كبيرة، هناك الكثير من الفلسفة تظهر في طريقة تفسيرهم للحياة. نادرًا ما يُجبرون على العمل أكثر مما يستطيعون؛ لأنهم يديرون أعمالهم الخاصة، وهي رفاهية لا يملكها الكثيرون في أوروبا، فالعرب يعملون بالقدر الكافي لحاجتهم. لذلك هم سعداء لأن «أفضل ثرواتهم هي جهلهم بالثراء». كما

لاحظت، في زوايا الطرق، أو في أي مكان يسمح بذلك، مجموعات من النساء والرجال يفترشون الأرض يعرضون في سلال الخبز والخضراوات للبيع.

يقع الحي الأوروبي في المدينة في الجنوب الشرقي بمحاذاة شاطئ المرفأ الجديد. يمكنني التوقع أن هذا الموقع تم اختياره لقربه من المرفأ حيث ترسو المراكب وترحل حاملةً تجارتهم، لكن الآن وقد أصبح المرفأ القديم متاحًا لرُسوِّ باخراتهم، ربما لم يعُد هذا الموقع ذا فائدة كبيرة لساكنيه. أما في شرق الميدان الكبير فيقع مبنى ضخم يُدعى «الوكالة»، وهو مبنى أشبه بسوق كبير للتجار وغيرهم من الباعة، ويطلُّ على شاطئ المرفأ الجديد. تضم جدرانه ساحة شاسعة، والدور الأرضي من المبنى يضم الحوانيت المُطلَّة على هذه الساحة، والمَحالَّ المطلة على مدخل الوكالة.

أطلعني أخي على معلومات بخصوص فاروس الحالية، وها أنا أنقل كلماته إليك:

«منارة فاروس الحديثة هي خَلَف - متواضع - للمبنى القديم الذي أقامه سوستراتس من كيدوس، ومنه اشتُقّ اسمها، بالرغم أن المبنى الحالي - من بعيد - يبدو مَهِيبًا. ذكر عدة مؤرخين عرب المَرَايا المعدنية الضخمة التي وُضعت على قمة المبنى القديم واستخدمها القدماء كتلسكوبات. بواسطة هذه المرايا كان يمكن رصد السفن في البحر من مسافة بعيدة. يحدثنا المقريزي(2) أن اليونانيين لجئُوا إلى الحيلة لتدمير فاروس والسيطرة على تلك المرايا الرائعة. ذهب واحد من رجالهم إلى الحاكم العربي، الوليد بن عبد الملك، وزعم اعتناقه الإسلام، مُدَّعيًا أنه هرب من قبضة مليكه الذي أمر بإعدامه. أخبر اليوناني الأمير العربي أنه موهوب في اكتشاف الكنوز المطمورة تحت الأرض وذلك بفضل كتب حملها في حوزته حين هروبه، وأكَّد للأمير وجود كَنْز ثمين من المال والمجوهرات قابع تحت أُسُس فاروس في الإسكندرية. أرسل الأمير، المخدوع بهذه الحبكة الماهرة، عددًا من العمال رفقة اليوناني بغرض هدم المبنى، وحين تدمر أكثر من نصف المبنى، هرب اليوناني عائدًا إلى وطنه، وعندها افتُضحت حيلته. يقول المقريزي أيضًا، إن الجزء المتبقي من المبنى تهدَّم جرَّاء زلزال وقع في مصر بين عامَيْ (٧٩٣ - ٧٩٤) ميلادية، وحاول أحمد بن طولون تدعيم المبنى بجذوع الأخشاب. كما يزعم أن نقشًا قد وُجِد على طبَق مدفون في الجهة الشمالية كُتب بالأحرف اليونانية القديمة، وبلغ طول الحرف ذراعًا بينما عرضه بلغ الشِّبْر. يُرجَّح أن هذا النقش تركه المعماري الأول لهذا الصرح، والذي، وفقًا، لسترابو، يُرجِّح أنه سوستراتس بن ديكسيفن، وقد نقشه راجيًا حماية الآلهة للبحَّارة. يقصُّ الأسيوطي(3) أن سكان الإسكندرية استغلوا المَرَايا المذكورة سالفًا لحرق مراكب العَدوّ، وذلك عن طريق تسليط أشعة الشمس الحارقة التي تعكسها المرايا نحو مراكبهم.

الجسر الحجري الذي يربط القلعة بالفنارة على شبه جزيرة فاروس يُسمَّى الآن روضة التين (أي حدائق التين بالعربية)، وذلك تيمُّنًا بأشجار التين القليلة التي تنمو في هذه المنطقة.

أما الجهة الجنوبية الغربية من المكان فتُدعى رأس التين. على شبه الجزيرة الصخرية يقع قصر الباشا، وعدة مبانٍ أخرى، ومقابر المسلمين، جميعها بمحاذاة قلب المدينة.

يجب أن أسعى جاهدةً لأكتب لك في رسالتي القادمة وصفًا عامًّا للمدينة، وأُنهي هذه الرسالة بتعليق أخير عن الأثر الذي يتركه صوت المؤذن داعيًا الناس للصلاة. يُحزنني التفكير في تأثري على أنه تأثر لحظي لهذا الصوت الرنَّان لأنني أسمعه للمرة الأولى، وصدقني أن خليطًا من الإعجاب والشفقة يساورني حين أفكر في هؤلاء الرفاق من جنس البشر الكادِّين في خدمة الرَّبّ، ولكن من منظور خطأ. منظر المسلم وهو منهمك في صلاته، يثير الدهشة، ولا أخطئ إذا ادَّعيت أنه يثير المهابة في قلب ناظره. حركات الناسك المُعبرة وسلوكه المُكرّس، حتى في خِضَمِّ جلبة السوق، لتأدية الصلاة يثيران في النفس دهشةً كبيرة. إقامة الصلاة في الساحات العامة يُعدُّ أمرًا عاديًّا في الشرق، ولا يجذب الكثير من الانتباه، ولا يصدُر عن المسلمين بغرض البحث عن صدقات من المارَّة؛ لذا لا يجب أن نعتبره صورةً من صور المداهنة أو المباهاة.

Alexandria.

الإسكندرية

(1) ملحوظة صوفيا لين بول: احترس، في العربية والتركية والإيطالية.

(2) ملحوظة صوفيا لين بول: عالم عربي ازدهرت أبحاثه في الفترة من القرن الرابع حتى القرن الخامس عشر.

(3) ملحوظة صوفيا لين بول: عالم دين ومؤرخ عربي شهير سُمي تيمنًا بمدينة أسيوط - مسقط رأسه - في صعيد مصر.

الرسالة الثانية

الإسكندرية، يوليو ١٨٤٢.
صديقي العزيز،

لا يوجد المزيد مما يثير الاهتمام في هذا المكان سوى ما سبق ورأيناه في الأيام الماضية؛ لذلك لن تطول فترة إقامتنا هنا. ولكن دَعْنِي أُطلعك بإخلاصٍ على كل ما آثار فضولنا هنا.

لم أُصَب بخيبة أمل في الإسكندرية (والتي يُلقِّبها سكانها المحليون بـ «اسكندرية»)؛ وذلك لأنني لم أتوقع أن تضمَّ الكثير من عوامل الجذب. لقد بُنيت المدينة على لسان ضيق في مياه المتوسط، يربط شبه جزيرة فاروس بقارَّة أفريقيا، ومن هنا ظهر المرفآن يربطهما - كما في الماضي - جسر يُدعى الهيبتاستاديون(4) تيمنًا بمسافة السبع «ستادات»(5) بين المرفأيْن.

أرض المدينة الحديثة تشكَّلت بالتدريج من تراكم طبقات الرمال على جانبَي الهيبتاستاديون، أما الموقع الحالي للمدينة فله أفضلية تجارية عن موقعها القديم. تُبنى المنازل عادةً من أحجار كربونات الكالسيوم البيضاء، وتُغطَّى بوفرة من المِلَاط والطِّلاء الواقي. بعض المنازل تُبنى أساساتها فقط من الأحجار بينما البنية الفوقية من الطوب. أما النوافذ فلها طراز خشبي فريد يُسمَّى المَشربيَّات، مع ذلك فبعض المنازل؛ خاصةً منازل الأوروبيين وقصور الباشا وحاكم الإسكندرية وبضعة منازل أخرى، فنوافذها من الزجاج. أسطح البنايات كلها مستوية ومغطاة بطبقة من الإسمنت. أعجبني البناء الداخلي للمنازل أكثر من مظهرها الخارجي. تم استخدام الكثير من أعمدة الجرانيت والرخام في بناء المساجد والمساكن الشعبية.

مذاق المياه في هذه المدينة أبعد ما يكون عن الجودة، يتم تزويد السكان بالمياه عن طريق صهاريج عملاقة تحت المدينة القديمة (التي يجب أن أخبرك عنها بين الحين والآخر). هذه الصهاريج تُملأ عن طريق قنوات المياه الجوفية التي تصل عبر قناة أوسع تمتلئ حين يصل النيل لأعلى معدلات فيضانه، ولكن، نظرًا لطبيعة التربة المالحة التي يمر عبرها النهر، يصبح مذاق المياه غير رائق. أغلب المنازل، أو كلها على الأرجح، تملك صهريجًا خاصًّا بها، ويتزود المنزل بالماء عن طريق الدِّلاء والجِرَار المصنوعة من جلود الجمال، كما هناك آبار للمياه قليلة الملوحة متفرقة في أنحاء المدينة.

نظرًا لافتقار الساحل الشمالي لمصر للموانئ، سوى مرفأَي الإسكندرية، فالمدينة لها أهمية معتبرة تجعلها السوق الدولي للبلاد ومفتاح مصر، مع ذلك فأنا لا أراها مكانًا مناسبًا للعيش، يحيطها البحر والصحراء من كل جانب عدا منازل الأثرياء المتناثرة هنا وهناك وتلال من

القمامة على مرمى البصر. مجَّد الكُتَّاب القدماء هواء الإسكندرية الصحِّي المنعش فوفقًا لسترابو، ترجع جودة الهواء إلى موقع المدينة شبه المنعزل عن الأرض، البحر يحيط بها من جهة، وبحيرة مريوط من الجهة الأخرى. هذا الهواء الرطب نشأ بسبب تحوُّل بحيرة مريوط من بحيرة عذبة لمستنقع مالح. ذلك نتيجة لشق الجيش الإنجليزي، عام ١٨٠١، قناةً تسمح بمرور المياه من بحيرة «أبوقير» المالحة إلى قاع بحيرة مريوط، وكرر محمد علي هذه العملية في ١٨٠٣ ومجددًا الجيش الإنجليزي في ١٨٠٧. يمكنك التصوُّر أن في كل مرة شُقت هذه القناة لاعتبارات عسكرية؛ لذا كلما تحقق الهدف العسكري من هذه القناة تُردم مرة أخرى لأنها تقطع إمداد المدينة بالمياه العذبة. لم يُلاحظ أي تغير في مناخ الإسكندرية بالرغم من ردم القناة بين البحيرتين، بالتأكيد أسهم تبخُّر مياه بحيرة مريوط بعد تغير طبيعة مياهها إلى زيادة الرطوبة في الجو. خلال الشتاء يكون للأمطار والرطوبة أثر خطير على صحة السكان، فضلًا عن الندى الليلي طوال أيام السنة. عادةً ما تنتشر حالات الحُمَّى في المدينة، كما لوحظ ظهور الطاعون فيها قبل أيام عديدة من انتشاره في داخل مصر. من المدهش أن أجد أشخاصًا يفضلون الحياة في الإسكندرية رغم كل هذه الاعتراضات التي سردتها لك، ليس يفضلون فقط، بل أيضًا يعتقدون أن المناخ أفضل للصحة من مناخ وادي النيل.

هناك عدة أعمدة للتلغراف بين الإسكندرية والعاصمة على مسافة مائة وعشرين ميلًا بريطانيًّا أو أكثر، سلسلة من تسعة عشر عمودًا تبدأ من شبه جزيرة فاروس وتنتهي في قلعة القاهرة.

تمت إعادة بناء الأسوار التي تحيط مدينة العرب القديمة منذ فترة وجيزة. بدأت أعمال إعادة البناء في ١٨١١، وقد أولاها محمد علي أهميةً كبيرةً خشيةً تكرار الغزو الفرنسي، فأوصى بتعزيز هذه المنطقة. أما الأسوار التي حدثتك عنها من قبل فتحمي المدينة من جهة اليابسة، وتحمي الصهاريج التي يتزود منها السكان بالمياه العذبة. تخترق الأسوار أربع بوابات، ولا يسعُني أن أصف لك مشهد الدمار الذي يستقبلك فور أن تدلف من البوابة إلى الحوش الأقرب إلى الجزء الحديث من المدينة، يُطلق على هذه البوابة: «بوابة البحر» لكن من العسير تجاوز بصرك لتلال القمامة والرمال المتراكمة التي تحتل، تقريبًا، المشهد كله. مع ذلك يمكنك رصد ديرَيْن للمسيحيين ومعبد يهودي في هذه المنطقة، علاوة على عدة تماثيل أثرية، ومجموعات من المنازل الطينية والأكواخ، إلى جانب بضع حدائق لشجر النخيل تحيط بها أسوار هزيلة.

ربما تعتقد أن ما أقولُه عن تلال القمامة، تحديدًا التلَّيْن المُرتفعَيْن، أمر غريب، ولكن الأغرب أنهما محاطان بحصن يزيد من غرابة المشهد. يبدو لي من غير العادي أن يختار أحدهم هذا الحصن ليصبح تلًّا للنُّفَايات، ولكن أتفهَّم أن الأمر يفوق قدرتي على استيعابه، فقد أثبت هؤلاء القوم تساهلهم في هذه البلاد التي واجهت تغييرات مهمة على مر التاريخ، جعلت من عادة أهلها أن يسمحوا بتفاقم سوء الأوضاع. يمكننا تتبُّع الشارع الرئيس للمدينة الذي

يمر بمحاذاة شاطئ المرفأ القديم إلى بوابة رشيد (6)، التي تقع في أقصى الشرق من الإسكندرية، أما الشارع الرئيس الآخر فقطع الشارع السابق إلى جهة الغرب. الإسكندرية تُعدُّ مدينة كبيرة؛ لذا من الصعب تحديد حدودها الخارجية بدقة. تخبرنا أطلال آثارها عن أهمية المدينة القديمة المزدهرة، ربما كانت أكثر أهمية من مدينة العرب التي بُنيت حديثًا.

وَدِدْتُ زيارة المسلَّات قبل أن تَستعِر شمس النهار؛ لذا غادرنا النُّزل مبكرًا مرورًا بالميدان الكبير ثم دلفنا إلى ساحة الأطلال، وهناك رأيت عدة فلاحين يتسكعون بين الأكواخ الرثَّة، بينما عدة أطفال عُراة يقفون أو يجلسون عند مداخل منازلهم. غمرني أسًى عميقٌ لرؤية تلك الأجساد الصغيرة في حالة وَهَن غير طبيعية، وبدت سيقانهم النحيلة شاحبةً كما لو غادرَتْها الدماء للأبد.

بين تلال النفايات رأينا عدة فوَّهات للصهاريج القديمة، أغلبها له قاع من الرخام. يبدو أن الصهاريج تمتد تحت جزء كبير من المدينة القديمة، وبعضها ما زال مفتوحًا وفي حالة جيدة لتزويد المدينة الحديثة بالمياه. تغطي الصهاريجَ إما قبابٌ جوفاء، أو أقواسٌ نصف دائرية ترتفع عن جوف الصهريج بأعمدة مربعة، وبعض الصهاريج تحتاج لأكثر من عمود - ثلاثة أو أربعة - لتدعيم السطح.

لم نشاهد ما يستحق الذِّكْر خلال رحلتنا إلى المسلَّات التي تقع في إحدى زوايا الساحة بالقرب من شاطئ المرفأ الجديد، وتُسمى مسلة كليوباترا. نُحتت المسلة من الجرانيت الأحمر، ارتفاعها قُرابَة سبعين قدمًا، وعرض قاعدتها ما يقرب سبعة أقدام ونصف القدم.

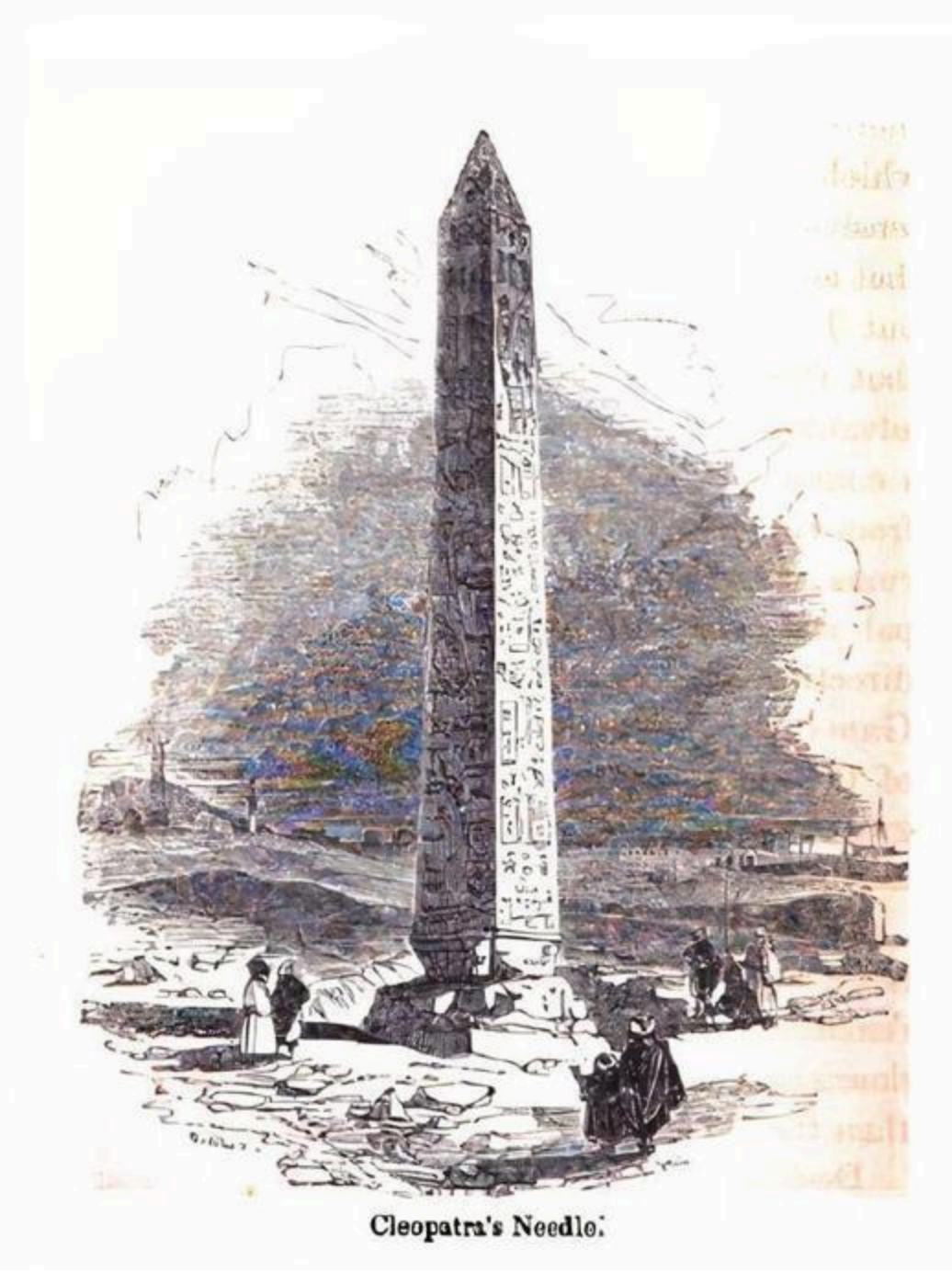

Cleopatra's Needle.

مسلّة كليوباترا

هنا أتعجب، مثل الكثيرين من قبلي، كيف تمكَّن المصريون القدماء من تحويل هذه الكتلة الصلبة إلى هذا المبنى الضخم. تحليلي أنهم وصلوا لدرجة متقدمة من العلم في البناء

والصناعة، بفضلها تركوا لنا هذه الأدلّة غير العادية على نبوغهم، والتي تستحقُّ الإشادة بلا شك.

على الجهات الأربع للمسلة نُقشت ثلاثة أسطر بالهيروغليفية. أخبرني أخي أن السطر الأوسط يحمل اسم ولقب تحتمس الثالث، الذي، وفقًا لأدلة قوية، حكم قُبَيل خروج بني إسرائيل من مصر. أما السطران الآخران فنُقشا في حقبة لاحقة؛ وذلك لأن النقوش توضح اسم رمسيس العظيم أو سيسوتريس(7). النقوش المنحوتة بالقرب من قاعدة المسلة شبه طُمست، كما أن النقش الأدنى محاط بتلال النفايات التي تخفي أغلبه. يقصُّ بلينيوس أنه شيَّد أربع مسلات في هليوبوليس - تلك المسلتان في الإسكندرية ربما من المسلات الأربع التي ذكرها بلينيوس. بالنظر إلى قِدَم تلك المسلات التي بلا شك تفوق الإسكندرية قِدمًا، يُرجح احتمال نقلها من هليوبوليس لتُزين معبدًا أو قصرًا في المدينة الجديدة. من المرجح؛ نظرًا لنقش اسم رمسيس العظيم على المسلات، أن الملك رمسيس هو الذي أمر بتشييدها.

إلى جوار باحة المسلات نجد حصنًا بُني على أنقاض برج عتيق ينتمي للسور القديم (سور مدينة العرب)، وأطلق عليه الرحالة الأوروبيون اسم «برج الرومان» لطبيعة بنائه الروماني الواضحة. بالقرب من هذا الموقع - وإلى جوار تَلٍّ نُفايات، تراءى لنا شاطئ المرفأ الجديد من وراء الجدار الغربي للحصن.

عزم الجيش الإنجليزي، حين وصل إلى مصر عام ١٨٠١، على نقل المسلة المتهدمة إلى إنجلترا، ولكن المسئول عن عملية النقل رفض تحمُّل كلفة الترميم، وبقيت المسلة على حالها دون نقل، ثم أتاح محمد عليّ المسلة للعرض بعد سنوات قليلة.

لحُسْن الحظ أننا عُدنا إلى النُّزُل قبل أن ترتفع الشمس في أديم السماء، وتحتدَّ الحرارة.

على مقربة من البوابة الشرقية (ربما على بُعد ميلين ونصف الميل) يقع ميدان معركة ٢١ مارس ١٨٠١ الشهير حين تلقَّى السير رالف أبركرومبي، قائد الجيش المنتصر، ضربةً أودت بحياته. في البقعة التي دارت فيها المعركة الأكثر شراسة، وبمحاذاة شاطئ البحر، هناك باحة مربعة تحيطها أسوار من حجارة كربونات الكالسيوم، والقِرْمِيد الضخم، رُصَّت بعناية رومانية. يُسمَّى هذا الطَّلَل «قصر القياصرة»، ويُعدُّ العلامة الوحيدة المتبقية من مدينة نيكوبوليس التي شُيدت لتخليد ذكرى فوز أوكتاليوس قيصر الخالد على أنطوني.

Pompey's Pillar.

عمود بومباي

عمود بومباي يُعدُّ، بلا شك، أثرًا رائعًا. نُحت العمود من الجرانيت الأحمر، يبلغ ارتفاعه ثمانيةً وستين قدمًا، وقُطْر قاعدته تسعة أقدام، وفقًا لحسابات أخي. نُحتت القاعدة أيضًا من الجرانيت الأحمر ويبلغ ارتفاعها عشرة أقدام؛ وكذلك الركائز والدعائم، وكل قطعة منفصلة بذاتها، ويبلغ ارتفاعها إجمالًا سبعة عشر قدمًا. لذا فالارتفاع الكامل لهذا الأثر المَهِيب يقارب خمسة وتسعين قدمًا، بينما البنية التحتية، والتي أُضيفت حديثًا، يبلغ ارتفاعها أربعة أقدام. للأسف تشوَّه منظر العمود الخلَّاب بالعديد من النقوش التي كُتبت بالطلاء الأسود وبأحرف كبيرة، غالبًا ما نُقشت على قمة العمود. كيف؟ يصنع السكان طائراتٍ ورقيَّةً ضخمةً ذات حبل دائري، حين تهبط الطائرة على قمَّة العمود ينزلق الحبل السميك ويُشد إلى العمود ليُثبت جيدًا وهكذا يمكنهم بسهولة تسلقه. لقد مُورست هذه اللعبة أكثر من مرة عادةً بمساعدة ضباط من البحرية، الذين بدءوا هذه العادة وكتبوا اسم سفينتهم على العمود. كما صعدت سيدة إنجليزية ذات مرة إلى القمة لتنقش اسمها. أما على القاعدة، فهناك نقش يوناني يمكن ملاحظته بصعوبة حين تُسلط عليه أشعة الشمس. كل مسافر زار هذا العمود، من زمن بُوكُوك، اعتقد أن النقوش قد طُمست تمامًا، حتى جاء الكولونيل سكوير وأعاد اكتشافها. لقد رمم سكوير، رفقة السير هاميلتون والكولونيل ليك، السطور المنقوشة (عدا عدة أحرف)، وبلغ عدد السطور أربعة تتحدث عن «عظيم مصر» في عهد «الإمبراطور المُعظَّم، حامي الإسكندرية، دقلديانوس الجبار» كانت الكلمات التي تشير إلى هُويَّة عظيم مصر مطموسة، إلى حين تمكَّن السير جاردنر ويلكينسون من الكشف

عنها: بوبيليوس. يؤكد هذا النقش أن العمود، أو المبنى الذي شُيِّد بداخله، تم إهداؤه إلى الإمبراطور الروماني، ولكن لم يُشيد العمود في عصره، بل - كما ذكرت من قبل - تؤكد النقوش الأخرى أن المسلات شُيدت في عهد سيسوتريس.

دعني أحدثك باختصار عن حريق مكتبة الإسكندرية (وقد حصلتُ على هذه المعلومات من أخي)(8)، والذي حدث في عهد عمر، وما له من صلة بالعمود. يؤكد عبد اللطيف والمقريزي أن العمود كان في ساحة مبنى عظيم بين أسواره شُيدت المكتبة، والذي أحرقه القائد العربي عمرو بأمر من عمر. يوضح أبو الفرج وقائع هذه الحادثة ولكن يشكُّ الكثيرون في صدق أقواله، ورغم أن عدة كُتَّاب آخرين سجلوا الواقعة، فإن الأمر لم يكن ذا جدوى كبيرة بالنسبة إليهم. من الجليّ؛ خاصةً في طريقة تأريخ عبد اللطيف والمقريزي لهذه الواقعة، أنهم اعتبروها حدثًا غير مهم. فلم يذكروها سوى لقصِّ تاريخ العمود. يقول المقريزي: هنا كانت المكتبة التي حرقها عمرو بن العاص، بأمر من عمر. ويُكمل: صُنع العمود من صخر أحمر صلب وحوله نُصب ما يقرب من أربعمائة عمود آخر ألقاها حاكم الإسكندرية، خاراج، في عهد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب (المعروف لدى الأوروبيين بصلاح الدين) في البحر بالقرب من الشاطئ ليمنع سفن العدو من الاقتراب من أسوار المدينة. ويضيف المقريزي أن هذا العمود يُشاع أنه وضع لفترة في شرفة أرسطو التي اعتاد أن يلقي فيها دروس الفلسفة، والتي تُعدُّ أكاديمية ضمت بعدها المكتبة التي حرقها عمرو بن العاص بأمر من عُمر. يُقال أنه بعد سقوط الإسكندرية في قبضة القائد العربي عمرو بن العاص، عرض يوهانس عليه أن يحافظ على المكتبة ويترك زمامها بين يد أصحابها - اليونانيين - ولكن عمرو، بعد اقتراح الفيلسوف، أرسل لقائده عُمر يسأله عما يرغب في فعله بهذه الكتب، وتلقَّى الإجابة التالية: بشأن الكتب التي ذكرتها، لو كانت تحوي بين صفحاتها ما يتوافق مع كتاب الله، فلا تمسَّها، وإن كانت تعارض كتاب الله فلا حاجة لها؛ لذا امنح الأمر بتدميرها.»؛ وعليه وزَّع عمرو الكتب على أنحاء المدينة لتستخدم في تدفئة الحمَّامات، وفي غضون ستة أشهر احترقت الكتب كلها. هذا «ما حدث» وفقًا لأبي الفرج، ويبدو أن الكاتب هنا يتعامل مع الحدَث دون اكتراث حقيقي. على الرغم من احترام المسلمين وتقديرهم لفروع شتى من الآداب، لكنهم اعتبروا أن كتب المسيحيين - بصورة عامة - لا أهمية لها، أو أنها تحمل نزعة شيطانية.

حان وقت رحيلي عن الإسكندرية ونواحيها، ولكن دعني أخبرك عن نيكروبوليس أو «مدينة الموتى» والتي لم أرَهَا، ولكني اكتفيت بوصف أخي لها، ثم سأغادر بفضولٍ كبيرٍ لرؤية القاهرة.

أُطلق اسم نيكروبوليس على بقعة تمتد لميلين تقريبًا في الجنوب الغربي من المدينة القديمة، وتقع تحديدًا بين المرفأ القديم، وحوض بحيرة مريوط. نُحتت المقابر الجماعية في الصخور، ويصفها أخي بجبَّانات صغيرة نُحتت دون عناية، مبهمة الملامح وغير مطلية. واحدة من تلك المقابر (أو الكتاكومب) ذات مساحة شاسعة. وهي الأجدر بالوصف. الغرفة

الرئيسة في المقبرة دائرية الشكل، ولها قبَّة خارجية. حول الغرفة ثلاثة تجاويف بداخلها، دون شك، عدة مومياوات، وحولها ثلاث فتحات في الصخور تشبه التوابيت. تجد في الغرف الأخرى تجاويف مماثلة للموتى. أما مدخل الغرفة الرئيسة، مزركش بأعمدة ورسوم تشي بالحقبة التي أُقيم فيها الكتاكومب، والتي ربما تعود إلى عصر قبل إنشاء الإسكندرية. بمحاذاة الشاطئ هناك مواقع حفر عديدة بجوار المرفأ، ولكن أقل مساحة، وأيضًا تكشف في النهاية عن وجود مقابر أثرية. بعضها قد غُمر بالفعل بمياه البحر بعدما انهار السور الخارجي وغمرت الأمواج قلب المقابر. يُطلق على بعض هذه المقابر لقب «حمَّامات كليوباترا» رغم أن المكان له نفس التصميم الداخلي لبقية المقابر.

أرجو أن تعذرني لو بدا وصفي للإسكندرية قصيرًا وغيرَ وافٍ، فأنا أتحرق لمواصلة طريقي نحو العاصمة، مع ذلك يجب أن أضيف أن الإسكندرية الحديثة، والتي تُعدُّ وريثة واحدة من أكثر المدن أهمية في العصور القديمة، خيَّبت ظني، وألقت بظلال الكآبة على نفسي.

لا شك أن التاريخ يمنح أهمية قصوى لهذه البقعة، التي كانت عاصمة مصر ذات يوم، ومسرحًا للعديد من الحروب الدموية الدرامية، ومسرح استشهاد القدِّيس سانت مارك، ومولد وإقامة آباء بارزين للكنيسة، وبلا شك منبع الانقسامات والبِدَع. ولكن نكتشف أن عقلنا يستكين لذكرى الماضي، ووحده يدفعنا لمواصلة المشوار.

(4) ملحوظة المترجمة: جسر بري فوق الماء شيده دينوقراطيس ووصل ارتفاعه ٦٠٠ قدم، وعُرف بهذا الاسم لأنه يساوي في طوله سبعة أضعاف الستاد اليوناني.

(5) ملحوظة المترجمة: وحدة قياس يونانية قديمة تيمُّنًا بالاستاد اليوناني ويعادل «الستاد» ١٨٠ مترًا.

(6) ملحوظة صوفيا لين بول: رشيد هي الاسم العربي لمدينة Rosetta.

(7) ملحوظة المترجمة: اسم رمسيس العظيم كما ذُكر في وثائق المؤرخ اليوناني هيرودوت.

(8) ملحوظة المترجمة: معلومات مغلوطة ثبت خطأها.

الرسالة الثالثة

القاهرة، يوليو ١٨٤٢.
صديقي العزيز،

وصلنا اليوم قريري النفس إلى القاهرة، استغرقت رحلتنا من البحر إلى النيل وقتًا طويلًا. غادرنا الإسكندرية بمَعديَّة، تُستخدم أغلب الوقت لنقل المسافرين إلى الهند من الإسكندرية، عبر ترعة تُسمَّى المحمودية تفضي إلى النيل. قارب فسيح يتكون من قمَرَتين واسعتين، القمَرَة الكبرى مؤثثة بطاولات ومقاعد، نظيفة المظهر. يجرُّ المعدية أربعة خيول عن طريق حبال معلقة في جسد القارب وزمام الخيل، تركض الخيل بمحاذاة الشاطئ فتُبحر المعدية في الماء. مر الوقت سريعًا واستمتعنا بنسيم الهواء المنعش الذي، عند حلول الليل، ألقى بنا في خطأ لا يُغتفر. استلقينا للراحة دون إسدال ستائر الناموسية. حرص المسئولون عن القارب على تغطية المقاعد بسجَّاد سميك. تخيَّل هذه الأريكة الواسعة الوثيرة! على أيَّة حال، لقد حاصرتنا البراغيث، والخنافس السوداء، خنافس أكبر من أي خنفسة قد رأيتها في إنجلترا. وَعَيْنا لخطئنا متأخرًا؛ لذا أشدد على ضرورة حرص أي مسافر إلى مصر أن ينام بعدما يسدل الناموسية، سواء في الشتاء أو في الصيف. بلا شك سيتقلص حجم الهواء النقي، وستزداد الحرارة ربما بعد ربع ساعة من إسدال الستائر، ولكن ليس الأمر بوطأة هجمات الحشرات المتتالية، حشرات فريدة ومختلفة، والتي يتعرض لها كل مسافر إلى الشرق. لا يمكنني أن أنسى ليلتنا الأولى في المعدية دون الناموسية (9).

وصلنا إلى مَصبِّ القناة في النيل صباح اليوم التالي، حينها اكتشفت أن القارب المتوقع أن يحملنا إلى القاهرة قد أُرسل في رحلة إلى أحد المهرجانات، وربما لن يعود إلا بعد عدة أيام. حينها أصبحنا نعاني معاناةً قاسية. بين تلَّيْن من الطين الجاف، شكَّلَا ضفَّتَي القناة، رأيت أكواخًا طينية. أصابتني الحرارة الشديدة ورائحة المكان - حيث طوقتنا القوارب والزوارق لمدة يومين وليلتين دون القدرة على التحرك (لأن من الضروري للصعود على متن «قارب النيل» المكوث بالقرب من مدخل القناة) - بما هو، دون شك، أسوأ من دُوَار البحر، أو أيًّا من الاضطرابات التي كابدناها أثناء السفر حتى الآن. بلا شك أُفضِّل دوار البحر لأنه يمنحني راحة إجبارية في مضجعي تحميني من أسى مشاهدة بلدي الغالية، التي يحيا على أرضها الكثير من أحبائي، تتلاشى أمام ناظري. مهما طالت أو قصُرت المدة التي يحددها أحدهم لزيارة بلاد أخرى، مهما لاقت الرحلة استحسانه، مهما امتلأت نفسه بالأمل، هناك دومًا ندم - وشعور بالكرب - يساور المسافر حين يغادر إنجلترا، يصعب وصفه أو توقعه. لكن دعني ألَّا أنحرف عن هدف الرسالة. كانت القناة تشق طريقها في لسان اليابسة الضيق بين مستنقع المريوط المالح وبحيرة «أبو قير»، وحدودها مع كليهما تشكَّلت من كتل الصخور الصلبة لمنع، إلى حدٍّ ما، تسرب المياه المالحة إلى المحمودية، فهي الوسيلة

الوحيدة لتزويد صهاريج الإسكندرية بالماء الحلو. تعبُر المحمودية، في عدة مناطق، نفس الأراضي التي مر بها قنال الإسكندرية القديم. وقد وُظِّف أكثر من ثلاثمائة ألف رجلٍ لحفرها، يُقال أن ما يقرب اثني عشر ألفًا منهم تُوفِّي خلال عشرة أشهر من الحفر، أغلبهم مات بسبب التعذيب، العمل الشاق، وفقر التغذية الجيدة والمياه الصالحة للشرب. كانت معدات الحفر الوحيدة المتوافرة لها هي المعاول التي عادةً ما تُستخدم في الزراعة في مصر، واضطروا في أحيان كثيرة لكشط التربة الرطبة بأيديهم ونقلها إلى السِّلال. يبلغ طول القناة الكلي نحو خمسين ميلًا بريطانيًا، وعرضها يُقدر بنحو ثمانين إلى تسعين قدمًا. بدأ حفر القناة عام ١٨١٩ واكتمل في العام ذاته. أما اسم المحمودية فأُطلق عليها تيمُّنًا بمحمود، السلطان الحاكم آنذاك.

وصل قاربنا المنشود بعد يومين، وفي سرورٍ غادرنا المحمودية وأنحاءَها الكئيبة حيث بدا على الفلاحين المعاناة من الفقر المُدْقِع، وحيث أكواخها المبنية من الطين، أغلبها بُنيت بشكل دائري، توحي، تحت ضوء القمر، بمشهد أطلال أبراج القلاع بينما بصيصٌ من الضوء الأحمر ينبعث بين الحين والآخر من إحدى الكوَّات.

كانت الوصلة بين القناة والنيل مغلقة؛ لذا سرنا لعدة دقائق بمحاذاة الضفة، وحفَّتنا السعادة حين دلفنا إلى القارب ليداعبنا النسيم اللذيذ، ومشاهدة الضفاف الخضراء (خاصةً جهة الدلتا) لواحدٍ من أشهر أنهار العالم.

قوارب النيل بُنيت بعناية فائقة لتناسب الإبحار في النهر. يمكن التحكُّم في الأشرعة مثلثة الشكل بسهولة فائقة، وهي ميزة ذات أهمية قصوى لأن هبوب الرياح المفاجئ - والمتوقع - يتطلب غلق الأشرعة في أقل من دقيقة وإلا لربما غرق القارب. في أحيانٍ عدَّة كان جزء من القارب يُغمر كُليًّا بالماء، ولكن البحارة كانوا على قدرٍ كبيرٍ من المهارة التي جعلت وقوع أي حادث أمرًا مُستبعدًا، إلا لو استمرت الرحلة خلال الليل.

أمرَنا قائدُ القارب ألَّا يتحرك أثناء الليل؛ لذلك قضينا ثلاثة أيام في النيل.

هناك عادة يمارسها كل البحَّارة العرب عند بداية الرحلة، وقد أشاعت في نفسي سرورًا بالغًا. بمجرد أن تعانق الرياح الشراع الهائل، يقرأ الريِّس (أو رُبَّان القارب) الفاتحة.

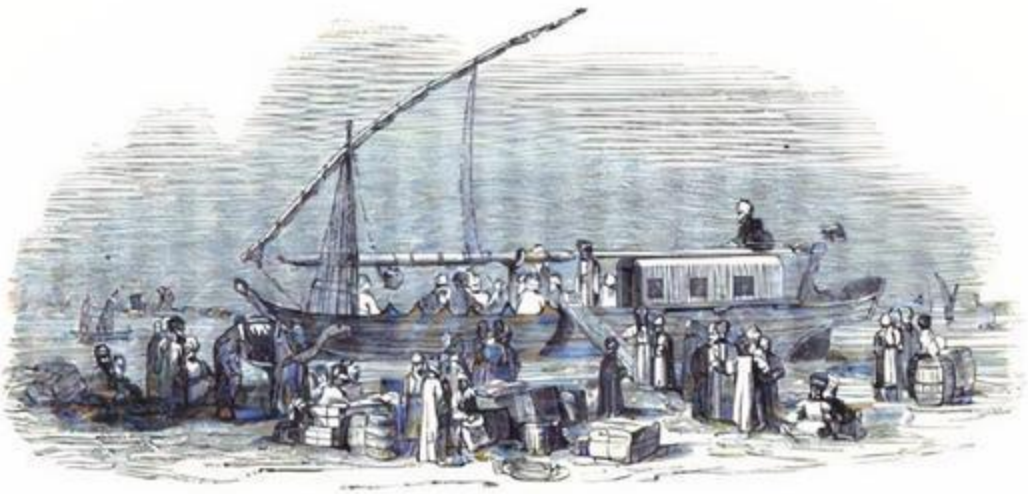

Nile-Boat.

مَزكَب نيليَّة

هذا عنوان السورة الافتتاحية في القرءان (صلاة قصيرة وبسيطة)، يرددها الريِّس وطاقمه معًا في صوت خفيض. يمكنني القول أن عادة هذا المسلم البسيط تُذكِّرني برجال الريف في بلادنا، ربما التوكُّل على حماية الله المطلقة فطرة عالمية، فنبارك كل رحلاتنا بالصلاة.

عبرنا مدينة فوَّة في اليوم الأول، هناك رأيت أحد عشر مسجدًا مميزًا بقبابه ومآذنه، وبضعة مصانع. المساكن بائسة المنظر، ولكن حين تطالع المشهد كله عن قرب تلمس لمحة من الجمال، حيث طُليت المآذن والمنازل باللون الأبيض اللامع، باعتبارها لمدينة في مصر، فهي في حالة لا بأس بها. رأيت عددًا من نساء وفتيات القرية يملأن الأباريق على الضفة أثناء مرورنا، والبعض منهن يغسلن الثياب، فور انتهائهن، شرعت كل واحدة تغسل يدها ووجهها وقدميها، وغادرت بالإبريق أو الجرَّة مستقرةً على رأسها. خرقة من القماش ملفوفة في شكل دائري وضعت على رأسهن ساعدت في الحفاظ على ثبات الإبريق، لقد رأيت أكثر من مرة خلال مدة بقائي في المحمودية، أباريق ضخمة وثقيلة تحملها النساء على رؤوسهن دون أن يرفعن يدًا واحدة ليحافظن على ثبات الإبريق.

فوَّة، مثل مطوبس، مشهورة بجمال نسائها، ولكننا لم نرسُ إلى الضفة لذلك لم تسنح لي الفرصة للتعرُّف إليهن عن قرب. الغالبية العظمى من نساء الطبقة الدنيا يتميزن، على ما أعتقد، ببشرتهن البيضاء الشاهقة. لباسهن المعتاد (والوحيد في أغلب الأوقات باستثناء غطاء الرأس)، هو سُتْرة زرقاء، تختلف قليلًا عن سترة الرجال، والتي عادةً ما تكون زرقاء أيضًا. من عادة نساء هذه الطبقة في مصر وَشْم أجزاء من جسدهن - خاصةً مفرق الذقن

والشفتين - بعلامات زرقاء. كما يصبغن - مثل نساء الطبقة العليا - أظفارهن بالحنَّة الحمراء الدَّكْنَاء، ويجدلن شعورهن عدة جدائل طويلة تنسدل على ظهورهن.

لا يجب أن أغفل ذكر شهرة فوة بثمار الرُّمان، فالمدينة تزرع وفرة من أشجار الرمان ممتازة المذاق.

وصلنا قرية شُبراخيت بعد غروب الشمس بفترة قصيرة، وكما رجَّح البحارة أن يرسو القارب في هذه المنطقة خلال الليلة، مكثنا هناك إلى الصباح. كان من المثير حين أشرقت الشمس مشاهدة الفلاحين وعملهم المنهك. أثناء الإبحار أبحر عدة فقراء نحو القارب، يجدفون بأقدامهم ويحملون ثلاث بِطِّيخات، واحدة في كل يد وواحدة على الرأس. كيف سبحوا هكذا؟ لا أعرف.. ولكن كانت سباحتهم مبهرة، بَدَوْا مرتاحين للغاية.

في اليوم التالي عبرنا «سايس» الشهيرة، وبعدها تراءت لنا لمحات من الصحراء الشاسعة، وبحر رمالها الفسيح. «سايس» كانت عاصمة الدلتا القديمة، وواحدة من أشهر مدن مصر، ومسقط رأس سيكروبس، الذي يُشاع أنه قاد فَيْلقًا من مصر إلى أتيكا، كان ذلك قبل عام ١٥٥٦ من عصر المسيح، وأسَّس مدينة أثينا وجعل الآلهة منيرفا - معبودة مدينته الأُمّ - آلهة المدينة (الإلهة نيث عند المصريين القدماء). تتراكم النُّفايات في أنحاء هذا المكان مما يدفع المرء للإحجام عن زيارته، لكن أعمال التنقيب من المُرجَّح أن تؤدي إلى اكتشافات مثيرة. يُطلق على «سايس» حديثًا اسم «صان الحجر» ربما تيمُّنًا بالكنيسة المنحوتة من صخرة واحدة والتي وصفها هيرودوت بكونها أكثر المعالم البارزة في هذه المنطقة آنذاك. أطلال سايس تبدو، في النهار، مجرد تلال سامية واسعة النطاق. بدت الأطلال تشبه باحة واسعة، مساحتها ما يقارب نصفَ ميلٍ طولًا وعرضًا. يحيطها جدران مذهلة الأبعاد، سمكها ما يقرب خمسة عشر قدمًا، وغالبًا ما يكون ارتفاعها أزيَد من سُمكها، بُنيت من أحجار ضخمة من الصخور الخام، يبلغ طول الصخرة من خمسة عشر إلى ستة عشر إنْش، وعرضها ثمانية إنشات، أما سُمكها فيبلغ سبعة إنشات. تآكلت الغالبية العظمى من تلك الجدران بفعل الأمطار، رغم ندرتها في هذه الأقطار من مصر؛ مما جعل التفريق بينها وبين تلال القمامة التي تراكمت حولها، بل ودفنت بعضها، عسيرًا على الناظر عن مقربة. داخل الساحة يمكن ملاحظة عدة كُتَل صخرية ضخمة، وبقايا مبانٍ من الطوب اللَّبِن يبدو أنها كانت تُستخدم للدفن، وعدة جبَّانات تم اكتشافها ونهبها سلفًا. هناك أيضًا المعبد الشهير للإلهة المصرية منيرفا، الذي وصفه هيرودوت، وشرفته التي تجاوزت في حجمها الأبعاد المعتادة كافةً لمثل تلك المعابد، وزُينت جداره بنقوش ضخمة لأبي الهول المُجنَّح. في السابق، كما ذكرت، بُني المعبد من وحدات متراصَّة (مونوليث)، يبلغ طوله إحدى وعشرين ذراعًا، وعرضه أربع عشرة ذراعًا، وارتفاعه ثماني أذرع. ذكر هيرودوت أن ألفَيْ بحَّار تم توظيفهم على مدار ثلاث سنوات لنقل تلك الكتل عبر النيل من الجنوب، وتحديدًا جزيرة فيلة. بُني المعبد على أطلال تمثال عملاق (كولوسيس) نُحت في وضعيَّة استلقاء (أو، والمُرجَّح أكثر، وضعية جلوس)، يبلغ طوله خمسة وسبعين قدمًا، هذا التمثال العملاق

يحاكي تمثال ڤولكانس في ممفيس، والذي فيما بعد أهدي إلى رمسيس الثاني. خلف المعبد وجد قبر صغير لم يصرح المؤرخون إلى مَنْ يرجع هذا القبر. بين أسوار الساحة المقدسة وقفت مسلات عالية في شموخ بالقرب من بحيرة مُحددة بالأحجار. كانت البحيرة مسرح الأحداث الليلية الغامضة التي تقصُّ تاريخ صاحب القبر المجهول، ولكن من المرجح أنه أوزوريس؛ لأنه، بالنظر إلى طبيعة المصريين الدينية، من المفضل عدم ذكر اسم الرَّبّ. العديد من المدن المصرية، غير صان الحجر، حظيت بشرف اعتبارها محل دفن أوزوريس. دُفن كل الفراعنة الذين وُلدوا في منطقة صان الحجر بين أسوار هذه الساحة التي أحاطت أطلال سايس المقدسة، ومن هؤلاء الملوك، واح - ايب - رع الذي بُني له قصر مَهِيب في هذه المنطقة. من أهم المحافل الدينية التي احتفى بها المصريون القدماء بصورة دورية، ويُعد الثالث من حيث الأهمية، هو احتفال سايس (صان الحجر) على شرف الإلهة نيت. الاحتفال الأهم كان في مدينة تل بسطة، ويليه احتفال بنا أبو صير، وتقع كلتا المدينتين في صعيد مصر. أما احتفال سايس فكان يُسمَّى «احتفال إضاءة المشاعل»؛ لأنه بمناسبة الاحتفال كانت منازل المدينة، والمنازل في أنحاء مصر، تُضيء المشاعل وتعلقها خارج المنزل.

ذكرت لك أن القارب الذي حملنا توقف في المحمودية وأرسل فريث ليحضر مشهدًا احتفاليًّا، وقد يُدهشك أن تعرف أن عادات المصريين الآن لم تختلف كثيرًا عن السكندريين قديمًا، السابقين الذين توافدوا على الاحتفالات الفاضحة يحتفون بالإله سيرابيس(10). عدد كبير من السفن غطت القناة ليلًا ونهارًا، تحمل الحجَّاج من كلا الجنسين، يرقصون، ويغنون، ويحتسون الخمر، مستغلين الرُّخْصة الدينية الممنوحة لهم. أما الآن، فعدد كبير من سكان العاصمة - الرجال - ورجال من بقاع أخرى، وعدد لا بأس به من المَحظيَّات، يتوافدون لإحياء ذكرى ميلاد السيد أحمد البدوي(11) (قدِّيس مسلم مشهور)، في طنطا التي تقع في الدلتا، ويشاركهم الاحتفال الراقصات، والمطربون، كما أخبروني أن البراندي يُعامل معاملة القهوة في هذا الاحتفال.

مررنا، اليوم، بجوار قرية كفر الزيَّات والتي بدت مزدحمة لأن عددًا كبيرًا من زوار السيد مكثوا فيها، خلال رحلتهم إلى طنطا، وفريق آخر مكث فيها للاستراحة قبل العودة إلى منازلهم.

في ساعة متأخرة من الليل وصلنا إلى قرية نادر، وهناك قضينا الليلة. استيقظنا لنجد أنفسنا محاطين بعددٍ لا بأس به من الأبقار تقف في مياه النيل. لا غنى عن ألبان تلك البقرات، والزُّبْدة المصنوعة منه شديدة البياض ولها مذاق حلو. عادةً ما رأينا دَوَابَّ تقف أو تستلقي في مياه النيل؛ لأن عدة منحنيات من النهر ضحلة المياه، وبعضها له ضفة رملية. ذلك يؤثر أيضًا على سير القوارب، ولكن نادرًا ما تحتاج لأشرعة دفع، أو لهبوط الطاقم إلى الماء لدفع القارب بأكتافهم وظهورهم. بهدوء كانت السفينة تتحرك بسواعد الطاقم، وفي أحيانٍ كثيرة من سَفْرتنا اتخذ الطاقم بأكمله، المُكوَّن من عشرة رجال، مهمة التجديف بينما

صاحَبنا الريِّس. من المدهش مشاهدتهم ينجزون هذه المهمة الشاقة تحت حرارة يوليو، نادرًا ما توقفوا للاستراحة، وكانت استراحات قصيرة. عادة ما أنشد البحارة الأغاني أثناء الرحلة، وغالبًا ما دقوا الربابة - المزعجة - والزَّمَّارة، وهي أنبوب مجوَّف طويل به ثقوب على الجانبين. هناك شيءٌ جاذبٌ في تلك الأغاني رغم أنني لا أفهمها. هناك نبرة سعادة بالغة تصدر من أصواتهم وتبعث في النفس شعورًا جيدًا لسماعها.

النوع الأكثر شيوعًا من القوارب يُسمَّى كانجه، وأحيانًا ما تُلفظ كانچه. هي قوارب طويلة وضيقة، ولا تحتاج لطاقة تجديف بالغة، فقط ساريان شُدَّ عليهما شراعان واسعان، وقَمَرة صغيرة تنقسم عادةً إلى غرفتين أو ثلاثة، والغرف لها نوافذ صغيرة مربعة، تغطيها الستائر أو الزجاج، ومن الداخل لها مزلاج للغلق. أكثر ما أقلقنا في قاربنا كانت الخنافس والحشرات الزاحفة والهاموش، لقد أقضَّت مضجعنا بحق أنا وأطفالي المساكين، وزادني إشفاقًا صبرهم ومثابرتهم الواضحة. بلا شك أن هؤلاء المسافرين الصغار عطّلوا من رغبتنا في الوصول إلى المنزل.

أثناء الليل أسهمت الناموسية في تقليل انزعاجنا من تلك الحشرات، لكنها لم تصرفها بشكل نهائي. مع ذلك فتلك الستائر لا غنى عنها لأنها تمنع هجمات الزواحف كبيرة الحجم، إلا أن الخنافس والهاموش أثبتت فعاليتها ضد وسائل الحماية من الحشرات كافة.

تتسم قوارب نبلاء الأتراك بالبهرجة. عادة ما تُزيَّن جدران القمرات من الداخل والخارج برسوم الأزهار، بينما يرتفع على الساري العلم الأحمر الدامي، يتوسطه الهلال الأبيض ونجمة أو عدة نجوم. أما القوارب الأخرى، فتتسم ببساطة التصميم رغم مظهرها شديد الجاذبية.

اليوم لم نمرَّ بجوار أماكن تستحق الوصف، عدا، بلا شك، مناظر أشجار النخيل البديعة العالية التي تضفي سمة جميلة ومميزة للمناظر الطبيعية في مصر. مع ذلك دعني أخبرك عن أكثر ما أثار انتباهي في تلك القرى. بجوار كل كوخ، تقريبًا، هناك مبنى للحمَام، طويل وله شكل أسطواني، مبنيّ من الطين. تزخر كل القرى في هذه الأقطار ببيوت الحمام تلك والتي عادةً ما تكون أكبر حجمًا من المنازل.

لاحظنا عددًا كبيرًا من جثث الماشية تطفو على سطح المياه، أو ترقد على ضفة النهر، أعتقد أن ذلك يرجع لتفشِّي طاعون الماشية في مصر(12).

خلال رحلتنا شاهدنا عدة أشكال للضباب الكثيف (يسميه العرب: السَّرَاب) لكن صفاء الماء الجليّ كثيرًا ما بدده. تتسم مياه النيل العذبة بعمق يجعل من المستحيل على السراب أن يوحي بأي شيء عدا، ربما، وجود بحيرة صافية بالقرب من ضفَّتَي النهر. على أيَّة حال إنها ظاهرة مثيرة للفضول، وبالتأكيد تثير شعورًا بالشفقة والألم على أولئك الهائمين في الصحاري والذين وقعوا فريسة سهلة لهذا الوهم.

ليس لديَّ الكثير لقوله عن جمال ضفَّتَي النيل، غالبًا ما سدَّا منظر القرى بسبب ارتفاعهما وطريقة بنائهما العمودي. غالبًا ما بدت ضفة النهر من جهة الدلتا خضراء تسرُّ الناظرين ولكن المنظر تشابه طوال رحلتنا. لا أتعمد التقليل من بهاء المنظر، ولكن أنت بلا شك سمعت أن ضفتي النيل ترفلان في حُلَّة بهيَّة بعد قرابة شهر من انخفاض منسوب مياه النيل؛ وذلك لأن الأرض تكون في حالة ممتازة من الخصوبة على الجانبين، وتظهر التربة كما لو كانت مساحة شاسعة من الزمرد الأخضر، أما الجُزُر الصغير المتناثرة على طول الوادي فتبدو متوَّجة بالخضراوات اليانعة.

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي لاحت الأهرام الجليلة في الأفق، ولكن تموُّجات الحرارة في الغلاف الجوي حالت بيننا وبين رؤيتها بصورة واضحة. وقفت الأهرام على بُعد ١٧ كيلومترًا من موقعنا. سرعان ما وصلنا إلى بولاق، مرفأ القاهرة الرئيس، وعند وصولنا أصبحت مضطرة، أنا وزوجة أخي، إلى شراء ملابس شرقية. لم نجد صعوبة في الحصول على ما نريد، ولم نستغرق وقتًا في ارتداء الزي، ولكن بمجرد ارتدائه شعرنا باختناق لا يُنسى. تخيل أن وجهنا كان مغطى بحجاب رقيق من القطن، سميك قليلًا عند الجبهة، والعين هي كل ما تبدو من هذا الحجاب، وفوق ثوب من الحرير الملون، ارتدينا ثوبًا آخر من الحرير الأسود، يغطي، في رأيي، الجسد كله كما الخيمة. نظرت، بفضل المنفَذ الوحيد في ثوبي عند العين، بجزع إلى التل المرتفع الذي يجب علينا صعوده، ثم إلى الحمار الواقف عند القمة منتظرًا ليحملني. لا أعتقد أن هناك شعورًا أشد غرابةً من الصعود على ظهر حمار بهذه الملابس، ولو كان لديَّ أي خيار آخر للظَّفَر بهدفي دون أن أرتديها لفعلت، ولكني لم أملك أي خيار. إذا احتفظت بزيِّي الإنجليزي ما كان سُمح لي بالولوج إلى عدد كبير من الحرملك، علاوة على ذلك، فإن المسلمين يؤمنون بوقوع اللعنات على المُتبرِّجة وكل مَن نظر إليها، وهذا يجعل المرأة تتخوَّف من التبرُّج أمام عابر لأنه سيعتبرها نذير شؤم.

في كتابه «المصريون المعاصرون» وضح أخي كيفية ارتداء السيدات المحليات في مصر للحَبْرَة. أما السيدات التركيات فاعتدن غلق الحبرة من الأمام خشية ظهور الثوب الملون أسفله والذي يُسمَّى السّبلَة.

ثياب المنزل ملائمة جدًّا لطبيعة المناخ ولها تصميمات غاية في الجاذبية، أما ثياب الشارع فمريبة ومثيرة للضحك والسخرية.

A Turkish Lady in the Riding-Attire of Egypt.

سأسرد لك ملخص مسيرتنا من بولاق إلى القاهرة والتي قطعنا فيها ما يقارب ميلين.

بعدما صعدنا جميعًا إلى التلَّة، واصطحبنا أحد الضباط الإنكشارية، بدا الجميع مدهوشًا، والدَّوابُّ تتحرك بنا في شوارع بولاق، من الحالة المتداعية التي وجدنا عليها هذه الضاحية. هناك، بالطبع، منازل حسنة المظهر، كما أكد لي المرافقون، ولكننا لم نحظَ بحظٍّ سعيدٍ كفاية لنراها، وسرَّنا الخروج سريعًا من شوارعها الضيقة إلى منطقة فسيحة، حيث سرعان ما أزعجنا التراب الذي سبَّبته أقدام الحمير النابشة في الطريق الترابي، هنا ربما شعرنا بامتنانٍ لأن جسدنا كله في مأمن من هذا التراب. قطعنا مسافةً لا بأس بها حتى دلفنا إلى القاهرة، وحينها ازدادت دهشتي عشرة أضعاف.

حدثتُك عن شوارع الإسكندرية الضيقة، والتي، بالمقارنة بشوارع القاهرة، واسعة جدًّا. المشربيات، أو الشبابيك الخشبية البانورامية، تواجه إحداها الأخرى، وتكاد تكون في درجة من درجات التماسّ، وفي أغلب البيوت يمكنك ملامسة النوافذ بيديك.

أول شعور انتابني وأنا أسير في شوارع تلك المدينة المشهورة أن الناس قد هجروها لفترة طويلة، ربما لقرن، ثم، فجأة، عادوا دون أن يسعهم؛ بسبب الفقر وأشياء أخرى، تصليح ما طالها من خراب، وإزالة ما خلَّفه الزمان من خيوط العنكبوت المتشابكة في كل ركن. لم أرَ في حياتي هذا العدد من بيوت العنكبوت على الكوَّات والنوافذ في هذا الظلام الدامس الكئيب؛ مما جعلني أفكر في الحالة التي يعيش عليها هؤلاء السكان. كنت أود لو أدعي أنني لا أخشى هذه الكائنات، ولكن بالتأكيد لا يوجد في عالم الحشرات ما هو أبشع منظرًا من العناكب السوداء غليظة الأقدام.

مررنا بعدة شوارع حيث المساكن لفظت سكانها أو هكذا بدا لي، حتى وصلنا إلى منزل بهيّ يقع بين لفيفٍ من الحدائق، سنتخذ منه مستقرًّا إلى حين. قابلتنا أشجار النخيل مَيلاء الفروع من كل صوب، وأشجار السَّنْط، والمَوْز، والبرتقال، والليمون، وأشجار الرُّمَّان، وكُروم العنب، شكلت جميعًا تنوعًا بديع المنظر، لكن عقبة واحدة وقفت أمام هذه النظرة الأولى البديعة، لولاها لبدا المشهد خلابًا. هذه العقبة كانت حاجة تلك الأشجار لقطرات المياه. كانت الأتربة متكاثفة على أوراق الشجر، أما التربة فتُسقى عن طريق ساقية يجرُّها ثور صَبُور يؤدي دوره دون استراحة تُذكر، ويكدُّ في عمله.

أثار تخطيط الحدائق إعجابي. تقطع الحدائق ممرات متوازية، على جانبيها تقع مزاريب بمسافات متساوية، وتنقسم الحدائق إلى مربعات متساوية تشكل مقصورات عرض كل واحدة ما يقرب ياردتين، تحفُّها تلال ترابية بطول نصف قدم، وتمر المياه إلى كل مقصورة، عبر تلك المزاريب، بالتوالي. لم أمنع نفسي وأنا أشاهد تراكم المياه في تلك المقصورات، أحيانًا دون أن تتشبع التربة، من ذكر حدائقنا الغنَّاء في إنجلترا، وحرصنا الشديد أثناء سُقية الأزهار على عدم غمر الأحواض بالمياه؛ لأنها قد تضر التربة، وبلا شك تؤذي الناظر.

هذه المقارنة أفضت بي إلى الظن في عدم جدوى الاهتمام بحديقة في مصر، ربما بسبب اعتزازي الوطني وحبي لمناظره. الوداع!

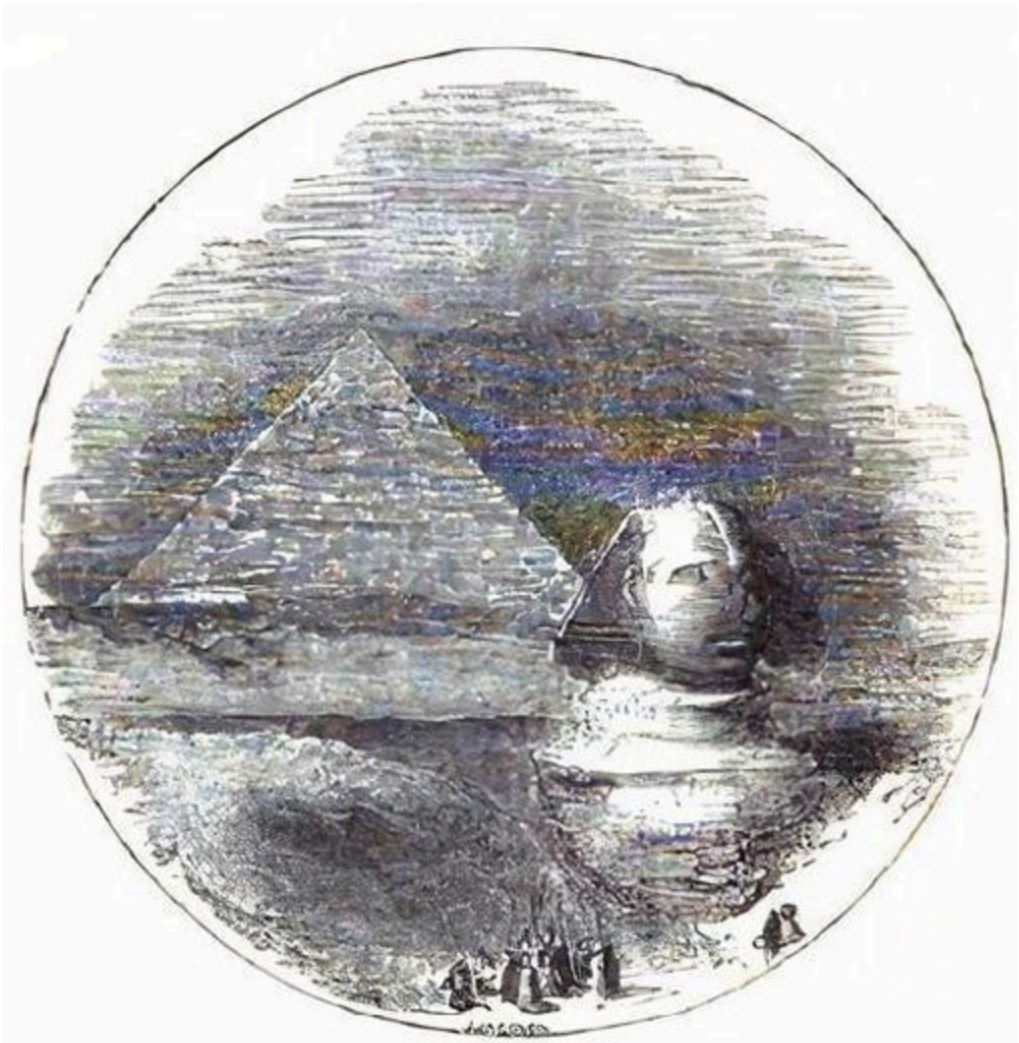

Pyramid and Sphinx.

(9) ملحوظة صوفيا لين بول: منذ ذكرت هذا الأمر، أعتقد أن شركة شبه الجزيرة الشرقية للملاحة تولَّت وسائل المواصلات من الإسكندرية إلى السويس. أعتقد لأن الشركة رغبت في توفير أفضل وسيلة مواصلات للمسافرين من إنجلترا إلى مصر. الآن وسيلة السفر من إنجلترا إلى الهند - كما أخبروني - أصبحت مريحة وتلبِّي رغبات أي إنسان طبيعي.

(10) ملحوظة المترجمة: سيرابيس هو إله يوناني - مصري، نشأ في عهد الملك بطليموس الأول وجمع فيه بين صفات أوزوريس وأبيس.

(11) ملحوظة صوفيا لين بول: سيِّد، لقب يُمنح لمن ينحدر من نسل الرسول.

(12) ملحوظة صوفيا لين بول: انتشر طاعون الماشية في مصر لأكثر من ثلاثة أشهر، وأعاد لأذهاننا ما حدث في عصر موسى.

الرسالة الرابعة

القاهرة، أغسطس، ١٨٤٢.
صديقي العزيز،

رغم ما شهدناه من تنافر في المظاهر والملابس بين الناس في مالطا والإسكندرية والتي قد تسبب دهشة كبيرة لأي أوروبي يعيش في القاهرة، أعتقد أن خصوصيات هذه المدينة وأهلها فاقت أكثر توقعاتي جموحًا. يمر طريق شبرا بالقرب من نوافذ مسكننا، ودائمًا ما جذبتني المواكب المختلفة التي تعبُره من المدينة وإليها.

سرَّتني مشاهدة مواكب الزفاف حيث تسير العروس المسكينة، بين امرأتين، أسفل مظلة من الحرير، لا تغطيها فقط، بل تغلفها من كل اتجاه بشالٍ كبير، بينما القبيلة التي تسير خلف «الرجل الموعود» تعبِّر بين الحين والآخر عن سعادتها بتأدية عدة عروض يمكن تخيلها، وأخرى لا تخطر أبدًا على بالنا، ويتصاعد الصخب بفضل الأطفال الذين يخرجون من المنازل المجاورة للمشاركة في الموكب. لا شك أن العروس تختنق قبل أن تصل إلى وجهتها؛ وذلك لأنه يتعيَّن عليها السير، في معظم الوقت شبه غائبة عن الوعي من شدة الإنهاك، تحت شمس منتصف النهار، وأحيانًا لمسافات طويلة، بينما عدد قليل من الموسيقيين يعزفون، ما يمكن اعتباره لحنًا، على الطبول وآلات النفخ، ويحيط العروس الصرخات النسائية التي تُسمَّى «زغاريط» (صرخات فرح متهدجة) تُسْهم في صم الآذان من حولها.

أصابني إحساس بالكرب لرؤية الجنازات. توضع جثة الرجل في تابوت مفتوح، لا يغطيها سوى قطعة قماش تلف الجسد كله وتوضح معالمه. أما جثة المرأة فتُحمل في تابوت مغلق، يُغطَّى بقطعة من القماش، وخشبة تستقر على مقدمة التابوت، تُغطى أيضًا بقماش وعادة ما تُزخرف بنقوش منسوجة من غطاء رأس المرأة المُتوفَّاة. أما الأطفال فيُحملون أيضًا في توابيت مغلقة.

لا أنسى أبدًا صوت سمعته أثناء اقتراب إحدى الجنازات، كانت صرخة تشي بألم عميق - صرخة تصدر عن قلب ممزق، كانت مميزة من بين عويل النساء المشاركات في النحيب. اتجهنا مباشرة نحو النوافذ لنرى رجل يقود مسيرة النساء، ويحمل بين ذراعيه جثة طفل رضيع يكفنه قماش أبيض، ويتجه إلى مثواه الأخير. استمرت صرخة الألم من أمه - كما خمنت - والتي لا تصدر سوى من قلب يكاد أن ينشق ألمًا. ليعترض على قولي من يستطع، لكني سأظل مُصرّة على رأي، لا حب يضاهي عمق حب الأم لابنها والابن لأمه، ولا رباط أشد وثاقًا من رباطهما.

عديدة هي الجنازات التي مرت، ولكن هناك عروض أخرى مرت أسفل نافذتي وقدمت لي تسلية لا تنتهي جعلتني أتوق لرؤية منازل هذه المدينة العجيبة، والسير في شوارعها وطرقاتها. مع ذلك، بعد تفكير مطول، قررت أن أؤجل زيارات المنتظرة للحرملك إلى حين لتعلم بعض الكلمات العربية، لأن، رغم أن التركية هي اللغة المعتاد الحديث بها في الحرملك، العربية يفهمها أغلب الناس، وهي أيضًا لغة العامة في مصر؛ لذلك التعرف على بعض أساسياتها أمر لا بد منه.

على أيَّة حال كان هدفنا الأول هو إيجاد مسكن مريح، ورغم المساعدة الحثيثة التي تلقيناها من العديد من الأصدقاء، إلا أن أخي اختبر صعوبة حقيقية في الوصول لغايته. تلقينا اهتمام ودود من المعارف، وعرفت القليل عن سلوكيات الحرملك ودوره. كما كرست سيدتان سوريتان وقتهما لمساعدتنا بكل السبل الممكن.

بعد شهر انقضى في البحث عن منزل دون جدوى، سعدنا بإيجاد منزل غاية في التميُّز، بدا مناسبًا لنا من كافة الجهات، وها أنا اكتب لك الآن منه. لكن مستقرنا المريح في هذا المسكن الجديد لم يعكر صفوه سوى مشكلة واحدة تُحتِّم علينا أن نرتب للرحيل إلى آخر في أسرع وقت ممكن. المنزل جميل، يظهر كما لو كان قد بُني حديثًا، رغم أنه عتيق البنيان؛ لذا دعني أحدثك في البداية عن أفضل المنازل في مصر بوصفي لهذا المنزل، اطلاعك على القليل من تخطيطه الداخلي ربما سيتيح لك فهم المشكلة التي تواجهنا.

هناك باحة مفتوحة للهواء الطلق تقع في الطابق الأرضي يحيطها أجزاء المنزل، والشرفات تعلو بعضها البعض. حول الباحة هناك خمسة غرف: غرفة كبيرة (المندرة) مخصصة لاستقبال الزوار الرجال، في منتصفها تقع نافورة صغيرة، غرفة الشتاء، غرفة نوم صغيرة مجهزة لأي زائر من الرجال، مطبخ، وغرفة القهوة مخصصة للخدم. على يمين المدخل الخارجي للمنزل يقع الباب المفضي للحرملك، أو المدخل الذي يقود لسلالم غرف النساء، يُعد المنزل بأكمله - عدا غرف الطابق الأرضي - جزء من الحرملك. في الطابق الأول غرفة ممهدة بالرخام، لها شرفة مفتوحة نحو الشمال ترسل إلى الغرفة نسيم منعش. في ذات الطابق هناك خمس غرف أخرى. الغالبية العظمى من الطابقين، حوالي ثلاثة أرباع مساحة الطابق، ترتفع بخمس أو ست إنشات عن الربع الباقي المُعبد بالرخام. والسبب أن الأحذية تُترك في تلك المنطقة، بينما الجزء المرتفع المفروش بالسجاد لا يجب تدنيسه بأي قاذورات. تُغطى الأقدام، بالإضافة إلى الجوارب، بشيء يشبه الخف، مصنوع من الجلد المغربي، ويسمى «مِز»، بينما أحذية الخارج مصممة دون كعب يرتفع عن الأرض وتسمى «بابوغ». بالمناسبة، عادة ما أفقد الأخير، وأخشى أنني سأفقده دومًا لأني أعجز عن تعلم السير دون كعب كما يفعل نساء هذا البلد. حين نرتدي ثياب الشارع يجب تغيير المِز بجوارب من الجلد المغربي، ثم نرتدي البابوغ والذي عادة ما يصبغ بلون أصفر باهت. الجدران مطلية باللون الأبيض أما السقف مصنوع من الخشب المعشق، وله مظهر بديع التنظيم. بالإضافة إلى الغرف التي سبق وذكرتها، هناك ثلاث غرف صغيرة ممهدة بالرخام

هم غرفة صغيرة للنوم، وغرفة للاسترخاء، وحمام. مثلت تلك الغرف الثلاث رفاهية هنئنا أنفسنا عليها لكن دون أن ندري أنها ستكون الجزء الأسوأ من المنزل. في الطابق الأخير تقع أربع غرف، الغرفة الرئيسة لها تراس فسيح يطل تقريبًا على أغلب المنازل المجاورة. استمتعنا بتناول وجبات الإفطار والعشاء في هذه الشرفة تحت أصفى سماء عرفها العالم، ودائمًا ما ذكرنا أن الهواء اللذيذ الذي يهب في الصباح والمساء قادمًا من الشمال حيث وطننا العزيز، وبدت تلك الفكرة لها وقع لذيذ على أنفسنا.

أصابتنا الدهشة بعد مرور عدة أيام من حياتنا الطبيعية هنا لاكتشاف أن الخدم عاجزين عن الحصول على أي قسط من الراحة خلال الليل بسبب طرقات متتالية تزعجهم، وبسبب ظهور ما اعتقدوا أنها عفريت، ويعني «روح شريرة» لكن غالبًا ما يستخدم مصطلح عفريت للإشارة إلى الشبح. بدت شكاوى الخدم من هذا العفريت صادقة. انزعج أخي ذات صباح بسبب ضجة واضحة إلى مسامعنا تصدر من أسفل النافذة بدت كأنها ضجة شجار، أرسل في طلب أحد الخدم ليفهم سبب الشجار، لكن الخادم جاوب قائلًا: «سيدي الأفندي، ليس أمر جلل، الأمر الذي يزعجنا بحق هو وجود شيطان في الحمام.» رد أخي الواعي بإيمان هؤلاء القوم بالخرافات: «حسنًا، أتظن أن هناك حمام في العالم كله لا يحوي داخله أرواح شريرة وفقًا لتقاليدكم المشهورة بشأن هذا الموضوع؟» استطرد الخادم: «مع حق سيدي، لكن الأمر أن هذا الشيطان سكن هذا المنزل لمدة طويلة دون إزعاج من البشر، لن يسمح أبدًا لأي مستأجر أن يكسر عزلته الأثيرة، لسنوات لم يستطع مستأجر البقاء بين هذه الجدران لأكثر من شهر، سوى الساكن الأخير والذي، رغم أنه كان محاطًا بالعساكر والعبيد، لم يستطع البقاء أكثر من تسعة أشهر لأن الشيطان أزعج عائلته طوال الليل.» هنا يجب أن أخبرك بمغادرة خادمتين لنا، الواحدة تلو الأخرى ، دون إبداء أي أسباب، ولم يعودا أبدًا، سبب اختفائهم المفاجئ هذا فسره الآن رجال الخدم أنه تلك الروح. بالطبع عانينا نحن أيضًا من هذا الصخب الليلي، ولكننا فسرنا الأمر على أنه نشاط مزعج لأحد الجيران ربما لزواجه حديثًا، وربما هذا الصخب المبالغ فيه يرجع لكونه رجل طاعن في السن وزوجته فتاة شابة. ربما أتمنى أن أكتب لك بالتفصيل عن طرق احتفال أهل هذا البلد بالزواج، ولكن في وقت لاحق، دعنا نَعُد لحديثنا الحاضر، كنت أخبرك أن الضجيج صمَّ آذاننا لثماني ليالٍ كاملة، وأصبحا معتادين عليه، إلى حين استيقظنا ذات يوم على صوت رهيب لطلقات نار - ثلاثة تحديدًا - دوَّى في أنحاء المنزل، والمنازل المجاورة، وهزَّ المسكن من أساساته. أعتقد أنه لهذه الأسباب لم نسمع صوت الضجيج الصادر من المنزل الذي أزعج الخدم.

عند استفسرنا عن الأمر اتضح أن الرجل الذي كان يملك هذا المنزل الذي مات بالفعل، قتل - أثناء إقامته في المنزل - تاجر متواضع دلف إلى الباحة حاملًا بضاعته ويرافقه عبدان. قتل الرجل التاجر والعبدين، أحداهما كانت آمة سوداء قُتلت في الحمام، هكذا يمكنك فهم الأثر الذي تركته هذه القصة، الحقيقة بالمناسبة، في نفوس الناس الذين يؤمنون بالخرافات إيمان كامل. نأسف بالطبع على إيجار أخي لهذا المنزل دون أن يعرف بهذه الحوادث. لو علم قبل استئجاره لأدرك بالطبع كبرياء الطبقة الدنيا الذي لا يضاهى ولا يسمح بإنكار هذه

الخوارق، ولفهم باستحالة بقاء أي خادمة معنا. هكذا استطاع حارس العقار تفسير اختفاء الخادمات المفاجئ. «لماذا غادرت أمينة وزينب؟» قال الحارس: «الحقيقة يا سيدي أنهما خشيا على حياتهما. حين رأت أمينة العفريت قالت: يجب أن أغادر هذا المنزل. لو مسني العفريت سأكون في خطر كبير وغير قادرة على مواصلة الخدمة.» أضاف الحارس: «ربما هي على حق. نحن - الرجال - لا نخشى العفريت، ولكننا نخشى منه على الحريم. أعتقد أنك ستعيد النظر في الأمور، وتغادر هذا المنزل.» قال أخي: «لنجرب عددَ ليالٍ أخرى، وسارع في إحضاري فور ما يظهر العفريت في المساء، كدنا أن نلقي القبض عليه ليلة أمس، حين قلت إنه ظهر بجوارك، لو أزعجناه سيتوقف عن إزعاجنا.» يبدو أن هذه الكلمات الساخرة من العفريت قلَّلت من احترام الخدم لسيدهم وشعروا بصدمة مفاجئة إلى حين قال أحدهم: «أيها الأفندي، هذا عفريت، ليس من بني آدم، كما يُهيَّأ لك. لقد تشكَّل ليلة أمس في أكثر من مخلوق، وحين حاولت ليلة أمس القبض عليه تحول إلى حبل أو أي شيء آخر.» دعني أخبرك أن هؤلاء الخدم من الأفضل، ويجب أن نأسى لخسارتهم؛ خاصةً في الوقت الحالي؛ لذا ختم أخي الحديث مؤكدًا أنه في حالة استمرار هذا الإزعاج، سيبدأ في البحث عن منزل آخر. لكن الحصول على منزل ليس عملية سهلة، إلا لو مكثنا في منزل في قلب المدينة، وقد تراءى لي - للحفاظ على صحة أبنائي - أن الأفضل البقاء في الجهة الغربية من المدينة، بالقرب من الضواحي حيث أمر إبراهيم باشا بإزالة تلال القمامة، وحيث الهواء أكثر نقاوة وصحة. كما أن المنطقة محاطة بزراعات كثيفة لأشجار الزيتون والنخيل والسنط والسرو، وأشجار أخرى، فهي تشكل منتجع خلاب للأطفال.

فاتني أن أخبرك أن الرجل الطاغية الذي ارتكب هذه الجرائم، حول المنزل فيما بعد إلى مسجد، ربما للتكفير عن جرائمه، ولكنه تركه بعد ذلك للسيدة التي تملكه الآن. أصبحنا نعرف الآن كثيرًا مما كنا نجهل. في اليوم الذي سبق انتقالنا إلى هنا، أرسلنا واحدًا من الخدم ليستأجر بضع نساء تنظف المنزل وتعيد ترتيبه. حين وصل إلى المنزل رفضت صاحبة المنزل التي تُدعى «ليلة الزهر» طلبه وقالت له: «عُد إلى الأفندي، وأخبره أنني أخبز الكعك في موقد مطبخه، وأنني سأوزعه غدًا على الفقراء والمحتاجين عند قبر المالك السابق للمنزل. إنه تصرف خيري سيصبُّ في صالحه، وصالحي أنا أيضًا، هو سيفهم ما أقول».

يا للمرأة المسكينة! بدا واضحًا الآن أنها تمنت أن يحميها هذا الفعل الخيري من إزعاج العفريت للمستأجر الجديد، واستمرار خسارتها.

في الصباح الذي تلا تلك المحادثة، قلَّ تذمُّر الخدم بشكل واضح. قضوا، على حد قولهم، ليلة مريحة، وتمنينا أن نتمكن من البقاء في هذا المنزل، لكن في اليوم التالي كان في انتظارنا إشارة لا يمكن تجاهلها. أخبرنا الحارس في نبرة شبه تحذيرية أنه لم ينعم بقسط من النوم ليلة أمس؛ لأن العفريت كان يطوف في أرجاء المنزل طوال الليل مرتديًا قبقابًا(13). كما دق العفريت أكثر من مرة على بابه دقات ثقيلة. هنا سأل أخي لماذا لم

يَسْتدعِهِ أحد من الخدم، وكانت الإجابة لأنه لم يجرؤ أحد على السير في المنزل أثناء تنزُّه هذا العِفْرِيت الذي يدق كل باب يمرُّ بجواره بعنف. استمر هذا الصخَب لعدةِ ليالٍ، بل وسُمع أثناء عدة أمسيات حتى قبل أن نذهب إلى مضاجعنا، ولأننا فشلنا دائمًا في إيجاد سبب منطقي بدأت أشعر بخوف على أولادي. ليس من العفريت، بل خشية أن يؤمنوا بتلك الخرافات، ولا شيء قد يسلب اللُّبَّ أكثر منها.

إشارة أخرى أثارت انزعاجنا كانت حين وجدنا، عدة أيام متتالية، خمس قطع أو ستة من الفحم أمام الباب المفضي إلى غرف نومنا، هذا الفعل - وفقًا للتفسير المحلي - هو أمنية، أو بالأحرى تعويذة «سواد الوجه» أي أن تَسودَّ وجوهنا إذا لم نغادر المنزل. مع ذلك، وبالرغم من تلك الظروف، سرني أن أرى أبنائي مستمتعين بهذه الخدع، واعتقدوا أن هناك شخصًا أو أكثر معجبين بهذا المنزل يحاولون الحصول عليه بشتى السبل، وهكذا يعكفون على إزعاج أي مستأجر بتلك الجلبة والأفعال المزعجة. أما الأمر بالنسبة إلى السيدة ليلة الزهر فكان أكثر خطورة؛ لأنها على ما يبدو وجدت هذا الإرث الثقيل الذي ورثته من المالك السابق لن يزول حتى لو تحول المكان إلى مسجد. سيدهشك أن تعرف أن إيجار هذا المنزل الفسيح لا يزيد على اثني عشر جنيهًا سنويًّا. منزل ضخم، طرازه يختلف عن أطرزة المنازل العادية؛ لذلك دائمًا ما يعتبره أهل البلاد منزل أمير (رجل نبيل).

أشد ما أتعسني من هذه الأحداث هو رحيل أمينة (الخادمة التي سبق وذكرتها لك في هذه الرسالة)، كانت أمينة أفضل خادمة لدينا، كانت مساعدة مدهشة بفضل سلوكياتها المهذبة، ولياقة تصرفاتها. يؤسفني القول أننا لم نقبل بعدها سوى خادمات لهنَّ من العيوب ما يندَى لها الجبين. أما الخدم من الرجال فمتميزون، وعادة ما يرتبطون كثيرًا بسادتهم حين يُعاملون معاملة لائقة، الخادمات، حقًا، لا أعرف كيف أصفهنَّ. أعتقد بشدة أنهن نادرًا ما يستحممن، إلا حين يزُرْن الحمام، وهذا يحدث مرة كل عشرة أيام وربما أسبوعين، حينها تجلي النساء أنفسهن بالكامل (لا أجد وصفًا أدقَّ لأصف لك تلك العملية التي تحدث في الحمام)، وتُجدل شعورهنَّ الطويلة في عدة جدائل، الجدير بالذكر أن الجدائل لا تُفكُّ أبدًا إلى حين الزيارة التالية للحمَّام. أحدثك عن خبرة ما رأيته، متقززة، طوال هذه الفترة، عدا أمينة، كانت جوهرة لامعة بينهم، وأيضًا أحدثك عن خبرات كل من سبقني من أصدقاء إلى هذا البلد. تتسم تلك الخادمات بالخداع البالغ، حين تطلب منهم أي خدمة يجيبونك بتواضع بالغ، إلا أنهم في باطنهم يكرهون تأدية أبسط الخدمات. تنام الخادمات بملابس العمل، كما جرت العادة، ودون استحمام، أو حتى الرغبة في تغيير ثيابهنَّ لتحقيق قليل من الانتعاش، خلاصة القول أن تغيير ثياب العمل ربما عادة غير مرغوب فيها لديهن. لو حافظت هذه النساء على طقوسهنَّ الدينية سينعمن بالنظافة الكافية؛ لأن قواعد دينهم تطلب منهم التطهُّر بشكل مستمر، لكن الدين شبه معدوم بين الطبقات الدنيا من النساء.

صدقني في هذا الصدد، وأمور أخرى بالطبع، أنت محظوظ بإنجلترا، وأتمنى أن تكافئ خادماتنا الإنجليزيات، لو لم تكن كافأتهن بالفعل.

(13) ملحوظة صوفيا لين بول: القبقاب يتم ارتداؤه في الحمام.

الرسالة الخامسة

سبتمبر، ١٨٤٢
صديقي العزيز،

ربما من الأفضل أن أمنحك وصفًا - لفهم الرسائل المستقبلية بصورة أفضل - عامًّا لهذه البلد المميزة عن أي منطقة أخرى في العالم بفضل معالمها الطبيعية وآثارها العتيقة. ولأن خبرتي الشخصية لن تفي لأكتب لك بالتفصيل عنها، وعدَني أخي أن يمنحني المعلومات الكافية.

يطلق السكان المعاصرون للبلاد على الدولة (وكذلك العاصمة) اسم مصر. تنقسم البلاد جغرافيًّا إلى: مصر العليا، ومصر السفلى. مصر العليا، أو الصعيد، يمكن وصفها بكونها واديًا متعرجًا يضمُّ تربة فريدة الخصوبة وتحيطه - على طول الوادي - هضاب صخرية ورملية.

مصر السُّفلَى تُمثل مساحة هائلة من الأرض المنبسطة، أغلبها زراعات يتشعَّبها - بغزارة - نُهَيْرات منبثقة من النيل، والعديد من قنوات المياه العذبة. يعود الفضل في خصوبة كل الأراضي الزراعية في مصر إلى النيل، الذي لا زال يرتفع كل عام في وقت الفيضان. حين تهطل زخَّات الأمطار - عادة - على المنطقة الواقعة بين الحدود الشمالية لمدينة سِنار(14) ودائرة خط الاستواء، تهبط معها التربة الخصبة من أعالي جبال الحبشة والمناطق المجاورة، وأثناء جريان النهر إلى النوبة ومصر - حيث الأمطار ظاهرة نادرة الحدوث - تترسَّب التربة الخصبة على ضفَّتَي النهر بطول أرض مصر. لذلك يُحاط النهر - عدا في مناطق قليلة ذات طبيعة جبلية أو صحراوية - بالأرض الخصبة الزراعية. أوضح رينو أن طمي النيل يتكون من أحد عشر عنصرًا منها: ١٠٠ جزيء ماء، ٤٨ ألومنيوم، ١٨ كربونات كالسيوم، ٩ كربون، ٦ أكسيد الحديد، ٤ فلينت، ٤ كربونات المغنسيوم.

يُطلق على النيل في مصر لفظة «البحر» (أو «النهر»)؛ لأن كلمة «بحر» تشير إلى «نهر واسع» بالإضافة لمعناها الأصلي. كما يُطلق عليه ألقاب أخرى، مثل: «بحر النيل» (أو «نهر النيل»)، ونيل مصر، ويعتقد العرب بصفة عامة أن «نيل مصر» هو امتداد لـ «نيل السودان».

هناك فرعان رئيسان لهذا النهر، الأول يُسمَّى «البحر الأزرق» (أو «النهر الأزرق») والثاني يُسمَّى «البحر الأبيض» (أو «النهر الأبيض»)، ويتحد الفرعان عند النوبة ومصر. الأخير - النهر الأبيض - على الرغم من قِصَره عن الأول، هو المنبع الأساسي لخصوبة أرض مصر. خصائصه الأساسية (لون مياهه، شكل ضفتيه.... إلخ) تتشابه كثيرًا مع خصائص نيل مصر. لون المياه الأدْكَن، بسبب تشبُّع النهر بالتربة خلال الجزء الأعظم من السنة، سبب تسميته

باسم «النهر الأزرق»، بينما الفرع الآخر، بفضل لون مياهه الصافية سُمِّي «النهر الأبيض». من الملاحظ أن الأخير يجري في وادٍ أكثر عرضًا من الأول. أما ضفافه فهي مروج منحدرة، تحفُّها الخمائل، وتختلف كثيرًا عن ضفاف نيل مصر الحادة المُتعرِّجة.

بداية جريان النهر في وادي مصر يُعيقها عدد لا نهائي من أحجار الجرانيت التي، بسبب تدفق المياه باندفاع كبير، تشكل شلَّالات في بعض المناطق المنحدرة. الجبال الواقعة شمال النهر، وجُزُرها، هي أيضًا من الجرانيت، أما الجبال إلى الغرب فمن الصخور الرملية. انطلاقًا من هذه النقطة، ولمسافة تبلغ قرابة مائةٍ وأربعةٍ وأربعين كيلومترًا نحو الجنوب، تمتد جبال رملية متوسطة الارتفاع على ضفَّتَي النهر. يتسم الوادي بضيقه الواضح؛ خاصةً عند الجزء العلوي من منطقة الجبال الرملية. قليل من الأراضي المزروعة يمكن أن تراها في هذه المنطقة من الوادي، في بعض المناطق تجد الجبال قريبة للغاية من مجرى النهر، وفي مناطق أخرى تتماسُّ حافاتها مع المجرى. المسافة أسفل الشلالات تبلغ قرابة ثمانية وخمسين كيلومترًا، ويمر النيل في مجرى أقل عرضًا - للنصف تقريبًا - من اتساعه العادي؛ وذلك بسبب الجبال التي تحفُّ الضفتين. تتسم هذه المنطقة بتعدُّد المحاجر ومنها تم استخراج المواد اللازمة لبناء العديد من المعابد في طيبة. يُسمَّى هذا الجزء «جبال السلسلة». عند بداية منطقة أحجار كربونات الكالسيوم على الضفة الغربية من النيل، هناك تلَّتان يُطلق عليهما اسم «الجبلين» الأولى قريبة من النيل، أما الثانية فتبعد بمسافة قليلة عن الأولى. فيما بعد هذه المناطق يتسع الوادي، وتتسم المنطقة بالتعرُّجات الحادة، ويشق النيل منتصف الأراضي الزراعية أو بالقرب من منتصفها. تقلُّ تعرجات الوادي بالقرب من مصر السفلى وينحرف النيل جهة الشرق نحو حوافِّ الجبال الحادة. تمتد تربة كربونات الكالسيوم حتى نهاية الوادي حيث تنقسم سلاسل الجبال على ضفتي النهر. أما سلاسل جبال العرب فتنبسط حتى شرق السويس، بينما التلال في الغرب تمتد في اتجاه الشمال الغربي نحو البحر المتوسط. قرب انتهاء الوادي هناك كهوف في الجبال الغربية عبرها تمر قناة تنقل مياه النهر إلى مقاطعة الفيوم الخصبة، وإلى الشمال الغربي من المقاطعة تقع بحيرة شاسعة المساحة تُغمر بالمياه الزائدة أثناء الفيضان. يمتد طول الوادي في مصر من الشلالات وحتى العاصمة نحو أربعمائة وخمسين ميلًا جغرافيًّا وأربعمائة ميلًا جغرافيًّا من طِيبَة إلى العاصمة. عرض النهر عند الشلالات يزيد بست درجات عن العاصمة؛ أي ما يعادل ثلاثمائة وستين ميلًا جغرافيًّا. المسافة بين منطقة الشلالات إلى مصبِّ النيل في البحر - في خط مستقيم - تبلغ أكثر من تسعين ميلًا. بعض مناطق الوادي يبلغ عرضها بين ثمانية وعشرة أميال، لكن أغلب الوادي أقل مساحةً من حيث العرض. أما الجزء الذي شكَّل الدلتا القديمة في مصر السفلى، فيبلغ نحو مائة وعشرين ميلًا من الشرق إلى الغرب.

تتسم الأرض الخصبة في هذه البلاد بانبساطها، ولكن الأراضي في مناطق النهر ترتفع قليلًا عن الأراضي المحيطة. يُعتقد أن ذلك نتيجة لترسُّبات الطين المستمرة في منطقة النهر. مع ذلك، لا يمكن اعتبار ذلك السبب الرئيس لأن من المُلاحَظ أن الأراضي المحيطة بالنهر ترتفع - طبيعيًّا - لدرجة لا تسمح بغمرها بالمياه، أما الأراضي القريبة من الجبال فتُغمر تمامًا. مع

ذلك تُزرع الأخيرة مرة واحدة في السنة، أما الأولى فتتم زراعتها في كل المواسم الزراعية.
هذا يؤكد أن نظام الزراعة والري (البشري) هو الذي يلعب دورًا مُهمًّا - بالاعتماد على السماد - في خصوبة التربة وتحسن الدورة الزراعية،
وليس لترسبات النهر هذا الدور الكبير. التربة الخصبة في أنحاء مصر خالية من الأحجار، عدا المناطق الملاصقة تمامًا للصحراء، وتزخر هذه الأحجار بنترات البوتاسيوم.

تقع مساحة صحراوية بين الأرض الزراعية والجبال، مساحة صحراوية مرتفعة عصيَّة على الغمر. هذه المنطقة تنقسم إلى جزءَين: جزء من الرمال والحصى يُغطيه مساحة من الصخور، والجزء الآخر من الرمال فقط، والتي تعدَّت - بفعل الرياح - على التربة الخصبة. تبلغ تلك المساحة الصحراوية في بعض المناطق نحو اثنين إلى ثلاثة أميال من حيث العرض.

أحصى أخي مساحة الأراضي الزراعية في مصر بقرابة خمسة آلاف وخمسمائةِ ميلٍ جغرافيٍّ مربع(15). هذه المساحة تُعد أقل من نصف مساحة الأرض الصحراوية، كما أن مساحة كبيرة من الأرض المؤهلة للزراعة ترتفع عن النهر لدرجةٍ لا تسمح بغمرها مما يجعلها غير قابلة للزراعة، أجزاء أخرى من المساحة المؤهلة؛ خاصةً في مصر السفلى، تشغلها البحيرات والمستنقعات أو تغمرها الرمال. علاوة على ذلك، هناك حاجة لشق القنوات والنهيرات في بعض مناطق المدن والقرى. تضم مصر العليا مساحة خصبة تساوي على الأرجح مساحة الأرض الزراعية في كل أنحاء مصر السفلى(16).

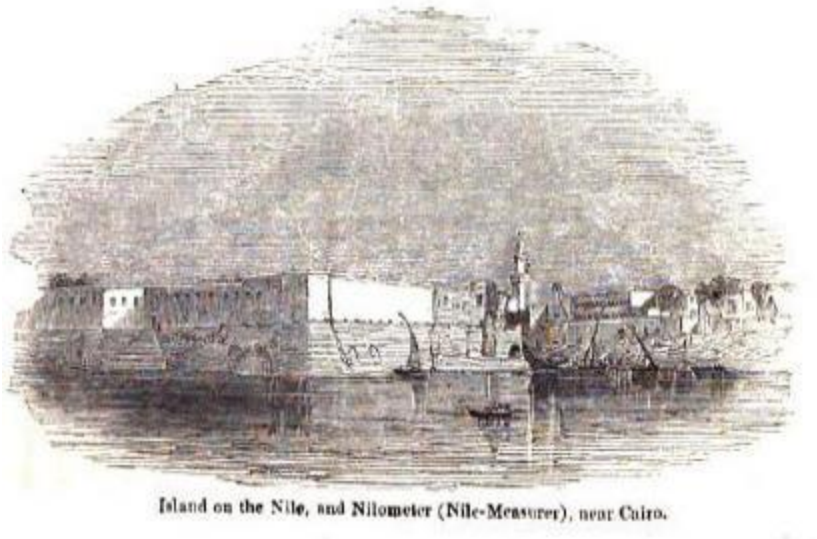

Island on the Nile, and Nilometer (Nile-Measurer), near Cairo.

جزيرة في النيل، ومقياس النيل، بالقرب من القاهرة.

يُسهم الفيضان السنوي بصورة كافية في ري الأرض ولكن دور الفلاح لا غنى عنه في الزراعة؛ وذلك لأن الفلاح يُعنى بإجراءات حجز المياه خلف السدود، وإلا لذهب الفيضان هباءً. أقصى ارتفاع للفيضان عُرف على مرِّ التاريخ لن يشكل أي أهمية لو تُركت المياه الفائضة تنضب في الحقول حين يعود النيل لمستواه الطبيعي. لا يقلُّ الفيضان كارثيةً عن انخفاض منسوب النهر، فارتفاعه غير الطبيعي يغمر مناطق شاسعة من الأراضي التي يصعُب تجفيفها، وقد يزيل قرى كاملة بُنيت بيوتها من الطين وأكواخها من الطوب اللَّبِن، وأحيانًا يسبب خسائر كبيرة في الممتلكات والأرواح. علاوة على ذلك، نادرًا ما تفشَّى الطاعون في مصر إلا في أعقاب ارتفاع النهر عن منسوب الفيضان الطبيعي. على أيَّة حال، يُعد هذا النوع من الفيضانات حدثًا عارضًا. حين يبدأ النيل في الارتفاع مع نهايات سبتمبر تُفتح القنوات المائية التي تُغلق طوال العام بسدود عالية، وتُغلق مرة أخرى عندما يعود النيل لارتفاعه السابق لتحفظ المياه الفائضة خلفها. يتم ري الأراضي التي لا تغمُرها ماء الفيضان بسواعد بشرية إذا وقعت بالقرب من النهر أو واحدة من القنوات المائية.

ربما اعتقد البعض أن الأراضي الخصبة حول النهر سترتفع بمرور الوقت بسبب تعرضها المستمر لطمي الفيضان ارتفاعًا لا يجعلها قابلةً لغمر الفيضان، لكن قاع النهر ارتفع بالقدر ذاته.

يرتفع النهر في طِيبَة نحو ستة وثلاثين قدمًا، وعند منطقة الشلالات نحو أربعين قدمًا، أما عند رشيد، وبسبب قربها من مصب النهر، فيرتفع نحو ثلاثة أقدام ونصف القدم. يبدأ ارتفاع النيل في نهايات يونيه أو بدايات يوليو؛ أي قُبيل الانقلاب الصيفي، أو بعده مباشرة، ثم يبلغ النهر أقصى ارتفاعه في سبتمبر، وفي أحيان نادرة مع بدايات شهر أكتوبر. أي قُبيل الاعتدال الخريفي أو بعده مباشرة. خلال الأشهر الثلاثة الأولى من انحسار الفيضان، يخسر النهر نحو نصف ارتفاعه، وخلال الأشهر الستة التالية ينخفض منسوب النهر رُويدًا رُويدًا. عادة يستمر النهر عند أقصى ارتفاع له لمدة لا تزيد على ثلاثة أو أربعة أيام، والمدة نفسها عند أقل انخفاض له. عادة لا تظهر على النهر أي بوادر زيادة أو نقصان في غير شهور الفيضان والانحسار، ويخضع الأمر - أحيانًا - لبعض الطفرات الطفيفة. قُبيل ارتفاع النهر يتعكَّر الماء بنسبة واضحة، ثم يتحول اللون إلى طيف من درجات الأخضر يستمر لمدة أسبوعين تقريبًا. تصبح مياه النيل ذات مذاق لذيذ في هذه الفترة رغم تشبُّعها بالتربة، ولكن عادةً ما ينتظر المصريون (عدا الطبقات الدنيا) حتى يزول هذا العَكَر قبل الشرب منها، وغالبًا ما يضعون المياه في قنانيّ من الطين لها مسامٌّ تسمح بتبخُّر المياه وتعمل على خفض درجة حرارتها. يمتنع المصريون عن احتساء ماء النهر حين يتحول لونه للأخضر ويفضلون اللجوء للمياه المُخزَّنة مُسبَّقًا في الصهاريج.

يبلغ عرض النهر، في المناطق التي لا تقع فيها جُزر ، أكثر من نصف ميل. أما فروع الدلتا فأضيق عرضًا من المناطق الأخرى، ويتساوى عرض النهر في مصر العليا مع عرضه في أقصى الوادي.

سرعة تدفق النهر المعتادة لا تتعدى ميلًا وربع الميل في الساعة، ولكن أثناء ارتفاعه تزداد سرعة التدفق. بينما تهبط المراكب بسرعة فائقة بفضل الأشرعة إلى مصر العليا، تصعد مراكب أخرى إلى مصر السفلى بنفس الوتيرة بفضل الرياح الشمالية والتي تزداد نشاطًا في تلك الفترة. حين ينحسر النهر، تصبح قوة الرياح الشمالية أكثر من قوة جريان النهر؛ مما يجعل هبوط الوادي عسيرًا على المراكب حتى باستخدام المجاديف.

أعتقد أنه من الأفضل إضافة المزيد من المعلومات عن النيل في رسائل قادمة، وربما حين أرسل لك ما تبقَّى من وصف مصر.

إلى حين، أتمنى أن تبقى متحمسًا،... إلخ.

(14) ملحوظة المترجمة: مدينة سودانية تقع على ضفاف النيل الأزرق.

(15) ملحوظة صوفيا لين بول: اعتمد أخي في هذه الإحصائية على قائمة بمدن وقرى مصر ومساحة الأرض الزراعية في كل مدينة وقرية. تعود هذه القائمة إلى دي ساسي، «عبد اللطيف» تم إعدادها في العام ٧٧٧ هجريًّا (١٣٧٥ - ١٣٧٦ ميلاديًّا)، ربما هذه القائمة مهدور حقها. أما تقديرات السيد منجن فتشير إلى تراجع الرقعة الزراعية بحلول عام ١٨٢١، ولكن منذ ذلك العام تمت إعادة زراعة عدد كبير من الأراضي التي حاصرتها تلال النُّفايات.

(16) ملحوظة صوفيا لين بول: يُستخدم مصطلح «الشاركي» «الشَّرَاقي» للإشارة للأراضي المرتفعة عن الغمر، بينما يستخدم مصطلح «ري» للإشارة للمناطق الأخرى.

الرسالة السادسة

١٣ أكتوبر ١٨٤٢
صديقي العزيز،

منذ رسالتي الأخيرة، استمرت درجات الحرارة في الارتفاع بصورة حادة، ولكن خلال الأيام الثلاثة الأخيرة غزا الليلَ برقٌ شبهُ مستمر على الرغم من الحرارة الشديدة التي يحملها لنا النهار، ومنحنا ضوء البرق أملًا بانفراجة قريبة في الطقس. تُعلل هذه الحرارة بوضع النيل الحالي والذي يستمر في الارتفاع، على غير العادة، في هذا الوقت من العام (١٣ أكتوبر)، وترتَّب على هذه الظاهرة قلق عارم، بالطبع نأمل أن تجفَّ المياه سريعًا من الأراضي المغمورة، ولكن حتى لو جفَّت بفعل الحرارة، يخشى البعض من تفشِّي الطاعون. في حالة تفشي الوباء نتوقع الذهاب إلى طيبة لمدة لا تقل عن أربعة أشهر، ولكننا نأمل أن يُجنِّبنا الله القدير هذه المصيبة الأليمة التي يمثلها هذا الوباء. الآن دعني أستكمل لك الوصف من حيث توقفت في رسالتي الأخيرة.

مناخ مصر، في المطلق، صحي للغاية. يتأكد الطقس الجاف الذي تتميز به البلاد، عدا في المناطق الساحلية، بفضل حالة الخبز والوجبات والفواكه... إلخ التي وُجدت محفوظة في مقابر القدماء في طيبة، وذلك بعد حفظها على هذه الحالة لمدة تتراوح بين ألفين أو ثلاثة آلاف عام. عانت الآثار المصرية القليل من المناخ السيِّئ، ودليل على ذلك أن الأواني التي تُزخرف العديد من الآثار لا تزال محتفظةً ببريقٍ بِكر. فترات الفيضان تشهد انبعاثات بخار ماء كثيفة من الأنهار تستمر مدة بعد انخفاض النهر، ولكنها سرعان ما تجفُّ خاصةً في مناطق الصحراء حيث تقع أغلب آثار القدماء(17).

حرارة مصر مرتفعة للغاية، ولكن ليست حادة كما يتخيلها البعض، حيث يُسهم جفاف الهواء - الذي سبق وذكرته - والنسائم الشمالية في تهدئة حِدَّة الحرارة(18).

الأمطار ظاهرة نادرة في وادي مصر. تسقط أمطار كثيفة على الصعيد بمعدل مرة واحدة كل أربع أو خمس سنوات. شهد أخي هذه الظاهرة في طِيبَة حيث ضربت المدينةَ عاصفةُ برقٍ وأمطار هائلة وكان ذلك في خريف عام ١٨٢٧. يندُر سماع الرعد، لكن البرق من السهل مشاهدته يضرب عنان السماء. كانت هذه الظاهرة في المنطقة رائعة واستمرت ليلة بأكملها. تترك السيول الغزيرة التي تهبط من السماء إلى أودية الجبال المحيطة بوادي النيل آثارًا واضحة رغم ندرتها. في القاهرة والمناطق المجاورة تهبط أمطار خفيفة بمعدل أربع إلى خمس مرات في العام غالبًا خلال فصلَي الشتاء والربيع. وعلى غير العادة (على أيَّة حال فالخريف فصل يتفرَّد بأحداثه) سقطت أمطار غزيرة ليلة الثلاثين من سبتمبر. نادرًا ما

تسقط الأمطار بغزارة ولكن حينها تتكبَّد الكثير من المنازل خسائر فادحة، أما في المناطق الساحلية فالأمطار ليست ظاهرة نادرة الحدوث.

من أفضل سمات المناخ في مصر هي انتشار الرياح الشمالية الغربية، تهبُّ تلك الرياح بنسيم منعش وصحي، وتمثل أهمية كبيرة للنباتات، كما أنها ذات أهمية قصوى في جريان النيل طوال فصول السنة؛ وخاصة خلال فترة فيضانه التي يصحبها جريانه بأقصى سرعة. تتنوع الرياح خلال الشهور الثلاثة الأولى من انخفاض النهر؛ أي في الفترة من الاعتدال الخريفي إلى الانقلاب الشتوي، حيث تهب الرياح من جهة الغرب أو الشمال أو الشرق، مع استمرار هبوب الرياح الشمالية. خلال الشهور الثلاثة التالية يزداد هذا التنوع، أما في الشهور الثلاثة الأخيرة من انخفاض النهر؛ أي من الاعتدال الربيعي إلى الانقلاب الصيفي، فيزداد نشاط الرياح الخفيفة من الجنوب والجنوب الشرقي لكن لمدة قصيرة.

خلال فترة تُسمَّى «الخَمَاسِين» تزداد الرياح الحارة الجنوبية المحملة بالأتربة. يُقال أن هذه الفترة تبدأ في اليوم الذي يلي عيد الأقباط بأحد الفِصْح، وتنتهي يوم الأحد الأبيض. أي أنها تستمر قرابة تسعة وأربعين يومًا. عادةً ما تبدأ هذه الرياح نهايات أبريل وتستمر طوال شهر مايو. تلك الفترة هي أكثر الفترات في مصر ضررًا بالصحة، وخلالها تتصاعد مخاوف السكان من زيارات الطاعون، ولكن المخاوف تتوقف بانقضاء هذه المدة. من الجدير بالذكر أننا عانينا من رياح حارة - في غير موعدها - خلال الفترة الأخيرة. كان الوضع مُحبِطًا خلال شهرَيْ يوليو وأغسطس، ولا يمكنني مقارنته سوى بالفرن المشتعل الذي يسبب تفشي الحرارة في أنحاء المنزل كافةً حتى إنه يمس الأثاث، وتستمر موجات الحرارة الحادة تلك لمدة لا تقل عن ثلاثة أيام. لحسن الحظ أن نوافذنا زجاجية، نغلقها في وجه الرياح فنحافظ على الطقس داخل المنزل أكثر برودةً واحتمالًا من الفرن المشتعل خلفها. كانت أوقاتًا مقلقةً بسبب المحنة غير المتوقعة التي واجهها أبنائي، ولكن أشكر الله لخروجهم من هذا الطقس سالمين.

«السَّمُوم» هي رياح عنيفة حارَّة وشبه خانقة، تهبُّ بمقدار أقل من رياح الخماسين، ولمدة أقصر. تهب عادةً من الجنوب الشرقي أو جنوب الجنوب الشرقي، ويتبعها سكون غامض في الرياح. قُبيل اقترابها يُصبغ الأفق بصفرة واضحة تميل أحيانًا إلى الحمرة، وتبدو الشمس قرص أحمر دامٍ، وتختفي تدريجيًّا خلف غشاء الرياح قبل هبوب السموم العنيف. تُسهم الرمال والأتربة التي تحملها الرياح في زيادة الطقس كآبةً وحرارةً وتزيد من نسبة انعدام الهواء النقي. تصبح عملية التنفس عسيرة في هذه الآونة، وأحيانًا ما تصبح مستحيلة؛ يجف الحلق، والبشرة، وينتاب المرءَ إحساسٌ بالوخز كما لو تعرض لتيار كهربائي. أحيانًا يعجز المرء عن الثبات أمام قوة الرياح إذا تعرض لها، وتجبر الرمال والأتربة الجميع على غلق أعينهم. أصعب مواجهة لهذه السموم تكون مواجهة المسافرين في الصحراء لهذه الرياح العتيدة. واجه أخي في قوص التي تقع في مصر العليا، رياح سموم قيل أنها واحدة من أعنف ما شهدته المنطقة على الإطلاق. استمرت لمدة لا تزيد

على نصف الساعة، وحدها السموم العنيفة هي التي تستمر تلك المدة. يعتقد أخي، رغم ما تسببه الرياح من كرب لشاهديها، أنها غير قاتلة سوى في حالات تعرضها لأناس يعانون أمراضًا أو إرهاقًا حادًّا أو ظمأ، وحدها هذه الحالات التي قد تودي الرياح بحياتهم. يبدو أن الجِمَال المسكينة تعاني بالقدر نفسه من السموم، وعادة ما تركع مُوليةً ظهورها إلى الرياح وتغلق أهدابها وتفرد أعناقها الطويلة أمامها على الأرض حتى تمر العاصفة.

من الظواهر الشهيرة في عموم مصر والصحراء المتاخمة، ظاهرة «الزَّوْبعَة». الزوبعة هي رياح أسطوانية تتسبب في إثارة الرمال والأتربة لتشكل ما يشبه عمودًا ضخمًا في الهواء يبلغ - عادة - ارتفاعًا كبيرًا (19). تعرض أخي ذات يوم لاثنتي عشرة زوبعة، وعادةً ما تحدث الزوابع بين مرتين وثلاثة خلال فصل الربيع. تعبر الزوابع أحيانًا بسرعة فائقة عبر الصحاري والحقول وأحيانًا فوق النهر. اعترضت الزوبعة قارب أخي في النهر مرتين، ولكن، لحُسن الحظ، انتبهوا لقربها في المرتين واتخذوا الإجراءات اللازمة، حيث أُغلقت الأشرعة قبل لحظات من اقتراب الزوبعة. لكن لم تسلَم الصناديق والوسائد في قمرات القارب من قوة اللَّطْمَة التي سددتها الزوبعة لجسد القارب، وكست الرمال والأتربة الأسطح والأغراض.

يُحير السراب، الذي يشبه البحيرة ويُشاهد عادة في الصحراء، المسافر العَطِش، وقد ذكرته لك في رسالة سابقة. الوهم لا يمكن تمييزه بسهولة حيث تنعكس الأشياء القريبة من السراب على تلك البحيرة المزعومة بدقة متناهية. ربما تعرف بالفعل أن سبب هذا الانعكاس طبقة ساخنة من الهواء قريبة من سطح الأرض المنبسط، وربما رأيت شيئًا مشابهًا لذلك في إنجلترا. تُروى الحقول في منطقة النهر بالآلات طوال مواسم العام، إذا لم تتعرض للغمر الطبيعي. أرشح لك أن تقرأ المزيد عن وصف كيفية الري في كتاب أخي «المصريون المعاصرون»، الطبعة الثالثة، الجزء الثاني، الفصل الأول. الآن سأرفق وصفًا تفصيليًّا للمواسم الزراعية في مصر، والتي كتب عنها أخي مستندًا لمراجع عربية وبناءً على ملاحظاته الشخصية.

يناير: - يبلغ متوسط درجة الحرارة خلال فترة ما بعد الظهيرة خلال هذا الشهر في مدينة القاهرة نحو ٦٠ درجة على مقياس فهرنهايت. تبدأ التربة في امتصاص المياه التي تم حجزها خلف السدود أثناء فترة الفيضان، ومع ذلك تحتفظ القنوات الواسعة بما تبقَّى من مياه الفيضان بفضل إغلاق مصبِّ القنوات. خسر النهر على الأقل نصف الارتفاع الذي بلغه؛ أي أنه انخفض بمقدار اثني عشر قدمًا في القاهرة وضواحيها. تتنوع الرياح في هذا الشهر وطوال أشهر الشتاء، ولكن الأكثر هبوبًا هي الرياح الشمالية. يجب على السكان الامتناع عن تناول الطيور والخضراوات سواء المُخزَنة أو الطازَجة. تُنثر حبوب الخشخاش. من غير الصحي في هذا الشهر، وطوال أشهر الشتاء، شرب الماء أثناء الليل. يبدأ الشهر القبطي الخامس (طوبة) يوم ٨ أو ٩ يناير (20) يناير ينذر ببداية موسم الصقيع. لا يُنصح بتناول اللحوم خلال تلك الفترة. تسود زراعة الخضراوات في الحقول، ويبدأ الفلاحون في إعداد

كُروم العنب. يتوافر الجَزَر بكثرة. تُنثر بذور البصل، وتُغرز نخلات البلح. يُحصد قصب السكر الناضج.

فبراير: - يبلغ متوسط درجة الحرارة خلال فترة ما بعد الظهيرة خلال هذا الشهر في مدينة القاهرة نحو ٦٦ درجة على مقياس فهرنهايت. يشهد الشهر نهاية شهر الصقيع(21). تطغى زراعة الخضراوات على الحقول كافةً في سائر مصر. يبدأ الشهر القبطي السادس (أمشير) يوم ٧ أو ٨ فبراير. تصبح مياه الشرب أكثر دفئًا من مياه طوبة. تتنوع الرياح. يُحصد الفول. تُزهر أشجار الرُّمَّان. تُزرع كرُوم العنب. تتكاثف أوراق الأشجار. يحلُّ موسم الرياح المُحمَّلة بسحب مطيرة والذي يُدعى «الكواكه». تقلّ حدَّة الصقيع.

مارس: - يبلغ متوسط درجة الحرارة خلال فترة ما بعد الظهيرة خلال هذا الشهر في مدينة القاهرة نحو ٦٨ درجة على مقياس فهرنهايت. نهاية موسم زراعة الأشجار. يبدأ الشهر القبطي السابع (برمهات) يوم ٩ مارس. تهبُّ رياح متنوعة ومتقلبة. يحل الاعتدال الربيعي. يبدأ النهر في الاضمحلال بدايةً من هذا الربع من العام. تهبُّ الرياح الجنوبية، والجنوبية الشرقية، وتهب رياح السَّمُوم (خلال الربع نفسه من العام) كثيرًا في تلك الفترة. عادةً ما يتفشَّى الطاعون في مصر خلال هذا الفصل، لو حدث وظهر الطاعون على استحياء في فصل الشتاء. يعتدل الطقس. تسود الرياح الشمالية. يبدأ موسم حصاد القمح. يُحصد العَدَس، تُبذر بذور القطن والسمسم ونبات النيلة الزرقاء، ويُزرع قصب السكر. يبدأ حصاد الشعير.

أبريل: - يبلغ متوسط درجة الحرارة خلال فترة ما بعد الظهيرة خلال هذا الشهر في مدينة القاهرة نحو ٧٦ درجة على مقياس فهرنهايت. حان الوقت لتناول الأدوية. يبدأ الشهر القبطي الثامن (برمودة) في الثامن من أبريل. رياح السموم. موسم تسميد نخيل البلح. تُبذر حبوب الأرز. يُحصد القمح في مصر السفلى. الفصل الأول لنثر حبوب الدُّخْن(22). تهب رياح الخماسين - عادة - في هذا الشهر.

مايو: - يبلغ متوسط درجة الحرارة خلال فترة ما بعد الظهيرة خلال هذا الشهر في مدينة القاهرة نحو ٨٥ درجة على مقياس فهرنهايت. تسود رياح الخماسين طوال هذا الشهر، ويُعد شهرًا مضرًّا بالصحة العام. تُعد ثياب الشتاء غير ذات جدوى. يبدأ الشهر القبطي التاسع (بشنس) في الثامن من مايو. وقت تناول الأدوية، وخسارة كميات من الدم. موسم البِطِّيخ الأصفر. تُبذر حبوب الخيار. يُزهر المُشْمُش، وأشجار التوت. تُبذر بذور اللفت. نهاية الفصل الأول لزراعة الدُّخن. ينضج المشمش. بداية فصل القيظ. بداية موسم الرياح الحارة المُلقَّبة بـ «البوارح» وتسود لمدة أربعين يومًا.

يونيه: - يبلغ متوسط درجة الحرارة خلال فترة ما بعد الظهيرة خلال هذا الشهر في مدينة القاهرة نحو ٩٤ درجة على مقياس فهرنهايت. تسود رياح شمالية قوية خلال هذا الشهر.

تتحول مياه النيل للعَكَر دون أن يرتفع النهر. الشهر القبطي العاشر (بؤونة) يبدأ في السابع من يونيه. تبدأ زراعة أشجار الموز. ما زالت رياح السُّمُوم تهبُّ من آنٍ لآخر. يمتنع الناس عن استخدام العطور نفاذة الرائحة كالمسك وطوال شهور الصيف الأخرى. ينتشر البطيخ الأصفر. ينحسر الطاعون، في حالة ظهوره قُبيل الصيف. يُجمع العسل من خلايا النحل. ينبغي على الناس الامتناع عن شرب المياه من النيل، لمدة خمسين يومًا(23)، إلا في حالة غليها قبل الشرب. تهبط «النقطة» في مياه النيل، ووفقًا للتراث، تتسبب في ارتفاعه لاحقًا(24)، يُقال أن هذه الظاهرة تحدث في السابع عشر من بؤونة الموافق السابع عشر من يونيه؛ أي قبل يوم من الاحتفال القبطي برئيس الملائكة: ميخائيل. يُفضل تناول لحوم صغار المَعْز خلال هذا الشهر وحتى نهاية الصيف. بدايةً من الأول من بؤونة تهب رياح السموم وتستمر لمدة سبعة عشر يومًا على فترات متقطعة. يحل الانقلاب الصيفي حين يبلغ النهار في مصر السفلى أربع عشرة ساعة. خلال بداية هذا الربع من العام (أي خلال فترة زيادة مياه النيل) تسود الرياح الشمالية دون غيرها، عدا في الليل، الذي يتسم بهدوء بالغ. رغم ارتفاع الحرارة، فإنه أكثر الفصول الصحية في العام. يبدأ ارتفاع النيل. ينطلق موسم العنب والتين. يتوافر الخوخ بكثرة.

يوليو: - يبلغ متوسط درجة الحرارة خلال فترة ما بعد الظهيرة خلال هذا الشهر في مدينة القاهرة نحو ٩٨ درجة على مقياس فهرنهايت. يُشهد ارتفاع النيل بصورة يومية في العاصمة. يموت الجراد، أو على الأقل يختفي من الأفق في أنحاء مصر كافة. يبدأ الشهر القبطي الحادي عشر (أبيب) في السابع من يوليو. تستمر رياح شمالية عنيفة لمدة خمسة عشر يومًا(25). ينتشر العسل. ينبغي على الجميع الاقتصاد في تناول الطعام خلال هذا الشهر. تستعر حرارة الظهيرة. ينتشر الرمد ولكن بصورة أقل من انتشاره في الخريف. تنتهي البواحير(26)، أو أيام القَيْظ السبعة، تنتهي بنهاية هذا الشهر (27). يتوافر العنب والتين بكثرة. تُنثر بذور الذرة. يُحصد محصول الدُّخْن الأول. ينضج البلح.

أغسطس: - يبلغ متوسط درجة الحرارة خلال فترة ما بعد الظهيرة خلال هذا الشهر في مدينة القاهرة نحو ٩٢ درجة على مقياس فهرنهايت. موسم عصر العنب. يبدأ الشهر القبطي الأخير (مسرَى) في السادس من أغسطس. يُنصح بعدم تناول البصل في هذه الفترة. تُنثر بذور الفجل والجَزَر. تُشرب المياه باردة. يتوافر البطيخ بكثرة. موسم حصاد القطن. ينضج الرُّمان على أفرع الشجر. تهبُّ رياح شمالية عنيفة. يُنصح بعدم تناول الحلوى في هذه الفترة. «زفاف النيل» يقع في اليوم الرابع عشر من الشهر، أو في الأيام الخمسة التالية من شهر مسرى (بين التاسع عشر والرابع والعشرين من أغسطس)، هذا يوافق سقوط السد الترابي الذي يقع عند مدخل القاهرة معلنًا عن بشائر ارتفاع النهر (في محيط العاصمة) بما يقارب ٦٠ مترًا مكعبًا(28). نهاية الأيام السبعين التي تشهد هبوبًا معتادًا لرياح السموم.

سبتمبر: - يبلغ متوسط درجة الحرارة خلال فترة ما بعد الظهيرة خلال هذا الشهر في مدينة القاهرة نحو ٨٨ درجة على مقياس فهرنهايت. تُنثر بذور البنجر الأبيض واللِّفْت.

طقس عاصف. بداية شهر توت - أول شهور السنة القبطية بين يومَي العاشر والحادي عشر من سبتمبر، وتزيد خمسة أيام في السنة القبطية التالية (29).

يتوافر البلح الناضج والليمون. طقس عاصف. الاعتدال الخريفي. يبلغ النيل ذروة ارتفاعه، وتُفتح كل القنوات في انتظار الفيضان. خلال هذا الربع من العام (الأشهر الثلاثة الأولى من انخفاض النهر)، تتنوع اتجاهات الرياح وعادة ما تهب من الغرب وأحيانًا من الجنوب. تتسبب انبعاثات التربة الطينية في انتشار الرَّمَد الإسهال والدوسنتاريا طوال هذا الربع من العام. حصاد السمسم.

أكتوبر: - يبلغ متوسط درجة الحرارة خلال فترة ما بعد الظهيرة خلال هذا الشهر في مدينة القاهرة نحو ٨٠ درجة على مقياس فهرنهايت. تُصبغ أوراق الشجر بصُفرة الخريف. يُحصد قصب السكر، ويقطعه الناس لمَصِّه. شرب الماء خلال الليل؛ خاصةً الاستيقاظ للشرب، ليس من الأفعال المحببة في هذا الفصل. يتم جمع أوراق الحنَّة. تُنثر بذور الخضراوات الشتوية. يبدأ الشهر القبطي الثاني (بابة) يوم ١٠ أو ١١ أكتوبر. يتم نثر حبوب القمح والشَّعِير والعَدَس والفول والترمس والحمّص واللوبيا وقرن الغزال والحلبة والكرنب والخَسّ والعُصْفُر في هذا الوقت، وأحيانًا تتأخر عملية الزراعة أيامًا معدودة. يزداد النَّدَى الناتج عن الفيضان.

نوفمبر: - يبلغ متوسط درجة الحرارة خلال فترة ما بعد الظهيرة خلال هذا الشهر في مدينة القاهرة نحو ٧٢ درجة على مقياس فهرنهايت. يصبح البرد في النصف الأخير من الليل قاسيًا. يبدأ الشهر القبطي الثالث (هاتور) يوم ٩ أو ١٠ نوفمبر. يُتوقَّع هطول الأمطار في هذا الوقت من العام في مصر السفلى. «الميرزي» أو الرياح الجنوبية تسود. حصاد الأرز والذرة. حصاد المحصول الثاني من الدُّخن. يتم ارتداء الملابس الشتوية الثقيلة. يتوافر الموز بكثرة.

ديسمبر:- يبلغ متوسط درجة الحرارة خلال فترة ما بعد الظهيرة خلال هذا الشهر في مدينة القاهرة نحو ٦٨ درجة على مقياس فهرنهايت. طقس غائم ومتقلب. يتعطر الناس بالعطور النفَّاذة كالمسك والعنبر. يبدأ الشهر القبطي الرابع (كيهك) في التاسع أو العاشر من ديسمبر. تتساقط أوراق الأشجار. الانقلاب الشتوي حين يستغرق النهار في مصر السفلى عشر ساعات فقط. تتنوع اتجاهات الرياح في هذا الربع من العام. بداية موسم زراعة الأشجار. تتعدد هجمات البعوض. تُشذَّب كرُوم العنب. تناوُل اللحوم ليس من الأفعال الصحية خلال هذا الفصل.

(17) ملحوظة صوفيا لين بول: رطوبة هذه الفترة، رغم ضعف حدَّتها، تسهم في انتشار أمراض الرمد والإسهال والدوسنتاريا أكثر من أي وقت في العام.

(18) ملحوظة صوفيا لين بول: متوسط درجة الحرارة على مقياس فهرنهايت في مصر السفلى خلال موسم الصيف وفي فترة الظهيرة تحت الظلال يتراوح من ٩٠ إلى ١٠٠ درجة، أما في مصر العليا فيتراوح من ١٠٠ إلى ١١٠ درجات، وفي النوبة من ١١٠ إلى ١٢٠ درجة، وأحيانًا يرتفع ليصل إلى ١٣٠ درجة وذلك في مواسم معدودة. أما مقياس الحرارة في الشمس وخاصة في الأراضي الصحراوية، فعادة ما يرتفع ليصل إلى ١٥٠ درجة أو أكثر. أما في ذروة الشتاء فتتراوح درجة الحرارة في مصر السفلى من ٥٠ إلى ٦٠ درجة.

(19) ملحوظة صوفيا لين بول: «أحصيت ارتفع الزوبعة في طيبة في ظروف تضمن أفضل دقة ممكنة باستخدام آلة السداسية (بقياس محيطها من نقطة مرتفعة أثناء ذروتها واقتلاعها لعدد من أشجار النخيل) وبلغ الارتفاع سبعمائة وخمسين قدمًا. أعتقد أنني شهدت زوابع أخرى أكثر ارتفاعًا، بينما في نفس المنطقة بلغت زوابع - حسب قياسي الشخصي - ارتفاعًا يتراوح من خمسمائة إلى سبعمائة قدم». المصريون المعاصرون، الطبعة ٣، الجزء ١، الفصل ١٠.

(20) ملحوظة صوفيا لين بول: تبدأ السنة القبطية في شهر سبتمبر. يقسم المصريون (المسلمون والمسيحيون) المواسم الزراعية وفقًا للشهور القبطية، ولكن يلتزمون الأشهر القمرية المُحمَّدية في تدوين أوراقهم.

(21) ملحوظة صوفيا لين بول: تلك المزاعم التي تؤكدها التقويمات المصرية، ولكن يتسم شهر أمشير بالبرد شأنه شأن برد طوبة وأحيانًا يشهد الناس بردًا أشد قسوة.

(22) ملحوظة المترجمة: الدُّخن أو الجاوَرْس أو البشنة هي حبوب يُنتج منها بعض أنواع الدقيق.

(23) ملحوظة صوفيا لين بول: بداية من ١٠ بؤونة (أي السادس عشر من يونيه).

(24) ملحوظة صوفيا لين بول: النقطة هي ندى غزير يتساقط خلال هذه الفترة من العام.

(25) ملحوظة صوفيا لين بول: يختفي البعوض بفضلها، ولو لم تستطع تكوين صورة عادلة عن مدى الإزعاج الذي تسببه تلك الحشرات، ستعتقد أن إضافة هذه المعلومة غير ذات جدوى.

(26) ملحوظة المترجمة: البَاحُور لفظة عربية تعني شدة الحَرّ.

(27) ملحوظة صوفيا لين بول: يُقال أن البواحير تبدأ في العشرين من أبيب الموافق السادس والعشرين من يوليو.

(28) ملحوظة صوفيا لين بول: ارتفاع النهر الطبيعي في هذه الفترة يبلغ ١٩ إلى ٢٠ قدمًا؛ لذا ما زال النهر سيرتفع بمقدار ٤ أو ٥ أقدام أخرى.

(29) ملحوظة صوفيا لين بول: «تُضاف خمسة أيام في نهاية ثلاث سنوات قبطية متتالية، وستة أيام في نهاية السنة الرابعة. السنة القبطية الكبيسة تعقب السنة الميلادية الكبيسة؛ لذلك، لا يبدأ العام القبطي في ١١ سبتمبر إلا حين يكون العام التالي للسنة القبطية الكبيسة، أو العام السابق للسنة الميلادية الكبيسة. وبالتالي؛ بداية من فبراير توافق تواريخ الأيام القبطية التواريخ الميلادية. بدأ الأقباط تقويمهم في عهد دقلديانوس عام ٢٨٤ ميلاديًّا»، المصريون المعاصرون، الجزء الأول، الفصل التاسع.

الرسالة السابعة

١٨ أكتوبر، رمضان، ١٨٤٢.
صديقي العزيز،

الحديث السائر بين الناس هذه الأيام هي حالة النيل. يستمر النهر في الارتفاع حتى الآن (الثامن عشر من أكتوبر)؛ مما يسبب حالة ذعر عامة خشيةً من ضربة طاعون قوية قد تَلِي هذا الفيضان. في عام ١٨١٨ استمر الفيضان حتى السادس عشر من أكتوبر، لكن لم يسبق أن يفيض حتى هذا التاريخ من الشهر مُذَّاك الحين، أو حتى قبل ١٨١٨ بفترة طويلة. لقد غُمر الطابق السفلي من منزلنا، وغُمر عدد من شوارع القاهرة بمقدار شِبْريُن، بينما في شوارع أخرى تسربت المياه إلى المنازل.

اليوم هو الثاني عشر من رمضان؛ أي شهر الصيام، وأنا أُشفق بشدة على الصائمين لأن الطقس ما زال شديد الحرارة، ومن المدهش كيف يلتزم هؤلاء بالقانون الإلهي ويمنعون أنفسهم عن تناول أي شيء، حتى لو رشفة ماء، من انبلاج الفجر، وحتى الغروب. أؤمن بشدة في صدق ضمائر الكثير من الصائمين. ستشعر باهتمامٍ كبيرٍ في التجوُّل بين شوارع القاهرة خلال هذا الشهر، والتعرُّف إلى أشكال مختلفة من الطباع التي يرفل فيها الناس. البعض يجلس في المقاهي في كسل يحمل عصا مُوشَّاةً بالزخارف، أو بين يديه خيط دائري من الخَرَز. يتجه الصبية، وحتى الرجال، الذين يخوضون تجربة الصيام للمرة الأولى للهو بألعاب صبيانية، بينما يستعرض عدد آخر، بطرق مختلفة، كيف يؤثر الصيام على أعصابهم.

منذ عدة أيام، قُبيل غروب الشمس، مر ثنائي عجوز بالقرب من مسكننا، كانت السيدة المُسنَّة تمسك بيد زوجها الكفيف لتدلَّه على الطريق، وفي اليد الأخرى تحمل غليونه جاهزًا للتدخين في انتظار غروب الشمس ليستمتع الرجل بتدخين غليونه. أحنَى العجزُ والهِرَم الثنائي وأحسست بالحزن لرؤيتهما يتكبدان عناء الصيام كسائر الصائمين، أثار المشهد مشاعر العطف والاحترام لأن العديد من المسنين ينتقلون إلى مأواهم الأخير بسبب مشاق الصيام، حين ينقضي شهر الصيام يتبدَّد خوف الآخرين من اللحاق بركب هؤلاء الشهداء - حسب قواعد دينهم - ومن الطبيعي أن يدرك المتابع الجيد لأحوال هؤلاء القوم تلك الفكرة.

الغالبية العظمى من المسلمين يحولون ليلهم إلى نهار أثناء شهر رمضان؛ لذلك يندُر رؤيتهم في الشوارع صباحًا. ينام أغلبهم من انبلاج النهار وحتى بعد الظهيرة بينما البعض يخرق صومه في السر. لا أظن أن الطبقات الدُّنيا تنحرف عن مسار الصائمين. لا يغفل أحد صوت البهجة وصداها الذي يتردد عبر المدينة عند غروب الشمس موعد نهاية الصيام والتي تستمر على الأقل لعدة ساعات، ينطلق مدفع من القلعة مُعلنًا انقضاء يوم آخر من رمضان،

ويبدو على البعض الضيق لذلك. مع ذلك لا صوت يفرض نفسه أكثر من صوت النداء للصلاة ليلًا والذي يصدح من عدة مآذن. ذكرت لك انطباعنا عند سماعه للمرة الأولى في الإسكندرية، ولكن هنا، في القاهرة، الأمر أكثر بهاءً. أحيانًا، حين تهبُّ الرياح من جهات مختلفة، نسمع مئات الأصوات تؤذن في صوت متناغم كما لو كانت سيمفونية. يصعد المؤذن لدرجة بين السماء والأرض مناديًا رفاقه لعبادة رب السماء، وآه! حين تحمل رياح الليل صوتهم يشعر كل مسيحي - صلاته صامتة - حين يسمعهم بصعود المؤذن لعرش الرب نيابةً عنه. أشعر أنهم جديرون بالشفقة أكثر من أي شعورٍ آخر؛ لأن نور الإنجيل مرَّ من أرضهم ولكن كيف حجبوا هذا النور! التعنُّت، و(لا أعرف إذا صحَّ أن أكتب ذلك!) تصرفات العديد من الأوروبيين الذين يعيشون بينهم وينسبون أنفسهم للمسيحية، أعمت عيونهم، وأصبحت ذنوب الآخرين عائقًا يبدد كل جهود المسيحي الحق. لا أعتبر نفسي قادرة على تقريع هؤلاء، ولكن سينضم إليَّ أصدقاء محترمون وموقرون هنا لنرفع أصواتنا أمام هؤلاء المسيحيين - اسمًا فقط - وممارساتهم المسرفة التي تزيد المسلمين، المُتعنِّتين سلفًا، إصرارًا على تعنتهم. هذه المدينة المهمة يمكن دائمًا اعتبارها «تقاطع طرق» الناس، بمفهوم واسع للكلمة، ونأمل أن يحل اليوم الذي تصبح فيه جملة «هؤلاء مسيحيون» لا تُلفظ كعبارة إهانة.

الأشهر المُحمَّدية تتبع الأشهر القمرية وبالتالي تتوافق مع أشهر ميلادية مختلفة كل عام، حين يحل رمضان في الصيف يُخشى من تبعات الامتناع عن شرب المياه في النهارات الطويلة القائظة. عند الغروب، يتناول المسلم الصائم إفطاره. بصفة عامة تبدأ هذه الوجبة بمُقبِّلات خفيفة مثل الكعك المُحلَّى أو الزَّبِيب... إلخ؛ لأن الكثير من الصائمين، وبسبب طول مدة الصيام، يشعرون بوَهَن واضح؛ لدرجةٍ لا تسمح لهم البدء بتناول وجبة كاملة. يكسر العديد من الصائمين صومهم بتناول كوب من الشربات، أو قدح من القهوة. تلحق المقبلات وجبة أساسية تُعادل وجبة عشائهم في الأيام العادية. عادة ما يخلدون بعد الإفطار لقيلولة قصيرة. عادةً ما يمر، بعد ساعتين من الغروب، أناس، كُلٌّ يختصُّ بمنطقته، يقرعون طبلة صغيرة ويتغنون بأقوال مجاملة لساكن كل منزل. يؤذن مُجدَّدًا لصلاة الصباح باكرًا عن المعتاد، ربما قبل ساعة ونصف الساعة من انبلاج النهار؛ وذلك لتذكير الصائمين بتناول الوجبة الثانية، ويطوف المختص بضرب الطبلة مرة أخرى مُحدثًا جلبةً حقيقيةً تحت كل منزل، لا تتوقف إلا حين يُجيب الساكن عليه. كما ترى، الكثير من العناء يتكبَّده الجميع لتذكير الصائم بانتهاز فرصة الإفطار، وتتمثل غالبًا في هذه الضجة الليلية التي تعكر صفو الليل الهادئ طوال هذا الشهر المقيت. عند انبلاج النهار، كل يوم، ينطلق المدفع من القلعة في إشارة أخيرة للامتناع عن أي طعام، وأحيانًا تهز القذيفة أرجاء المدينة من أساساتها. تُجبرنا نافذة المَشْربيَّة المفتوحة على سماع الجلبة التي سبق ووصفتها. نوافذ منزلنا لها ضلفتين من خشب وأخرى من زجاج، لكن الأخيرة لا تُغلق سوى في الشتاء، وذلك لأن من الأفضل ترك النوافذ مفتوحة للاستمتاع بنوم هانئ أثناء الصيف الحار، وربما ترك الأبواب أيضًا. من واقع مفاجأتي الشخصية بدرجة الحرارة التي نعايشها منذ وصولنا، أعتقد أنك لا

تملك أدنى فكرة عن صعوبة الأمر. قبل عدة أيام، فتحت صندوقًا من الكرتون فيه شمع للأختام، وجدت الشمع ذاب تمامًا والتصق بالطبقة السفلى من الصندوق.

بالحديث عن الهوامِّ في مصر، أعتقد أن الذباب يشكل الإزعاج الأكبر، فالذباب ينتشر في الأنحاء كافةً ويثير الضيق والحنق. تُوضع الشِّباك على الأبواب والنوافذ لصيدها، ولكن في أيام الحرارة، بل أسابيع وشهور، المرتفعة في مصر يصبح من الجنون إعاقة الهواء حتى لو بواسطة شبكة رقيقة. البعوض أيضًا يمثل مشكلة سخيفة في الصباح والمساء، ويُعيق المرء من الاستيقاظ مرتاحًا. هذه معضلة هنا، لأن أفضل طقس يحل في ساعات الصباح الأولى وعقب غروب الشمس. تعجُّ المنازل القديمة بالخنافس ولكن في هذا الصدد حالفنا الحظ لأننا لم نصادف أبدًا أي ظهور لتلك الحشرات المقززة. تسبب البراغيث مشاكل مزعجة خلال موسم انتشارها، أو هكذا قيل لي؛ لأن موسم انتشارها لم يحلَّ بعد. أظن، وآمل، أن حالة منزلنا النظيفة ستسهم، بشكل كبير، في عزوفها عن زيارتنا. سمعت ذات يوم مُحاضِرًا في التاريخ الطبيعي يقول: «هناك حشرات مجهولة في المجتمعات النظيفة.» لذلك؛ صديقي العزيز، ينبغي أن نجهل تلك الحشرات، لكننا بالفعل قابلنا خمسة براغيث، وصلت إلينا خمس مرات في طيَّات طرد من الكَتَّان الجديد وصل إلينا من البازار. هذا الوصول المكروه جعلنا أكثر حرصًا عند وصول أي شيء جديد إلينا.

أما الجُرْذان فتزعجنا بالطبع، ولا يسلَم أي شيء من نهبها إلا لو حُفظ خلف صندوق من الأسلاك، أو عُلِّق على مسافة كافية من الجدران. تركض الجرذان في غرف نومنا أثناء الليل، وأعتقد أحيانًا أنها يدلف إلى المنزل عبر النوافذ المفتوحة. في العموم، لا تسبب تلك الحيوانات أي أذى، ولكن تصيبني بالتقزُّز. السحالي شائعة الانتشار، لكنها سحالي أليفة لا تؤذي، وتستقر إما على الأسقف أو النوافذ تطارد الحشرات الطائرة والتي تقتات عليها. أخبرتك من قبل أن بيوت العنكبوت العتيقة على الجدران أصابتني بالقلق من انتشارها. صدق حَدْسِي، يعجُّ المكان بالعناكب الكبيرة، التي لن أجازف بشرح حجمها العجيب، يكفي أن أخبرك أنها تفوق في حجمها أكبر سلالات العناكب الأوروبية التي رأيتُها. على أيَّة حال، تسبب العقارب مصدر القلق الأخطر، والحق أننا واجهنا ثلاثة عقارب، إحداها بلغ طولها ثلاثة إنشات. أصابني قلقٌ جَمٌّ بسبب رؤيتها، لكن ارتحت عندما أخبروني أن لدغتها لا تؤثر تأثيرًا مميتًا إذا فُتح موضع اللَّدْغ لطرد السم وطُهِّر بالنُّشَادر. رغم ضرورة هذه الطريقة لمداواة المريض فإنها تسبب ألمًا بالغًا، وأثق أننا سنتجنب عناء هذه العملية. وضعت في عين الاعتبار؛ خوفًا على أولادي وهم السبب في تحولي إلى هذا الجُبن، ألَّا نتجول في أماكن قد تنبذنا فيها عناية السماء، أو حيث نكون غرباء عن العناية الإلهية.

لقد تكبَّدت عناء الانتظار أسبوعًا كاملًا قبل أن أُنهي هذه الرسالة، حاملةً الأمل كل يوم أن أكتب لك عن انتهاء فيضان هذا العام. الآن تحققت مُنيتي. لكن يجب أن أذكر أولًا أننا واجهنا عاصفة رياح غير عادية صاحبها سُحب محملة بالغبار، أجبرتنا على غلق العيون والانتظار بصبر حتى تهدأ حدَّتها ولو قليلًا. حين خفَّت حدَّتُها ألقينا نظرة على المدينة

وبالكاد رأينا المآذن ترتفع فوق بحر الغبار، وقد نُكست هامات أشجار النخيل أمام العاصفة العاتية. سمعت صوت إعصار مشابه خلال إحدى الليالي، وذلك مرة واحدة منذ وصولنا إلى القاهرة، ولكني لم أشهد أثره سوى الآن. لم تكن هذه العاصفة واحدة من العواصف التي يميزها المشرقيون بألفاظ مميزة كالزوبعة والخماسين والسموم، بل كانت رياحًا قويةً متقلبةً هبَّت من الشمال الشرقي. أدهشني كثيرًا صمود أطلال القاهرة العديدة أمام هذا الإعصار. عادة ما يتبع عاصفة كتلك هدوء مثالي.

ساد «طاعون الماشية الجامح» خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة؛ لدرجة استحضرت في أذهاننا ذات الطاعون الذي ضرب البلاد أيام موسى، وأصاب المزارعين كرب ثقيل، أول لأقول أصاب القلة التي تملك ماشية. بين أوساط الأثرياء في البلاد كانت الخسارة فادحة. خلال رحلتنا في النيل لاحظنا العديد من جثث الأبقار والجاموس الميتة والملقاة في النهر كما سبق وذكرت في رسالة سابقة، ورأى بعض الأصدقاء الذين لحقوا بنا بعد شهرين عددًا أكبر مُلقى على ضفَّتَي النهر. من المؤكد أن، حتى الآن، أعدادًا كبيرة من الماشية تموت في شتى بقاع البلاد، والاهتمام السائد بهذا الشأن يدفعني لذكر الأمر مُجدَّدًا.

الرسالة الثامنة

السادس والعشرون من نوفمبر.
صديقي العزيز،

عُدت للتوِّ من حضور موكب المَحْمَل المثير للفضول قُبيل رحيل ركب الحجاج العظيم نحو مكة. أبكرنا بالخروج إلى الطريق، وبعد مسيرة ساعة على ظهر الحمير وصلنا إلى شارع المدينة الرئيس المقابل لخان الخليلي، البازار التركي الرئيس في القاهرة. اقتنعت أكثر من ذي قبل أن الحمير هي وسيلة النقل الآمِن في شوارع هذه المدينة. لا ترتحل السيدة إلا على ظهر حمار يُبسط فوقه برذعة صغيرة. أما الرجال فمن الأرجح أن يصعدوا على ظهور الخيول، ولكن مسيرتهم يواجهها الكثير من العواقب. خلال هذا النهار تسللت الحَمِير التي تحملنا بين جحافل الجِمال المُحملة، بينما الخيول اضطرت للتقهقر. كُنت أخشى على أولادي من الانزلاق لكنهم بالكاد تزحزحوا بفضل حرس الخدم الشديد، الذين أحاطوا خصرهم أثناء المرور بالطرقات الخطرة. أؤكد لك أن التحرك في شوارع القاهرة أمر محرج، ولكنه يصبح أكثر إحراجًا خلال مواسم الاحتفالات.

حجزنا غرفة لنقضي فيها النهار، تقع في الطابق الأول وتكشف الشارع. بمجرد أن جلسنا بدأ ضجيج غير عادي. كان الضجيج يرتفع من تجمُّع للأولاد يحملون العصيّ، وبالطبع يستمتعون (كما المعتاد خلال هذه الأيام التي تسبق الموكب) بضرب كل من هو مسيحي أو يهودي. أسفل نافذتنا رأينا هجومًا على رجل فرنسي محترم بصعوبة أنقذه بعض العرب الذين أظهروا الكثير من اللِّين. أعتقد أننا نستحق التهنئة اليوم حيث اعتقد الناس أننا مشرقيون، وهكذا لم نكن محطَّ شكوك. ذات مرة، ليست ببعيدة، تعثر حماري، فصاح رجل تركي، كان يمر بجواري: «يا ساتر». أعتقد أنه لم يكن ليرجو حماية الرَّبِّ لي لو ساوره الشك بشأن جنسيتي. يتحامل الناس تحاملًا كبيرًا على الأوروبيين هنا، حيث يدَّعون أن الأوروبيين جذبوا الباشا للكثير من المعضلات المالية، ولكن اليوم، سأنصرف عن الحديث عن هذا الأمر، وسأخبرك عن الموكب بينما ما زلت أحتفظ بأحداثه حيَّةً في ذهني.

أول من مر من الموكب كان رجلين بسيوف مسلولة يشتركان في نِزَال استعراضي، ثم ظهر رجل يثير مظهره الضحك والاشمئزاز، يجلس على ظهر دابَّة ويضع قبعة عالية على رأسه بينما لحيته بدت شعثاء غير منظمة، وثيابه من جلد الخراف. أمسك الرجل في يده اليمنى بعصي نحيلة وفي اليد اليسرى حُزْمة من الأوراق تظاهر أنه يقرأ منه، بطريقةٍ اختلطت فيها التراچيديا والكوميديا، فرمانات قضائية. بعده ظهرت «بندقية» المحمل، قطعة دائرية نحاسية صغيرة الحجم. بعد ساعة ونصف الساعة من انتصاف النهار ظهرت مجموعتان من قوات «نظام»، لحقت الواحدة الأخرى وقد ارتدوا عمائمهم المميزة. كانت الآلات الموسيقية المستخدمة آلات أوروبية، لكن ليس في وسعي أن أمدح عزفهم. على

أيَّة حال، كانت أفضل محاولة لإنتاج لحنٍ موسيقيّ صادفتها في مصر منذ وصولي. ينبغي عليّ الآن أن أحضر جلسة من جلسات الغناء لأسمع المُغنِّين المحترفين، حيث أكد لي أناس أثق في أذواقهم أنني قد لا أطرب لطريقة غنائهم لكني حتمًا سأتفاجأ بمهارتهم وجودة أصواتهم.

عقب رحيل الجنود موكبٌ من الدراويش. في البداية ظهر دراويش السعدية يحملون رايات عديدة، نُقش على بعضها اسم الله ومُحمَّد ومؤسس رابطتهم على الحرير الأخضر. معظم هؤلاء الدراويش حمل دفًّا صغيرًا من جلد الماشية يُسمَّى باز في يده اليسرى وأخذ يدق عليه بحزام جلدي صغير. البعض الآخر اهتم بالضرب على الصنوج، وتشارَك الجميع في ترديد الابتهالات الدينية مرددين أسماء الله وصفاته. هز الدروايش رؤوسهم يمنةً ويسرةً في حركة مستمرة دون توقف أثناء ابتهالاتهم، وبدت الحركة واضحة أكثر لأولئك الذين ارتدوا عمائم طويلة. اجتمع مظهرهم وثيابهم وحركتهم المستمرة لجذب انتباهنا جميعًا. بعد رحيل هذه الفرقة من الدراويش ظهرت مجموعة من دراويش الرفاعية (التي تنبثق منها السعدية)، حاملين الأعلام السوداء ويدقون بدورهم على الباز والصنوج ويرددون ابتهالاتٍ مشابهة. خلفهم امتطى الشيخ الأكبر للرابطة حصانه وبدا رجلًا وقور المظهر في عمته الكبيرة السوداء. تلاهم دراويش القَدْريَّة. حمل أعضاء الرابطة شارتهم الرسمية وهي سعف النخيل يُستخدم كصنَّارات للصيد، وشِباك صيد مشدودة على أطواق مرفوعة على أعمدة طويلة بداخلها حُبس عدد من الأسماك. حمل دراويش القدرية أعلامًا بيضاء. بعد رحيلهم ظهر دراويش الأحمدية والبراهمية يحملون على التوالي الأعلام الحمراء والخضراء، ثم بعد اختفائهم مباشرة ظهر المحمَل.

للمحمل مظهر مَلكيّ خالص، يتكون من نسختين من القرآن محفوظتين في حافظتين من الجلد المطلي بالفضة المُذهبة ومربوطتين إلى جانبَي الجمل. على ظهر الجمل هَوْدَج يصحب الموكب كل سنة ويُعد، إذا صحَّ قولي، شعار الحجيج. يعتقد الكثير أن الهودج يحوي بداخله الكسوة، أو الغطاء الجديد لمعبد مَكَّة، ولكنهم على خطأ. تعود أصول هذا الاحتفال، كما ذُكر في كتاب «المصريون المعاصرون»، إلى شجر الدُّرِّ والمعروفة باسم شجرة الدر. كانت شجر الدُّر أَمَةً تركيةً جميلة أصبحت فيما بعد زوجة السلطان الصالح نجم الدين المفضلة، وعقب وفاة ابنه (الذي انتهت معه سلالة آل أيوب الحاكمة) أعلنت نفسها ملكة على مصر، واتجهت للحج في هودج مَهِيب على ظهر جمل، لسنوات تالية كان الهودج يُرسل إلى الحج فارغًا إشارة لسطوتها على أمور البلاد. فيما بعد حذا أمراء مصر حذوها وأرسلوا مع كل موكب للحجيج هودجًا فارغًا (أُطلق عليه فيما بعد لقب مَحْمَل) دليلًا على الهيمنة الملكية، واتبع ملوك العديد من الدول هذا التقليد(30). كان غطاء المحمل يُصنع من الديباج الأسود، لكني رأيت اليوم ديباجًا رثًّا مصبوغًا بالأحمر يغطي المحمل، وتم إخباري أنه لا يضاهي بهاء أغطية السنوات السابقة، كما أخبرني أخي أن كل ما يتعلق بهذا الموكب أصبح يضمحلُّ كل عام، ويقلُّ إنفاق الحكومة في تجهيزه كل عام. على أيَّة حال، أثار الموكب انتباهي وانتباه أولئك الذين يشاهدونه للمرة الأولى. لم يظهر

رجال يرتدون ملابس مُذهّبة، اعتادوا الحضور في المناسبات السابقة، ولم توضع السروج المُوشَّاة بالحُلي البهية على ظهور الجمال.

بعد المحمل مباشرةً ظهر شيخ نصفَ عارٍ اعتاد السير خلف المحمل كل عام، ويحرك رأسه يمنةً ويسرةً هو الآخر في حركة نصف دائرية، كان الشيخ يتلقى هبة نظير ما يفعله من الحكومة، وظهر على ظَهْر حصان شاب. لو كان هذا الرجل ذاته الذي يكرر هذه الحركة نصف الدائرية كل عام (وهو ما تأكدت منه) فيبهرني أنه يؤدي تلك السخافة كل عام، بالتأكيد رأسه له طبيعة غير عادية تُمكِّنه من إتقان تلك الحركة. لحقه عدد من الجِمال والخيول موشاة بزينة تسرُّ الناظرين، ولكن غير باهظة. تزينت الجمال بوسائل شتى، بعض الجمال تدلى من سروجها على الجانبين كراتٌ صغيرة ينسدل منها قطع قماش ملونة، وجِمال أخرى زُينت بسعف النخيل، وريش النعام، وثُبتت رايات صغيرة على السروج تزينها صدفات لامعة. لحق موكب الجمال والخيول جماعات من المشاة تبعهم أمير الحج (أو رئيس الحجاج)، ثم لحقهم مجموعة من الناس يفرقون الهدايا المعتاد توزيعها في هذه المناسبة، وظهر عازفو الدفوف يجلسون بارتياحٍ على ظهور الجمال ويقرعون الطبول المشدودة من جلد الماشية. تلاهم جماعة تجرُّ قطيعًا من الجمال، وعدد من الناس يحملون المشاعل المغطاة بقطع القماش الملونة. «المشاعل هي أعمدة لها قمَّة دائرية من الحديد يوضع الخشب داخلها لإشعال النار.»(31)، استُخدمت هذه المشاعل لإضاءة الموكب خاصةً أن أغلب الرحلة يقطعها الحجيج خلال ساعات الليل الباردة. تلا رجالَ المشاعل جماعةٌ من الضباط والجنود ثم هودج وركاب أمير الحج. ثم ظهرت الجمال التي تحمل مؤن المياه في جِرَارٍ من جلود الحيوانات، وبعدها عدة جمال جاءت لتختم الموكب.

مجرد مشاهدتنا لهذا الموكب بدت جائزة سخية لنا. ازدحمت المحالُّ والمقاعد الموضوعة أمامها بأناسٍ من بلاد مختلفة، وبدت اختلافات مظهرهم وأزيائهم وسلوكياتهم جديرة بالدراسة. أما نوافذ الطوابق الأولى والثانية فازدحمت عن آخرها بالنساء والأطفال والعبيد، وأطلَّ بين حينٍ وآخر من خلف المَشربيَّات ثيابٌ باهظة التطريز.

عند نقطة معينة التقت الطوائف كافةً من البشر مثل شراء بعض الهدايا للأطفال (الحلوى على الأخص)، والبعض الآخر تجول دون شراء يشاهد الموكب، بينما أطفالهم المساكين يتمنون الحصول على ما حصل عليه أقرانهم. هنا شعرت أنني رأيت منظورًا آخر للحكم على المظاهر الرَّثَّة لتلك الأطفال. يرجع ذلك إلى اهتمام الوالدين بإطعامهم أي شيء وكل شيء دون النظر لمدى صحته أو فائدته لهم. كيف يمكن أن يحظى هؤلاء الأطفال بالصحة أو البدن القوي؟

(30) ملحوظة صوفيا لين بول: كتاب «المصريون المعاصرون»، الطبعة الثالثة، الجزء الثاني، ص. ٢٠٣.

(31) ملحوظة صوفيا لين بول: كتاب «المصريون المعاصرون»، الطبعة الثالثة، الجزء الأول، ص. ٢٥٤.

الرسالة التاسعة

نوفمبر، ١٨٤٢.
صديقي العزيز،

أكتب لك اليوم عن المزيد من أخبار القاهرة ونواحيها، بمساعدة ملاحظات تاريخية أدين بالفضل في قراءتها لأخي، الذي استخلص معلوماته من كتاب المقريزي «وصف تاريخي وجغرافي لمصر وعاصمتها». هذا الكتاب هو مجموعة من كتابات المُؤرِّخين والجغرافيين العرب، واستعان أخي ببعض الأجزاء التي تقصُّ ملاحظات المؤرخين والجغرافيين عبر عصور مختلفة.

الفسطاط هي أول مدينة بناها العرب في مصر. كانت مقرَّ حكم البلاد لمدة قرن ولكن بعد تقويض حكم الدولة الأموية، بُنيت مدينة جديدة ملاصقة للفسطاط تُسمَّى العسكر لتصبح مقر الحكومة. ثم بُنيت مدينة القطائع بالقرب من العسكر وكانت مقر دولة ابن طولون المستقلة. بعد انقضاء حكم الدولة الطولونية عادت العسكر مقرًّا للحكم مرة أخرى، واستمرت مقر الدولة حتى أحكم المُعزّ قبضته على مصر وأسَّس مدينة القاهرة التي يلقبها السكان بمصر، ويطلق عليها الأوروبيون لفظة (كايرو).

أُقيمت الفسطاط فوق البقعة التي عسكَر فيها العرب لمدة قصيرة بعد فتحهم لمصر، وكان ذلك في العام العشرين للهجرة (أو ٦٤١ ميلادية). اشتُقَّ اسمها من اسم الخيمة وذلك تيمُّنًا بالخيمة التي أقام فيها القائد العربي عمرو بن العاص، في حين أن بعض الروايات تؤكد أن اسم فسطاط يُطلق على أي مدينة. على أيَّة حال، كان اسم مصر أكثر شيوعًا للإشارة إليها، ثم أصبحت القاهرة. مُنح لقب مصر العتيقة (أو مصر القديمة) للمنطقة الصغيرة التي تشغل الآن حيزًا من حدود الفسطاط القديمة، لقَّبها المُرتحلون الأوروبيون (القاهرة القديمة)، كما لُقب حصن بابليون بالفسطاط.

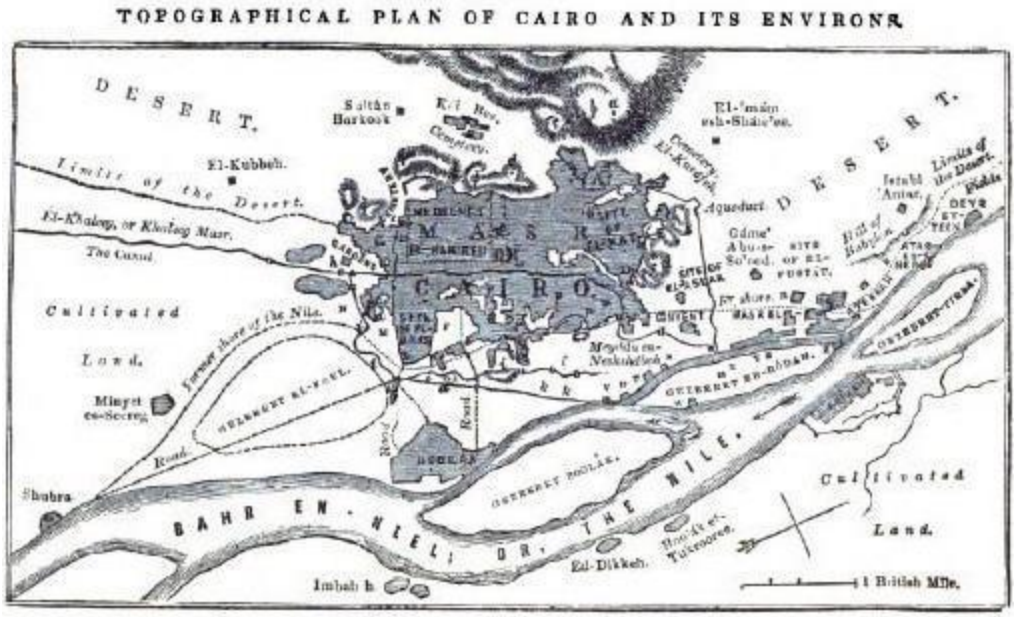

رسم طبوغرافي للقاهرة وضواحيها

EXPLANATION OF THE TOPOGRAPHICAL PLAN OF CAIRO AND ITS ENVIRONS.

A, The Citadel.
B, Place called the Rumeyleh.
C, The Cara Meydán.
D, Kal'at el Kebsh.
E, Birket el-Feel.
F, El-Ezbekeeyeh.
G, El Hoseyneeyeh.
H, Space between the Báb en-Nasr of the first wall of El-Káhireh (marked by the dotted line) and that of the second wall.
I, Space between the Báb el-Futooh of the first wall and that of the second.
K, Space between the Bábá Zuweyleh of the first wall and the Báb Zuweyleh of the second.
L, Báb-el-Bahr; now more commonly called Báb el-Hadeed.
M, Tract formerly called Ard et Tabbáleh.
N, Site of the Garden of El-Baal.
O, El-Look, and Báb el-Look.
P, Tract which was occupied by the Gardens of Ez-Zahree.
Q, Kasr es-Shema.
R, Mosque of 'Amr.
S, Convent of Darweeshes.
T, Kasr El-'Eynee.
U, V, Palace and Hareem of Ibráheem Básha.
W, Kafr 'Abd-El-'Azeez (a village).
X, Kafr Kálid-Bey (a village).
Y, Kasr er-Ródah.
Z, The Mikyás, or Nilometer.
a, b, Mosque and Fort on Mount Mukattam.
c, Ruin called Kubbet el-Hawa.
d, d, d, d, d, d, d, d, Forts erected by the French on the mounds of rubbish.
e, Cemetery of Báb en-Nasr.
f, Birket er-Ratlee.
g, Telegraph.
h, Gáme' Ez-Záhir (a ruined mosque).
i, i, i, i, i, Western Canal, formerly called El-Khalleg en Násiree.
k, k, New Canal.

موقع الفسطاط في هذه الفترة - أي خلال الغزو العربي - كان شاغرًا من أي مبانٍ عدا حصن روماني، لا يزال قائمًا، يُسمَّى «قصر الشموع» ويقع شمال تل بابليون، وجاور الحصن عدة كنائس وأديرة. كان النيل، آنذاك، يجري بالقرب من الحصن المذكور آنفًا. يمكن وصف الفسطاط بكونها مدينة رحبة تضم منازل تبلغ خمسة إلى ستة طوابق مبنية من القرميد.
أما سبب تدهور المدنية الأساسي فيعود لعصر المجاعة العظيمة التي وقعت في عهد الخليفة المستنصر، منتصف القرن الخامس من الهجرة النبوية، والتي استمرت لمدة سبع

سنوات. بعد مرور قرن من هذه الكارثة المُرِيعة وقع نصف المدينة ضحيةً لحريق هائل دُبِّر للحيلولة دون سقوطها في يد الجيوش المسيحية (32). أُعيد بناء جزء من المدينة ولكنها لم تستعِدْ قط ترفها السابق.

تم بناء مدينة العسكر في العام ١٣٣ من الهجرة النبوية (٧٥٠-٧٥١ ميلاديًّا) قبل مدة طويلة من سقوط الفسطاط، التي استمرت عاصمة لمصر رغم انتقال الحكام منها. يمكن اعتبار العسكر، في هذه الفترة، ضاحية الفسطاط وليس مدينة مستقلة بذاتها. أما القطائع فتم بناؤها في العام ٢٥٦ من الهجرة النبوية (٨٦٩ - ٨٧٠ ميلاديًّا). كانت المدينة تقع على سفح التل الذي تقع عليه الآن قلعة القاهرة، وامتدت مساحتها على رقعة ميل من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب. في عام ٢٩٢، هجريًّا سقط حكم السلالة الطولونية ونُهبت المدينة كما حُرق جزء كبير منها عن بكرة أبيه، ويُقال أن المجاعة العظمى في عهد المستنصر أجهزت على بقية السكان وتركت المدينة تسقط في قبضة الأطلال. أصبحت الأطلال جزءًا من ضواحي القاهرة، ولم يتبقَّ من القطائع سوى المسجد الذي أسَّسه ابن طولون.

كما تشمل الضواحي موقع مدينة تُسمَّى «المقس» وُجِدت قبل الغزو العربي لمصر. أما مدينة القاهرة فبُنيت على مساحة ثلاثة أرباع الميل، وتم بناؤها في العام ٣٥٨ من الهجرة النبوية (٩٦٨ - ٩٦٩ ميلاديًّا). تم تقويض أول أسوارها وأقدمها عام ٤٨٠ من الهجرة النبوية (١٠٨٧- ١٠٨٨ ميلاديًّا) وبناء سور آخر عوضًا عنه، لتتسع المدينة أكثر من جهتَي الشمال والجنوب. في عام ٥٧٢ هجريًّا (١١٧٦ - ١١٧٧ ميلاديًّا)، هُدم هذا السور وبنى صلاح الدين سورًا ثالثًا (صلاح الدين المعروف لدى المؤرخين الأوروبيين). امتد هذا السور من القلعة بمحاذاة الجهة الشمالية والشرقية من المحافظة، وضم جزءًا من مدينة المقس القديمة من جهة الغرب حيث ينتهي السور وحيث يقع جزء منه غير مكتمل البناء. كانت نيَّات صلاح الدين أن يبني سورًا يحيط بالقاهرة والقلعة والفسطاط. آنذاك، أصبحت ضواحي المدينة تقع على رقعة أكبر من المدينة ذاتها.

دعني أخبرك - بإيجاز - عن التغييرات التي لحقت بمجرى نهر النيل في نواحي الفسطاط والقاهرة؛ خاصةً منذ بناء المدن السابق ذكرها، وذلك لأني أعدُّ تلك التغيرات ذات أهمية كبيرة.

حدثنا المقريزي أنه في فترة غزو العرب لمصر كانت «الروضة» هي الجزيرة الوحيدة التي تقع في جوار مواقع المدينتين السابق ذكرهما. آمن المحليون أن التمثال العملاق المسمى «أبو الهول» (الرابض أمام أهرامات الجيزة) وعملاق آخر كان يقع على الجهة المقابلة من النيل، هما طِلَّسْمَان أعدَّهما قدماء المصريين لمنع تعدِّي رمال الصحراء المتاخمة على ضفاف النيل. على الرغم من الصيت الذائع عن تأثير سحر المصريين القدماء فقد هُدم العملاق الأخير في عام ٧١١ هجريًّا (١٣١١ - ١٣١٢ ميلاديًّا)، وقرابة عام ٧٨٠ هجريًّا (١٣٧٨ -

١٣٧٩ ميلاديًّا) تم تشويه وجه أبي الهول على يد الشيخ المتطرف محمد والمُلقب بالشيخ محمد صائم الدهر. بعد تلك الأحداث مباشرةً أكد الكثيرون أن رمال الصحاري زحفت نحو الرقعة الزراعية الممتدة بين الصحراء والنهر وسببت انكماشًا واضحًا في اتساع مجرى النيل. في الواقع، لقد تقلص النيل من جهة الحدود الشرقية للقاهرة في القرنين: السادس والسابع الهجريين، ولكن لم تشهد مساحة مجرى النيل إلا القليل من التقلُّص منذ مطلع القرن الثامن الهجري.

قبل هذا التقلص الملحوظ كان النهر يجري بمحاذاة أسوار «قصر الشموع» وجامع عمرو في اتجاه الشمال نحو الفسطاط، ويحدُّه من ناحية الشرق مدينة العسكر وحدائق «الزهراء» ومن الجهة الشرقية حي يُدعى «اللوق»، ومدينة المقس، وسهل يُسمَّى «أرض الطبلية» وحدائق «البعل»، وقرية «منية السيرج». لذا نرى أن النهر كان يجري بمحاذاة ضواحي القاهرة الغربية وحدائقها. قُبيل انهيار الحكم الفاطمي (خلفاء مصر)، تحطمت مَرْكَبة ضخمة تُسمَّى «الفيل» في النيل بالقرب من «المقس»، وتسبب ارتطام حطامها بقاع النهر في ظهور رقعة كبيرة من الرمال والطمي على السطح سرعان ما تشكَّل مُكوِّنًا جزيرة خصبة. لُقبت تلك الجزيرة الناشئة؛ بسبب الظروف التي ظهرت فيها، جزيرة الفيل. ستجد موقعها في الرسم المرفق مع هذه الرسالة، وفقًا لوصف المقريزي.

في العام ٥٧٠ هجريًّا (١١٧٤ - ١١٧٥ ميلاديًّا)، التحمت الجزيرة مع الأراضي جهة الشمال ومُذَّاك تراجع النهر تدريجيًّا من منطقة «المقس»، وبفضل الطمي الهائل الذي خلَّفه تراجع النهر بالإضافة لمواسم الفيضان المتتالية تكوَّن السهل الفسيح الذي أُقيم عليه حي بولاق. بُني حي «بولاق» عام ٧١٣ هجريًّا (١٣١٣ - ١٣١٤ ميلاديًّا) وظهرت الجزيرة التي سُمي الحي تيمنًا بها (جزيرة بولاق) في الآن نفسه.

يقع حي بولاق على مساحة ميل طولًا ونصف ميل عرضًا وتضم نحو مائتَيْ ألف نسمة. تشبه منازلها وشوارعها وحوانيتها... إلخ، منازل وشوارع وحوانيت العاصمة والتي أرجو أن أكتب لك عنها في رسالة منفصلة. من مَذَاكِر بولاق أذكر لك أشهرها: المسجد الأكبر من حيث المساحة ويُسمى مسجد «السانيه» ومسجد «أبو العلا» ويشتهر بمظهر مئذنته البديع. أما المصانع الرئيسة فتهتم بتصنيع الملابس القطنية وتلك المغزولة من الكَتَّان، ومن الحرير المستخدم في صناعة الملابس في سوريا والهند. كما أنشأ الوالي الحالي مطبعة في المدينة، وقد صدر من هذه المطبعة العديد من الأعمال المهتمة بالاستراتيـجيات العسكرية والبحرية، والأعمال التي تتحدث عن النحو العربي والشعر وكتابة الرسائل والجبر والفلك والجراحة... إلخ. وتضمن المطبعة إمكانية الطباعة الحَجَريَّة (الليثوغرافيا)(33)، وذلك لطباعة إعلانات الوالي والجداول التوضيحية والاستراتيـجيات العسكرية والبحرية... إلخ.

المدينة المعروفة لدى الأوروبيين باسم القاهرة، أو القاهرة الكبرى، يسميها المصريون «مَصْر»(34)، وعادةً ما يُضاف لقب «المحروسة»(35) في الرسائل والمكاتبات الأخرى.

سُميت القاهرة (36) لأن كوكب القاهر (المِرِّيخ) ظهر في سماء الأرض أثناء وضع حجر أساس المدينة، أما اسمها الإنجليزي (كايرو) فاشتُقَّ من الإيطالية. تقرر تأسيس المدينة أثناء الليل، واتفق علماء الفلك على تحديد وقت بعينه مُواتٍ لوضع حجر أساس سور المدينة. كان من المقرر أن تُطلق إشارة البدء بضرب عدة أجراس كانت معلقة على أسلاك مشدودة على امتداد عدة أعمدة، ولكن ما حدث أن غرابًا قد هبط على أحد الحبال مما أدى إلى إطلاق الجرس مبكرًا عن الموعد المحدد وعليه شرع البنَّاءون، المتأهبون للبدء في عملية البناء، في مهمتهم. وهكذا بُنيت المدينة في ساعة شؤم بدلًا من لحظة ميمونة (37).

تبلغ المسافة بين مرسى بولاق وأقرب أبواب العاصمة ما يزيد قليلًا على الميل الواحد. الطريق الجنوبي يُفضي إلى «الأزبكية» وأحياء الفرنج، أما الطريق الشمالي فيقود إلى بوابة «باب الحديد» والتي تقع في الزاوية الشمالية الغربية من المدينة. على مقربة من هذه البوابة تلٌّ ضخمٌ من القُمامة على قمته يقع برج دائري للتلغراف. يطلُّ هذا البرج على مشهد بانورامي بديع للعاصمة والقلعة وجبل المُقطَّم.

تبلغ مساحة الرقعة التي تقع عليها العاصمة ثلاثة أميال مربعة، طولها ثلاثة أميال وعرضها ميل ونصف الميل. عدد سكان العاصمة يبلغ مائتين وأربعين ألف نسمة. يَعتبِر بعض المسافرين أن القاهرة مدينة منغلقة مكتظَّة السكان (بالنظر لضيق شوارعها وعطفاتها)، ونسب البعض تفشِّي الأوبئة المتكررة في البلاد إلى هذه الشوارع الضيقة، لكن الأمر يبدو به من المبالغة ما يلزم التوضيح، فالقاهرة أقلُّ ازدحامًا من مدن كلندن وباريس أو ربما أي عاصمة أوروبية أخرى. من المؤكد أن مساحة ثلاثة أميال مربعة تفي باحتضان مائتين وثمانية وأربعين ألف نسمة. أما عن سبب بناء المنازل على مقربة من بعضها البعض، فيرجع لرغبة الأهالي في توفير الظلال الكافية على الطريق، لكن مساحة أغلب المنازل كبيرة كفاية لدرجة تفي بسكن ضعف عدد سكانها الفعلي كما تتسم المنازل، بفضل المشربيات، بالتهوية الجيدة.

الأسوار التي تحيط معظم القاهرة بُنيت من أحجار كربونات الكالسيوم المجلوبة من الجبال المجاورة، وبعض الخامات جُلبت من أطلال أهرام بالية تختلف في شكل البناء وزمن بنائها، تحيط أهرامات الجيزة. يحيط العاصمةَ من جهة الشرق سورٌ شبه مكتمل (بناه صلاح الدين) يتصل بأسوار القلعة، وأسوار رديئة القوام حديثة البناء. بُني السور الشمالي على طراز أفضل وأقوى، أما الأسوار الجنوبية والغربية فغير منتظمة الاتجاهات، قصيرة، وفي معظم أجزائها تتسم ببناء ضعيف يليق بأسوار حديقة وليس أسوار مدينة عظيمة. تلال القُمامة ترتفع في النواحي الشمالية والجنوبية والشرقي من المدينة، وقد بنى الفرنسيون الكثير من الحصون فوق تلك التلال التي تضمن رؤية بانورامية للمدينة، لكن تلك الحصون الآن تحولت لأطلال مدمرة. كانت الجهة الغربية لها نصيب من تلك التلال ولكن تمت إزالتها مؤخرًا وزراعة حدائق من أشجار الزيتون والسنط. ثلاثة من بوابات

المدينة عتيدة البناء، بُنيت أثناء بناء السور الثاني؛ أي عام ٤٨٠ هجرية (١٠٨٧ - ١٠٨٨ ميلاديًّا) أثناء حكم المستنصر، وربما تلك هي الآثار الوحيدة الشاهدة على حكم هذا الخليفة. في السور الشمالي يقع بابان، هما: باب النصر وباب الفتوح ويبعد كلاهما عن الآخر مسافة ستة إلى سبعة أقدام. أما ارتفاع كليهما فسبعون قدمًا، وعرضه ثمانون قدمًا أو أكثر. يرتفع برجان مربعان فوق باب النصر، وفوق باب الفتوح يرتفع برجين دائريين، هذه البوابة (الفتوح) لها مظهر خلَّاب ولكن من الصعب ملاحظته لأن العديد من المنازل تقع بمحاذاتها مباشرة. ثالث البوابات المذكورة هو: باب زِويلة (38). رغم أن باب زويلة يقع تقريبًا في قلب المدينة فإنه علامة الحدود الجنوبية للقاهرة. يعتلي باب زويلة برجان هائلان دائريًّا البنيان وفوق كليهما مئذنة تمنح الباب لمسة جاذبية وتأثير واضحة. المآذن كانت مآذن مسجد المؤيد والذي يقع مباشرةً إلى جهة اليسار عند الدخول من البوابة. يرجع تاريخ بناء المآذن إلى تاريخ بناء المسجد نفسه في عام ٨١٩ هجرية (١٤١٦ - ١٤١٧ ميلاديًّا). من الشائع إعدام المجرمين أمام هذه البوابة. من بين البوابات الأخرى يمكن ذكر: باب العدوي الواقع في منتصف السور الشمالي، والذي يُذكر لبنائه الصلب دون أن يتَّسم بأي صفة أخرى تستحق الذِّكْر، وباب الحديد والذي بُني عند بناء السور الثالث.

في الرسالة التالية أُحدثك عن المدينة من الداخل.

(32) ملحوظة صوفيا لين بول: حدثت الهجمات تحت قيادة عموري الأول، ملك القدس، ويلقبه المصريون: موري.

(33) ملحوظة المترجمة: الطباعة الحجرية هي وسيلة للطباعة باستخدام الحجر الجيري أو لوحة معدنية مع سطح أملس تمامًا، اخترعها المؤلف والممثل الألماني ألويس سنفلدر عام ١٧٩٦؛ لتوفير نفقات نشر الأعمال المسرحية باعتبارها وسيلة طباعة زهيدة الثمن.

(34) ملحوظة صوفيا لين بول: الأتراك وعدد لا بأس به من المشرقيين ينطقونها «مِصْر» بكسر الميم؛ أي بالعربية الفصحى.

(35) ملحوظة صوفيا لين بول: في الوثائق الحكومية يُكتب هذا اللقب منفردًا للإشارة إلى العاصمة المصرية.

(36) ملحوظة صوفيا لين بول: القاهرة والقاهر كلاهما أسماء فاعل من الفعل قهر؛ أي انتصر.

(37) ملحوظة صوفيا لين بول: وصف المقريزي لبناء السور الأول.

(38) ملحوظة صوفيا لين بول: في الأصل يُلفظ زَويله وهي اسم قبيلة عربية.

الرسالة العاشرة

نوفمبر، ١٨٤٢.
صديقي العزيز،

حاولت بالفعل أن أصف لك انطباعي الأول حين دخلت حدود القاهرة. لقد تشوَّشت أفكاري عن هذه المدينة، لفترة طويلة. بدت لي متاهة من البيوت المُدمَّرة وشبه المدمرة متشابهة البنيان، وبدت عتيقة المظهر لدرجة أنني ذُهلت فور معرفتي بحداثة بنائها.

تحمل القاهرة لقب أُمّ الدُّنيا، وأسماء أخرى رنانة. إلا أن الأحوال في القاهرة تردَّت كثيرًا منذ اكتشاف الطريق إلى الهند عبر رأس الرجاء الصالح؛ وخاصة خلال السنوات القليلة الماضية، مع ذلك لا تزال واحدة من مدن الشرق المهمة. على أيَّة حال، هي مدينة عربية بحق، ويمكن ملاحظة جودة الحرفيين العرب في معمارها. المنازل الخاصة لها مساحات متوسطة، عادة يُبنى الطابق الأسفل من الخشب، والبنية الفوقية من الطوب، على أيَّة حال هي أفضل من الأكواخ.

الطرق غير مُمهدة وضيقة حيث يتراوح اتساعها من خمسة إلى عشرة أقدام على أقصى تقدير. بعض الطرقات يقلُّ عرضها عن أربعة أقدام، لكن هناك شوارع تتسع إلى أربعين أو خمسين قدمًا رغم قِصَر طولها. دعني أشرح لك أوصاف الشوارع حسب ألقابها المختلفة.

«الشارع»، عادة ما يختلف من حيث الطول والعرض، وأغلب الشوارع تسع بالكاد لمرور جَملين مُحمَّلين في آنٍ واحد؛ مما يتسبب في معاناة المارَّة على الرغم من ندرة مرور العربات من هذه الشوارع. تحمل الجمال الحمولات التي يتعذر على الحمير حملها ويشترك الجمال والحمير في حمل جِرَار المياه من النيل إلى القاهرة، وعادةً ما تحمل الجمال جرارًا من الجلود بينما تحمل الحمير جرارًا من جلد الماعز تحديدًا تُعلق حول أعناقها. المشهد العام للشارع عادة ما يوحي بالصخب والتوتر وذلك بسبب تزاحم الدَّوابِّ والبشر السائرين منهم والراكبين، وتزداد حدَّة المشهد الصاخب حين يحدث وتتلاقى قافلتان من الجمال في شارع لا يسمح إلا بعبور واحدة، وهذا حدث معتاد. الشائع هو استخدام الحمير لأنها وسيلة الانتقال الأكثر ملاءمة في شوارع القاهرة؛ لذلك الحمير دائمًا ما تكون تحت الطلب للاستئجار أو الشراء، حتى أبناء الأثرياء أحيانًا ما يفضلون امتطاء الحمير على امتطاء الخيول. ربما يمكن تفسير هذه الأفضلية لعدة أسباب منها سرعة الحمار وسهولة سيره؛ وكذلك سروجها المزركشة واسعة وثيرة ومريحة للركاب. عادة ما يركض الخادم أمام الحمار يطلق صيحات متواصلة ليفسح الطريق لسيده. الفرسان يسيرون بحركة أقل راحة، وبسرعة بطيئة - بالكاد ترتقي للسير الوئيد - رغم تقدم خادم وأحيانًا اثنين أمام السيد ليفسح الطريق، لكن عادة ما يجبر الفارس على العودة أدراجه. لذلك ليس من المعتاد

مشاهدة الخيَّالة في هذه الشوارع، فبعض الشوارع تكاد لا تسمح بمرور فارس على صهوة جواده. تجري العادة أن يُحيِّي الأفراد من الطبقة العليا والمتوسطة بعضهم البعض في الشارع حتى لو كانوا أغرابًا. وهكذا عادة ما تلقَّى أخي تحية المسلمين، وهذا أمر أذكره لأشير لمغالطات المشرقيين وسهولة خداعهم بمجرد تخفِّي أوروبي في زِيّ مشرقي.

الغريب، الذي يملك صورة رائعة عن عظمة الشرق، سيندهش من العدد الكبير من أصحاب الملابس المتواضعة الذين سيصادفهم في شوارع القاهرة. اللون الأزرق هو اللون الأكثر شيوعًا في الملابس. الثوب الرئيس، لرجال ونساء الطبقة الدنيا، قميص من القطن أو الكتَّان، مصبوغ بالنيلة الزرقاء، وهو ثوب محلي الصنع. أما السُّتْرات الزرقاء التي يرتديها الرجال، عادةً الخدم، فتحتها سُترة من الحرير والقماش. البعض يعاني الفقرَ لدرجةٍ لا تسمح له بشراء عمامة الرأس، ولا يملكون سوى عمَّة بيضاء أو بُنية من اللبَّاد، أو طربوش(39) قديم. من الجدير بالذكر أن العديد من المصريين لا يملكون أحذية. يتميز المسيحيون واليهود بعمامة الرأس السوداء أو الزرقاء أو بُنية فاتحة. بالنسبة إلى الغريب الأوروبي، تُعد أزياء السيدات الأكثر إثارةً للدهشة. يُغطَّى الثوب الأنيق الذي يرتدينه في المنزل برداءٍ ثقيلٍ من الحرير (يُسمى «توب») كُلما خرجن إلى الشارع، وفوقه غطاء ضخم من الحرير الثقيل (يُسمَّى «حبَّارة») يغطي تقريبًا الجسد كله، وترتدي الفتيات اللاتي لم يتزوجن بعد حبارة بيضاء بدلًا من الأخرى السوداء التي يرتديها النساء، أما غطاء الوجه (البُرْقُع) فمن الشاش الأبيض، وتغطي الوجه من أسفل العين إلى القدم تقريبًا. لذا يمكن التخمين - بصعوبة - أن النساء ترتدي القباقيب، لكن على أيَّة حال نادرًا ما تسير النساء على أقدامهن في الشوارع المزدحمة حيث يُعيَّن لهنَّ حمير مدربة لنقلهن، ويُغطي ظهرَ المَطيَّة سرجٌ مرتفعٌ فسيحٌ تجلس عليه المرأة مستقيمة الظهر ويصحبها خادم من كل جهة. أحيانًا ما تظهر مسيرة كبيرة من النساء جميعهن يلحقهن الخدم وتمر المَطيَّة خلف الأخرى؛ أي حرملك كامل يتحرك في شوارع القاهرة؛ لذلك يفسح المارَّة من الطبقات كافةً الطريق لَهنَّ مُظهرين أعلى أمارات الاحترام. نساء الطبقة الدُّنيا يرتدين غطاء الوجه أسود اللون، وأعتقد أنه أكثر شيوعًا من الأبيض. أحيانًا ما يُزخرف الرداء بعملات ذهبية أو خرز، أو يُطرز جزء من قمَّته بخيوط الذهب يخفي عينًا ويترك الأخرى فقط واضحة للرائي.

عدد كبير من الأضِرَّاء يطوف في شوارع القاهرة وعدد أكبر نراه يضع ضمادة على عين واحدة، لكن نادرًا ما رأيت امرأة بين هذا الجمع من الرجال عليلة العين.

المَحالُّ، التي سبق وذكرتها، تشبه التجاويف الصغيرة، وأغلبها يفتقر للبضاعة، تتصدر المَحالُّ وجهة الطابق الأرضي من كل منزل في الشوارع الرئيسة، أما المنازل فتتكون - مع وجود استثناءات بسيطة - من طابقين أو ثلاثة طوابق. تبرز وجهات المنازل، من الطابق الأول، قدمين تقريبًا، والمشربيات تبرز بمسافة أكبر مما يضفي لمسة شاحبة كئيبة على الطريق ولكن يمنحه أيضًا ظلًّا وهواءً منعشًا. على جانبَي الشارع الرئيس تتفرع شوارع جانبية وحارات.

الدرب، أو الشارع الجانبي، يختلف عن الشارع في عدة أمور، منها ضيقه وقصره. يبلغ عرض الدرب في أغلب الأحيان نحو ستة إلى ثمانية أقدام، وهو يربط بين طريقين، عند كل طرف من الدرب تقع بوابة خشبية هائلة تُغلق بحلول الليل. بعض الدروب تضم المنازل فقط، وبعضها الآخر يضم المنازل والحوانيت.

الحارة، منطقة محددة تضم عدة شوارع وحارات. عادةً تضم الحارة المنازل الخاصة ولها مدخل واحد يحرسه بوابة خشبية كبيرة تُغلق، مثل بوابة الدرب، في المساء.

الأسواق، هي شوارع قصيرة، أو عدة شوارع قصيرة، تقع الحوانيت على جانبيها. بعض الأسواق تضم حوانيت تعرض البضاعة ذاتها. العديد من الأسواق مُغطَّاة بسجَّاد مُلقى بين طرفَيْ أسطح الحوانيت يشبه تلك الأسواق التي رأيتها في الإسكندرية، وبعضها الآخر له أسقف خشبية. أغلب الشوارع الرئيسة، والشوارع الجانبية، يشغرها الأسواق كُليًّا أو جزئيًّا.

Shop.

محلّ

العديد من خانات القاهرة شبيه للأسواق التي وصفتها، ولكن الاختلاف الوحيد أن الخانات عادة ما تضمُّ محالَّ وحوانيت تلتف حول ميدان أو ساحة مستطيلة.

من الجدير بالذكر هو خان الخليلي الذي يقع في منتصف الجزء الذي يمثل المدينة القديمة، يقع على مقربة من شرق الشارع الرئيس ويحتلُّ موقعًا يطلُّ على مقابر الفاطمي (خلفاء مصر)(40)، ويُعد خان الخليلي واحدًا من مراكز التسوق الرئيسة في القاهرة. يضم خان الخليلي سلسلة من الحارات الكثيرة التي تنعطف من حارةٍ إلى أخرى، وله أربعة مداخل تحدُّ أحياء مختلفة. يملك الأتراك أغلب الحوانيت في الخان ويتاجرون في الملابس الجاهزة وأنماط الثياب الأخرى، إلى جانب الأسلحة مختلفة الأنواع، والسجاجيد الصغيرة التي يستخدمها المسلمون للصلاة، وسلع أخرى. تُعقد المزادات العامة (مثل أغلب أسواق القاهرة) مرتين في الأسبوع، يومَي الإثنين والخميس، وبسببها يزدحم الخان لدرجة يصعب المرور دون تدافع في بعض أجزائه. تبدأ التخفيضات في ساعة مبكرة من الصباح وتستمر حتى صلاة الظهر. يسير السماسرة جيئةً وذهابًا في الخان حاملين الملابس (المستعملة والجديدة)، الشالات، الأسلحة، الغليون، والعديد من البضائع عارضينها بأسعار مخفضة. يحضر السُّقاة حاملين جرارًا من جلد الماعز مملوءة من مياه النيل، وكوبًا نُحاسيًّا لمن يرغب في استخدامه للشرب؛ للاستفادة من هذه المناسبات. شربات الزبيب والخبز (الدائري المسطح) وعدة أطعمة أخرى تحلُّ ضيفًا على السوق في أيام المزادات، إلى جوار المخابيل وعدد كبير من الشحاذين.

من الخانات الرئيسة الأخرى في القاهرة خان الحمزاوي، وهو السوق الرئيس لبائعي الأقمشة والحرير.

تضم القاهرة عدة خانات مميزة غير السابق ذكرها، إلى جانب مبانٍ بديعة البناء. هناك عدة مبانٍ تُسمَّى «وكالات» وتشبه في وصفها الخانات، لكن الوكالة غالبًا ما تضم عدة محالّ تحيط ميدان.

«وكالة الجلَّابة» (أو وكالة تجار الرقيق) تقع بالقرب من خان الخليلي وتفردت لفترة بكونها سوق الرقيق الأسود. تحيط الوكالةَ باحةٌ دائريةٌ فسيحةٌ حيث يقف جماعات من العبيد والإماء يغطيهم الشحم (كما يفضلون)، شبه عُرَاة، ماعدا في فصل الشتاء حيث يرتدون ثيابًا أكثر ملاءمة للطقس ويبقون داخل أبواب الوكالة. هناك شارع يقطع هذه الوكالة مما يسمح للمارَّة معاينة العبيد. انتقل سوق الرقيق الأسود الآن إلى وكالة قايتباي التي تقع في مدينة الموتى وتضم عدة منازل للأحياء، تقع مدينة الموتى بين العاصمة والجبل المجاور. اُضطر تُجار الرقيق إلى نقل أسراهم إلى هذه البقعة (مقابر المدينة) في الصحراء، بعدما نسبت الحكومة إليهم سبب ظهور وتفشِّي الأوبئة في القاهرة. لم أذهب إلى سوق الرقيق، ولا أملك النية للقيام بهذه الزيارة؛ لأن، على الرغم من تقديم العبيد في الأسواق المشرقية في أبهى حُلَّة، ما زلت لا أعرف المشاعر التي قد تعتريني حين أواجه حالة من العجز كتلك.

لكن أخبرت أن العبيد سعداء ولا يهتمون كثيرًا لحالهم الحالي، فقد وَلّت معاناتهم الأقصى في الماضي، وهم الآن كعبيد للمسلمين أفضل مكانةً من الخدم الأحرار. لا يُعرض الرقيق الأكثر قيمةً (كالإماء البيضاء واللاتي خُصص لهن وكالة أخرى) إلا لمن يُبدي رغبة صادقة في شرائهن.

بعدما وصفت لك شوارع وأسواق القاهرة، دعني أذكر لك أحياء بعينها. هناك بعض الأحياء لا يسكنها إلا أصحاب الديانة أو القومية نفسها. العديد من الأحياء لا يسكنها سوى المسلمين(41) .

حي اليهود (حارة اليهود) يقع في الجهة الغربية من المنطقة التي تمثل المدينة القديمة. تُعد حارة اليهود من الحارات الممتدة على مساحة كبيرة لكنها منغلقة وقذرة. بعض شوارعها (أو بالأحرى حاراتها) ضيق للغاية لدرجة بالكاد تسمح بمرور اثنين في الآن ذاته، وفي بعض أجزاء الحي ترتفع القُمامة عن عتبات أبواب المنازل قدمًا أو أكثر.

هناك حيان لليونانيين، أما القبط فلهم عدة أحياء بعضها فسيح جدًّا. الفرنجة لا يسكنون ما يُسمَّى حي الفرنجة (أو حارة الإفرنج) فقط، بل يتفرقوا في عدة أحياء أخرى تقع بين القناة (التي تقطع المدينة) والأزبكية التي يسرني أن أحدثك عنها. تنافر جذور السكان في الأحياء التي يسكنها بعض الفرنجة توحي بمظهر الأحياء المُطلَّة على موانئ البحر، مثل الأحياء في الإسكندرية. يحتفظ بعض الفرنجة بزيِّهم القومي بينما البعض الآخر يرتدي الزي التركي كاملًا أو بعض أجزائه. الشارع الرئيس الذي يمرُّ بهذا الجزء من المدينة هو سوق يُسمَّى سوق الموسكي، حيث تقع عدة محالّ مجهزة على الطراز الأوروبي يملكها الفرنجة ولها واجهات زجاجية، عادة ما تُباع البضائع الأوروبية في هذه المحال. أما حارة الإفرنج فهي شارع قصير يفضي إلى الموسكي من جهة الجنوب.

هناك مساحات فارغة عديدة داخل العاصمة، بعضها في موسم الفيضان (الخريف) يتحول إلى بحيرات. دعني أذكر لك الأهم منها.

الميدان الفسيح الذي يحمل اسم الأزبكية هو مساحة غير منتظمة الأبعاد، يبلغ أطول أبعادها نصف ميل تقريبًا، وأقصى عرض لها يصل إلى ثلاثة أرباع الميل. هذا الميدان يمثل ملجأً مميزًا لي خاصةً أن أولادي يكونون بمعزل عن المخاطر التي أعرِّضهم لها في الشوارع المزدحمة.

في الجنوب يقع ميدانان على الطراز التركي الحديث تحفُّهما الحدائق. في الغرب يقع حائط أصمّ (جزء من سور العاصمة)، وميدان آخر على الطراز التركي، يطلُّ على قصر الألفي بيه، المملوك الشهير، والذي أضحى مقرَّ نابليون أثناء وجوده في مصر واستقر كليبر في منزل صغير ملحق بحديقة القصر. في جهة الشمال يقع حي المسيحيين يضم عدة منازل رفيعة ولكن مُهملَة. خلال موسم الفيضان يمرُّ النيل عبر هذه المنطقة متدفقًا في

قناة صغيرة، ويُغمر جزء من الحي ثم لا تنحسر المياه إلا بعد مرور ثلاثة أو أربعة أشهر من الفيضان. خلال مواسم الفيضان كانت المنطقة بأكملها تتحول إلى بحيرة كبيرة، لكن الآن أصبحت أشبه بحديقة تحفُّها الأشجار وتجري فيها المياه. أُخبرت إن المكان يرفل في حُلَّة بهية حين يُكسى تمامًا بالخضرة عِوَضًا عن تحوله إلى بحيرة كبيرة، وهذا ما أتخيله في ذهني لأن البحيرة لها مظهرًا عكرًا.

بركة الفيل (أو بحيرة الفيل) تتزود بالمياه من نهر النيل خلال موسم الفيضان. لكن جزءًا صغيرًا متاحٌ لزيارة العامة.

تقع بحيرتان صغيرتان من حيث المساحة في الجهة الغربية من العاصمة، وعدة بحيرات أصغر في أنحاء المدينة. أما في الجانب الشرقي فتقع العديد من المقابر(42)، وعدة حدائق كبيرة. تتكون هذه الحدائق من أشجار النخيل والسَّنْط والجُمَّيز والبرتقال والليمون والرمان... إلخ، ويظهر من مظهرها مدى الاعتناء بهذه الحدائق. هناك أكثر من سقَّا مُكلَّف بريِّها من الأبيار.

القناة (43) (الخليج) التي تشق العاصمة لا تمثل مَعلمًا مهمًّا للمدينة. على ضفتَي القناة تقع المنازل (أو بالأحرى الجهة الخلفية للمنازل)؛ لذلك من غير اليسير رؤية القناة إلا في بعض المواضع. أما الجسور التي تقع فوق القناة فتزدان بالمحالِّ على جانبيها؛ مما لا يمنح فسحة للسائرين مشاهدة المياه الجارية. تصل مياه النيل إلى القناة في أغسطس ثم يُغلق مدخل القناة بسد ترابي بعد وقت وجيز من انحسار النهر؛ أي بعد ثلاثة أو أربعة أشهر، وتتحول القناة لبركة راكدة. أثناء فتح السد تدلف إليها القوارب من النيل وتشق الطريق بطول العاصمة.

المساجد هي أكثر المباني العامة في مصر إثارةً للانتباه، وقد وصفت لك أشهرها. المساجد لها مناظر خلابة، ولمآذنها أشكال رائعة وأنيقة. لكن جمال هذه المآذن وأجزاء المسجد الأخرى، من وجهة نظري، يلطخه انتشار الأصباغ البيضاء وأكسيد الرصاص على الجزء السفلي من المساجد. الجزء الأكبر من المساجد الكبرى يتكون من باحة مستطيلة يحيطها رُواقات مختلفة تتشابه أعمدتها، وذلك لأن الأعمدة هي غنائم المعابد القديمة المصنوعة من الرخام الفاخر، والتي استخدمها المعماريون في تصميم الأرصفة والجزء السفلي من جدران معظم المساجد.

للقباب أشكال بديعة وبعض القباب مزينة بزخارف بهية. من الجدير بالذكر أيضًا أن المنابر أنيقة مُعقَّدة البنيان. يوضع المنبر مستندًا إلى جدار عكس اتجاه القبلة ويغطيه قبة صغيرة، تقود درجاته المستقيمة إلى منصَّة صغيرة في نهاية الدرجات يقف عليها الواعظ. أما الحضور فيجلسون في صفوف متوازية على الأرض المفروشة بالسجَّاد وينظرون

جميعهم جهة القبلة. هذا الوصف المقتضب قد يمنحك صورةً أفضل لفهم المساجد أو ربما يزودك ببعض القصور في فهمها.

بلا شك العديد من تلك المساجد تُعد معالم للتقوى الصادقة، لكن عددًا لا بأس به بُنيَ لتمجيد مؤسسه. مررت بجوار أحدها، مسجد أنيق البنيان، وعلمت عنه تلك الحكاية الطريفة المدهشة التي أقصُّها لك الآن: دعا مُؤسِّسه، بمناسبة افتتاح مسجده للصلاة للمرة الأولى والتي وافقت شعائر صلاة الجمعة، كِبار العلماء لحضور هذا المحفل، وقد أجزل كل عالم المباركات والتهاني له قبل تجمع الصلاة، فألقوا بعض الأحاديث النبوية، والأقوال المأثورة، عدا عالم واحد لزم الصمت. ولهذا العالم توجَّه المؤسس بسؤال: أليس لديك ما تقوله ليليق بهذه المناسبة؟ بدا أن الرجل جاهز لهذا السؤال فجاوب على الفور: «بلى. لديَّ ما أقول. لو كان هذا المسجد قد بُني من حُرِّ مالك الذي اكتسبته بطرق شرعية، وكان لك فيه مآرب حسنة، فاعلم أن الله قد أعد لك قصرًا في الجنة ولك حياة هنيئة. لكن إذا بنيت هذا المعبد من أموال ثروة اكتسبتها بطرق غير شرعية، ونقود فرضتَ على الفقراء والمساكين دفعها قسرًا وعدوانًا، فاعلم أن مكانك في الجحيم مُعدٌّ وسيصحبك إليه الشيطان ذاته.» والحقيقة أن المسجد بُني من أموال مشبوهة؛ لذا، وبعد ساعات قليلة من حديث هذا العالم، الوحيد الذي تجرأ بين جماعة العلماء على التفوُّه بكلمة الحق في هذا اللقاء المشهود - الأمر الذي يحتاج بلا شك لكثير من الشجاعة - مات العالِم، قُتل، شاع أنه راح ضحية السُّمّ.

(39) ملحوظة صوفيا لين بول: العمامة الحمراء التي تربط إليها قطعة قماش بيضاء.

(40) ملحوظة صوفيا لين بول: نُثرت عظام الخلفاء الفاطميين على تلال من القمامة تقع خارج المدينة.

(41) ملحوظة صوفيا لين بول: يبلغ عدد سكان القاهرة من المسلمين نحو ثلاثة أرباع التعداد الإجمالي لسكان العاصمة.

(42) ملحوظة صوفيا لين بول: المقابر الأساسية تقع خارج المدينة.

(43) ملحوظة صوفيا لين بول: هذه القناة هي نهر ترايان القديم. (ملحوظة المترجمة: نهر ترايان هو قناة مائية كانت تربط مدينة بابليون المصرية بميناء كليسما على البحر الأحمر).

الرسالة الحادية عشرة

القاهرة، نوفمبر، ١٨٤٢.
صديقي العزيز.

كنت متحمسة جدًّا لمشاهدة المساجد من الداخل؛ لذا تعرضت لإحباطٍ كبيرٍ حين علمت بمدى صعوبة حصول أي مسيحي على فرصة الولوج إلى داخل المسجد. ربما استطاع أخي أن يصحبنا إلى داخل المسجد لأنه غالبًا ما يعتبره الناس من الأتراك، بدا الأمر يخلو من المخاطرة، ولكن لو فعل ذلك ربما تحدث إلينا البعض باللغة التركية التي لا نفقهها، أما لو اعتبرَنَا الناس من سكان القاهرة فلم يكن من المُرجَّح أن تتحدث لنا أي امرأة تركية، وإذا تحدثت إلينا سيدة من العرب، ستوحي لغتنا العربية الركيكة أننا من الأتراك. في النهاية اقترح صديق قديم لأخي أن يصحبني معه إذا وافقت على مرافقته في شوارع القاهرة وزيارة مساجدها، بصفتي السيدة الأولى في الحرملك الخاص به.

بيدَ أنني أخرق الآداب العامة لموافقتي أن أحلَّ محل زوجته (الوحيدة)، ولكن حين تأكدت أنه لن يوافق على اصطحابي تحت مسمى آخر، ولَمَّا كنت عازمة على إشباع شغفي الهائل، وافقت على الانصياع لترتيباته، وزادني تشجيعًا ما أظهرته زوجته من احترامٍ جَمٍّ وترحيبٍ بالمشاركة في تحقيق رغبتي تلك. لم أقابل مرشدي العَطُوف المُسنّ سوى مرة واحدة ثم بعضها من خلف ستائر الحرملك، حين هلَّ الصباح جاء ليصحبني أنا وزوجة أخي في رحلتنا. ركبنا حمارين وامتثلنا لإرشادات الصديق. كان يتصدر مسيرتنا، وأنا التالية ثم زوجة أخي وفي المؤخرة جاءت زوجته. ألححنا عليه أن تسير خلف زوجها مباشرة لكنها قابلت إلحاحنا بالرفض، فاستسلمنا لرفضها مُعلِّلين الأمر أنها أكثر إحاطةً عنا بالعادات المشرقية، وأنه من الآمن والأفضل عدم معارضتها. ومن جانبي كنت مؤمنة أننا لو ظهرنا في أي مظهرٍ «غير شرقي»، أو بدا مظهرنا لا يوحي بأننا «مسلمون» سنعرض مخططنا لاحتمالية الانكشاف، وحينها لن ندلف إلى المسجد وسنتلقى جميعًا التقريع والتوبيخ.

بأعصاب مشدودة (أعترف) توقفنا عند أحد مداخل مسجد الحسنين، الأكثر تبجيلًا في القاهرة، ازدحم المكان بالنساء اللائي يؤدين زيارتهن الأسبوعية لمقام الحسين.

شعرت برهبة قبل أن أدلف أكثر المساجد قدسية، وفكرت أنني تماديت كثيرًا. تبعت خطوات سيدي (في الوقت الحالي) بخطواتٍ وديعةٍ تفوق خطوات أكثر الزوجات خنوعًا. على أيَّة حال، قد اكتسبت بعض الثقة حين لاحظت سطوته الواضحة حين خطا أول خطواته داخل المسجد، بلا شك قد أدى دوره على أكمل وجه.

عند عتبة الصحن يخلع الجميع أحذيتهم، أو نعالهم، تسير النساء إلى داخل الصحن بالجوارب المغربية الصفراء التي سبق ووصفتها لك، وهنا يجب أن أشير إلى الاهتمام البالغ بنظافة المكان، بالكاد يتسخ الجورب الأصفر رغم التسكُّع طيلة اليوم على حصير الصحن المقدس. يحمل الرجال أحذيتهم، متعاكسين، أثناء تحركهم في المسجد؛ وكذلك بعض النساء، لكن نحن، مثل العديد، فضَّلنا أن نترك أحذيتنا مع الخدم لأن الزِّيَّ الذي ارتديناه كان مربكًا بما يكفي، ويحتاج لكثير من العناية؛ لدرجة أن كلتا اليدين بالكاد سمحتا لنا بالحفاظ على شكله المرتب.

مسجد الحسنين(44)، الذي على مقربة من الجامع الأزهر من جهة الشمال، تم تأسيسه في العام ٥٤٩ من الهجرة (١١٥٤ - ١١٥٥ ميلادية)، ولكن تم إعادة بنائه أكثر من مرة. المبنى الحالي تم بناؤه منذ قرابة سبعين عامًا. الجزء الأمامي من المسجد يضم باحة أنيقة، أو صحنًا، وسقفه مدعم بعدة أعمدة من الرخام، بينما الأرضية مغطاة بالسجَّاد. عبرت هذا الصحن إلى مكان مقدس يُقال أن أسفله دُفن رأس الشهيد الحسين على عمق كبير من الأرض. المكان عبارة عن صالة مربعة أنيقة يعتليها قبَّة. تحت القبة، في البقعة التي دُفن تحتها البقايا المقدسة، هناك نُصْب مستطيل مُغطى بالحرير الأخضر ومُوشّى بنقوش تحفُّ أطرافه. هذا الغطاء الأخضر يغطي جزءًا من قمته قطعةٌ من القماش البُرُنْزي موشى بكتابات مختلفة تثير الدهشة والإعجاب. كان المشهد ككل مُلهمًا. الأرضيات رائعة المظهر بعضها من الرخام الخالص، تشع وتلمع علامةً على نظافتها، وبعضها مرصع بالأحجار، منظر غاية في البهاء لدرجة دفعتني للاعتقاد أن زيارة أي غريب لمقام الحسين بمفرده، ستجعله لا يصدق قطَّ أن الإسلام يضمحلَّ.

كل الزوار الذين شاهدتهم كانوا يطوفون حول القبر عكس عقارب الساعة، يلمسون جوانب الضريح بيُمناهم ويضعونها على شفاههم وجباههم بينما يتلون، بصوت خفيض، الفاتحة (الفصل الأول من القرآن)، وهذه العادة شاهدتها في عدة مقامات أخرى. بدا الورع على العديد من الزائرين، وانكبَّت امرأة على تقبيل الضريح بتفانٍ يثير الانتباه وأشعرني بغُصَّة عجيبة؛ ذلك لأنني لا أستطيع التفكير في ضريح الحسين دون أن أتذكر، وأتأثر بحق، بالتاريخ المثير للشفقة لهذا الرجل المحبوب، والذي اتسمت طبائعه بأقصى درجات الفضيلة المسيحية.

قادتنا أقدامنا تاليًا إلى الجامع الأزهر (أو المسجد اللامع(45)) والذي يقع، كما سبق ووضحت، على مقربة من جنوب جامع الحسنين، في منتصف الطريق بين الشارع الرئيس للمدينة وبوابة تُسمَّى باب الغوري. الجامع الأزهر هو الجامع الأول في القاهرة، وجامعة الشرق، وهو، بالنظر لفترة بنائه، أول جامع يُبنى في المدينة، ولكنه خضع لعمليات ترميم عديدة، وتم توسعة صحنه أكثر من مرة؛ لدرجة تجعل من العسير على المؤرخين تأكيد ما تبقى من بنيانه الأصلي في الوقت الحاضر. بُني الجامع الأزهر بعد نحو تسعة أشهر من بناء أول أسوار المدينة، في العام ٣٥٩ من الهجرة (٩٦٩ - ٩٧٠ ميلادية). على الرغم من أن

مساحة الجامع تبلغ ثلاثمائة قدم مربع فإن مساحة صغيرة من وجهته هي التي تظهر للناظرين بسبب المنازل المحيطة؛ لذا لا نرى سوى مداخله ومآذنه فقط أثناء سيرنا في الشوارع. للجامع بوابتان رئيستان، وأربعة مداخل فرعية. البوابتان تتكونان من بابين، تفضي إحداهما إلى واجهة المسجد والأخرى إلى مُؤخَّرته. يخلع الجميع نعاله قبل أن يدلف من عتبة البوابة، على الرغم من أنه يقطع مسافة كبيرة في صحن المسجد قبل أن يصل لمكان الصلاة. هذه العادة رأيتها في كل مسجد. البوابة الأقرب لشارع المدينة الرئيسة هي البوابة الرئيسة التي تقع في منتصف سور الجامع الأمامي. فور ما تدلف من هذه البوابة هناك مسجدان صغيرا الحجم على كل جهة. يفضي الطريق بين المسجدين إلى باحة الأزهر الكبرى المُعبَّدة بالأحجار وتحيطها الأروقة. الرواق الرئيس يقع على الجهة المقابلة للبوابة، أما الثلاثة الأخرى فتنقسم لعدة أروقة صغيرة أو غرف لإقامة العديد من الطلاب الوافدين لهذه الجامعة الشهيرة من أقطار نائية في أفريقيا وآسيا وأوروبا، وحتى من أنحاء مصر المختلفة.

يزود الجامع هؤلاء المُعْوَزين بالنقود الكافية لسد حاجتهم، كما يتلقى كل طالب حصة من الحسَاء والخبز عند الظهيرة وفي المساء. كما يتلقى العديد من فاقدي البصر الفقراء الدعم المادي من الأزهر، وقد تأثرنا لرؤية أناس أحنى ظهورهم الزمن يتحركون بتؤدة بين أروقة المكان، عارفين بفضل التكرار كل عطفة وكل دهليز كما لو كانوا بطاركة المكان. يفصل الأروقة عن الباحة، وعن بعضها البعض، لوح من الخشب يمتد بين كل عمودٍ والآخر. الأروقة التي تقع عند المدخل الرئيس صغيرة المساحة وذلك لأن المسافات بين كل عمود والآخر ضئيلة التباعد، أما الأروقة الواقعة على جهة اليمين واليسار فهي أقرب للباحات الفسيحة تضم عدة أعمدة وصفوف. هناك أيضًا بعض الأروقة في الطابق العلوي. ويُخصص كل رُواق لسكان قُطر بعينه، أو منطقة معينة في مصر، مما لا شك فيه أن طلاب العلم الوافدين من مصر أضعاف طلاب العلم الوافدين من أي أمة أخرى.

بعدما مررنا بعدة أروقة كانت لمحافظات مختلفة من مصر، وصلنا إلى أروقة أهل مكة والمدينة، ثم أروقة السوريين، وتلاها مباشرة أروقة مسلمي وسط أفريقيا، وبعدها المغاربة (أو سكان شمال أفريقيا التي تقع غرب مصر)، ثم لاقينا الأوروبيين وأتراك الأناضول، وفي الختام تقابلنا مع الفُرس ومسلمي الهند. لا أبالغ إذا وصفت جولتنا برحلة حول العديد من الدول. لم يجذبني أي مَعْلَم في القاهرة بقدر ما جذبني الجامع الأزهر وداخله تحديدًا، وأشعر بالفخر حين أتذكر العقبات العسيرة التي يواجهها المسيحي؛ وخاصة المرأة المسيحية، حين يشاء اقتناص فرصة الولوج إلى هذا الجامع الشهير، فخرًا نابعًا من فرصتي التي اقتنصتها واستمتاعي بحرية التجول عبر أروقته العديدة، ومشاهدة طلابه الوافدين من بقاع الدنيا كافةً في غير تجانس، ليجلسوا متجانسين للاستماع لمحاضرات أساتذتهم.

تقع إلى يسار الباحة الرئيسة، باحة أصغر تضم خزانًا هائلًا يستخدم للوضوء، وهو الشرط الأول للصلاة ودونه لا يمكن للرجل أن يدلف إلى المسجد. الرُّواق الكبير يغلقه عدة ألواح خشبية قائمة بين الصفوف من الدعائم المربعة. القسم الواقع في منتصف القنطرة له باب عريض، بينما أبواب الأقسام الأخرى أصغر حجمًا. الرواق الرئيس يمتاز بمساحة شاسعة ويضم ثمانية صفوف من الأعمدة الرخامية صغيرة الحجم، مصفوفة بالتوازي مع الجهة الأمامية من الرواق. هنا قسم أضيف بعد الصف الخامس من الأعمدة وقد بناه من بنى إحدى البوابات الكبرى منذ قرابة سبعين عامًا. الجدران مدهونة باللون الأبيض، أما المنبر وفجوات الجدار المُوشَّاة بالزخارف فاتسمت بشحوب واضح. شاعت البساطة في أنحاء الرواق الرئيس، ومُهدت الأرض بالكِليم، وعدة سجاجيد صغيرة.

يصحب الأثرياء والرجال أصحاب المكانة الرفيعة خادم يحمل «سَجَّادة» (وهي سجادة صغيرة للصلاة، يبلغ حجمها تقريبًا نفس حجم بساط الموقد)، ويُصلي الرجل عليها. يزداد عدد المُصلِّين يوم الجمعة عند صلاة الظهر ويستوون في صفوف موازية فوق السجاد الممهد.

رأينا مشاهد أخرى تدور في الرواق الرئيس للجامع الأزهر، مثل التفاف العديد من الطلاب حول الأساتذة المحاضرين فيما يشبه دوائر علم، ينصتون بتركيز أو يقرءون آيات من القرآن. عادة ما يستند الأساتذة إلى أحد الأعمدة، وما فهمته أن كل أستاذ له عمودُه الخاص حيث يحضر إليه الطلاب كما جرت العادة ويجلسون فيما يشبه دائرة على الأرض المغطاة بالسجاد. يتناول البعض وجباته في الأزهر، كما يقضي الفقراء المشردون ليلهم داخل الصحن؛ لأن هذا الجامع تحديدًا لا يغلق أبوابه آناء الليل وأطراف النهار. بعض العادات لا تتناغم مع قدسية هذا المكان ولكنها تشير بوضوح إلى بساطة العادات المشرقية.

بعد زيارة الأزهر ذهبنا لزيارة مسجد محمد بيه الأنيق، والذي تأسس في العام ١١٨٧ من الهجرة (١٧٧٣ - ١٧٧٤ ميلادية) بجوار الجامع الأزهر. يتميز البناء بطرازه القديم الذي يتنافى مع فترة بنائه.

أما الجامع العظيم الذي أسَّسه الخليفة الغاشم الدجَّال «الحاكم» (الذي ادَّعى النبوة ثم فيما بعد ادعى أنه تجسيد الله) فيجذب الانتباه بسبب اسمه المنسوب للحاكم بأمر الله، وطرازه العتيق. يقع مسجد الحاكم بأمر الله قرب السور الشمالي للمدينة الذي يربط باب النصر وباب الفتوح. اكتمل بناء هذا المسجد في عهد الحاكم في العام ٤٠٣ هجرية (١٠١٢ - ١٠١٣ ميلادية)، ولكنه أُسِّس أثناء حكم الخليفة السابق للحاكم بأمر الله. حالة المسجد الآن رَثَّة ولم يعُد مفتوحًا للصلاة. يقع المسجد على مساحة أربعمائة قدم مربع ويتكون من رواقين مُغطَّيين يحيطان ساحة مربعة.

(44) ملحوظة صوفيا لين بول: المقصود بالحسنين: الحسن والحسين أحفاد الرسول.

(45) ملحوظة صوفيا لين بول: أخطأ العديد من الرحَّالة في ترجمة اسم هذا الجامع، ولقَّبوه بجامع الأزهار.

الرسالة الثانية عشرة

نوفمبر، ١٨٤٢.
صديقي العزيز،

دعني أُكمل من حيث انتهيت في الرسالة الماضية. تتصدر مجموعة من أفضل مساجد القاهرة واجهات الشارع الرئيس في المدينة. حين تتجول من الجنوب إلى الشمال سيجذب انتباهك أول الأمر «البُرْقوقيَّة» الذي يقع إلى جهة اليمين.

«البرقوقية» هو مسجد جامع تم تأسيسه في العام ٧٨٦ هجرية (١٣٨٤ - ١٣٨٥ ميلاديًّا). يتميز بقبَّته البديعة ومئذنته المرتفعة الأنيقة، أما المسجد من الداخل فيتميز بمظهر بديع رغم أنه متروك لحالةِ تداعٍ يُرثى لها.

بعد البرقوقية بعدة خطوات، على نفس الجهة من الشعار، يقع قبر ومسجد ومستشفى السلطان قلاوون، جميعها في مبنى موحد. المسجد والقبر هما الجزء الأمامي من المبنى، ويقع القبر إلى يمين المسجد، بينما يربط ممر، وهو جزء من المدخل الرئيس، بينهما وبين المستشفى (المارستان(46)). تم بناء المباني الثلاثة عام ٦٨٣ من الهجرة (١٢٨٤ - ١٢٨٥ ميلادية). هناك مئذنة هائل الحجم تقع فوق القبر تجعل منه صرحًا نبيلًا، واجهتها موشاة بمربعات دُهنت باللونين: الأحمر والأبيض. أما داخل المقبرة فبديع الزخارف. على عكس القبر، لا أرى ما يميز المسجد. المستشفى تضم ساحتين مستطيلتين صغيرتي المساحة، يحيطهما عنابر صغيرة داخلها يقبع المجانين مقيدين بالسلاسل، ساحة مخصصة للرجال والأخرى للنساء. رغم أن هؤلاء المخلوقات المسكينة توفر لهم المؤسسة الطعام اللازم فإن العادة جرت إلى إحضار الطعام لهم، وهم غالبًا ما يطلبون الطعام بطريقة تثير العاطفة. لكن هنا يجب أن أذكر ملاحظة استشارية: هؤلاء المساكين لديهم من الأكل ما يكفيهم ويفيض، فلم أشعر أن هناك جائعًا بحق، وقد رأيت بعض الرجال يلقون بقطعة الخبز الممنوح لهم.

بالنظر لحرصي الشديد على تحديد حالة هؤلاء المجانين وفهمها عين اليقين، أعتقد أنني غير قادرة على وصف وضعهم لك وصفًا وافيًا. صُمَّت آذاننا بسبب الصرخات العصبية الحادة التي تصاعدت فور أن دلفنا إلى الممر المُفضِي للعنابر. اتجهنا في البداية للقسم الخاص بالرجال يتبعنا الخدم حاملين ما ابتعناه لهذه الزيارة. يعجُّ القسم بعنابر صغيرة منفصلة، داخل كل عنبر شُباك صغير مربوط إليه طرف سلسلة حديدية وطرفها الآخر في قدم السجين. بيدَ أن المكان يعرض أدق أوصاف الجنون. العديد من الزنازين حَوَت مجانين كئيبي المظهر، لكني في زنزانة واحدة صادفت رجلًا مخبولًا مرحًا أخذ يُسرِّي عن الزائرين بتعليقات منطلقة مرحة. الجميع تقريبًا يفردون ملء ذراعهم من وراء القضبان سائلين قطعة خبز، وقد جذبتني نبرة أحدهم لِما بدا منها من حزن وكآبة واضحة. كان من الخطير

السير عبر الممرِّ في حضور تلك الأذرع الممدودة لأقصاها، في منتصف الساحة كان هناك سور يحدُّ مساحة مستطيلة، أعتقد أنها كانت خزان قديم لكنه الآن مملوء بالحجارة، وهذا السور الحديدي يحد المنطقة المخصصة للزوار. حين اقتربت واحدة من جماعتنا من حدود المجانين حذَّرها أحد المشرفين أن تعود للمنطقة الآمنة.

أثق أن اللطف والرُّقيّ الذي لاحظناه من حراس المارستان لم يكن وليد اللحظة؛ لأن المجانين لم يبدُ على أيٍّ منهم الخوف من الحراس. المجانين الذين وصلوا لأقصى درجات الهذيان طُوِّقت أعناقهم بالسلاسل الحديدية كما قُيدت أيديهم. واحد من تلك المخلوقات المسكينة لم يتوقف عن هز تلك القيود في محاولة لاستجداء الشفقة والانتباه. لم يبدُ على هؤلاء القوم أي تشابه بينهم وبين العقلاء، كما أسهمت طريقة حجزهم خلف هذه الأسوار وداخل الزنازين الجرداء البائسة في تحويل المشهد إلى حديقة حيوان. من المؤكد أن المناخ في هذه البلاد يُقلل من متطلبات كل طبقة في المجتمع، وعادةً ينام الفقراء على الأرض العارية، أو على كِليم رَثّ، لكن من الهجمية الفجَّة أن يُترك هؤلاء البائسون فاقدي الصواب على أرض عارية يستريحون إليها منهكين - بالطبع - بسبب فرط حركتهم.

أصابتني غُصَّة في القلب إثر مشاهدة هذه الوجوه البائسة، ثُم تم اقتيادي إلى قسم النساء حيث لم أتوقع أن ينتظرني مشهد أشد حزنًا. لَمَّا لم يكن من المسموح لأي رجل الولوج إلى هذا القسم، منح الخادم الذي يتبعنا ما في جعبته من أغراض إلى يد رئيسة الحراس. كانت النساء تجلس على عتبة أبواب الزنازين المفتوحة المحيطة بالساحة، ولم ألحظ أي مظهر لتقييدهن. تقلصت أثناء مروري بجوار أول زنزانتين خشية أن يهجم عليَّ إحداهن، لكن حين تأكدت من السلسلة المربوطة إلى أقدامهم أكملت طريقي أفحص الزنازين الواحدة تلو الأخرى. أول مَن لاحظت كانت سيدة مجنونة يبدو أيضًا أنها فاقدة للبصر مما جعلها مصدرًا للفت الانتباه؛ خاصة بسبب نظرة الحزن الدفينة التي ارتسمت على مُحيَّاها. بدت في حالة سكون لا يقطعها أي مؤثرات خارجية. في الزنزانة المقابلة لها تعالت صرخات هذيان أحد المجاذيب لكنها، ربما بحكم الاعتياد، أو لأنها غارقة في أحزانها الصادقة والمُتخيَّلة، بيد أن العجوز لم تسمع أيًّا من تلك الجلبة. في الزنزانة المجاورة، رأيت فتاة شابة تبلغ من العمر الستة عشر أو السبعة عشر ربيعًا، كانت الفتاة عارية من أي ثوب يسترها، جلست رابضة هادئة كالتماثيل، وفي غياهب زنزانتها بدت كحجر هائل. المريضة التالية كانت صغيرة هي الأخرى، لكنها أكبر سِنًّا من السابقة، بالكاد رفعت عينيها السوداء القاتمة ونظرت إليَّ من بين شعرها الأشعث، لم تكن نظرة شرسة، بل هادئة وفارغة. هي الأخرى كانت في حالة عُرْي كاملة. لم أكن مستعدة على الإطلاق لمشاهدة هذا القدر من البؤس، واندفعت بسرعة نحو المخرَج أمرُّ بين وجوه المجانين القذرة الشاحبة وقد بدا عليهم المسكنة والهذيان في آنٍ، حين سمعت صوتًا ينبس بنبرة كئيبة: «أرجوكِ أن تتمهلي أيتها السيدة، امنحيني ما ابتاع به التبغ.» ألتفت لأجد هذا الالتماس صادرًا من امرأة مُسنَّة مليحة، بدا عليها الامتنان الصادق حين أكدت لها أنني سأوفر لها ما تشاء. كانت ترتدي ثيابها وتجلس على حافة مدخل زنزانتها كما لو كانت في انتظار الهدايا. منحتها المسئولة

النقود التي آمرت بها، وتمنيت آن تحظى بفرصة لإنفاقها على ما تشاء. لم تكن تلك المرآة، وأول سيدة صادفتها في المستشفى، صورة مجسدة للبؤس على عكس أقرانهن. لو كان الجنون، أحد أشد المحن البشرية، يستدعي تعاطفنا، فحال تلك النساء الرَّثَّة في القاهرة تصرخ بصوت مرتفع تسأل أشد صور الرحمة. كيف يمكن تعديل وضعهن؟ لا أعرف. الحكومة وحدها التي تملك أمر الإصلاح، ولا يبدو أنها تفعل أي بادرة.

أخبرونا أن المؤسسة حظيت بحُريَّة ملحوظة. كانت، ولا تزال، مستشفى للمرضى، ومصحة تؤوي المجانين، وفي الأساس كان هدفها التسرية عن المضطربين، وقد اعتادت فرقة موسيقية وعدد من الحكَّائين تقديم فقرات متعددة بانتظام.

أخذ الصديق الذي اصطحبنا في قصِّ بعض الحَكايَا عن هؤلاء المساكين، وأبديت اهتمامًا كبيرًا للإنصات له. الأولى، كما أخبرني، تناقلتها الألسنة عن حكاية مسافر أوروبي كتبها في كتاب يصف فيه أحوال المصريين، لكن لأني لا أعرف مَن الأوروبي المقصود، وربما لم تسمع عنها أو تقرأها من قبل، سأقصها عليك هي والحكايا الأخرى.

تكونت عداوة بين جزَّار، حُجز لفترة في المارستان، وبين جندي تركي جاوره في الزنزانة. كان الجزار يتلقى حصته من الطعام التي تحملها له أسرته، وقد حثت زوجته ذات يوم أن تُخبئ بين طيَّات وجبة العشاء الأدوات التي يستخدمها في عمله: ساطورًا وسكينة وخطافين. هنا يجب أن أذكر أن المجانين غير الخطيرين يقيدون بسلاسل خفيفة الوزن، وهكذا كانت حالة الجزار بطل الحكاية. فور ما حصل على وجبته شرع يفك قيوده، ولأن الزنازين تتصل من الجهة الخلفية، فسرعان ما تمكن من الولوج إلى زنزانة مجاورة، وسرَّ جاره أن يراه حرًّا فسأله: «كيف تحررت من فك قيودك؟»، أجابه الجزار: «أنا. ها هي المعدات التي استخدمتها.» علَّق الآخر بسعادة: «رائع، لتطلق سراحي أيضًا.» شرع الجزار يطلق سراح زميله، وليس وحده، بل شرع يطلق سراح الثاني، والثالث، والرابع. الآن أقصُّ لك الجانب المأساوي من الحكاية. بينما غاب الحراس، هاجم الرجل الذي يملك الساطور التركي المسكين الأعزل وهو مقيد بالسلاسل، وذبحه، ثم، بعدما قطع جسده إربًا، أخذ يعلقه على الخطافات وعرضه من خلف نافذة الزنزانة، وهكذا مارس هوايته: الجِزارَة.

مرت دقائق زاد فيها هياج المجانين، ولَمَّا تنبه أحدهم، فتح باب الحراس عنوةً واتجه لأحدهم لينبهه بما حدث. هُرع الحارس إلى الزنزانة، ولَمَّا رأى جثة الرجل المقتول قال: «ما هذا! لقد نجحت في قتل هذا التركي؟ كان كابوس حياتي.»، قال الجزار المنتشي: «بلى، نجحت. وها هو ذا معلق للبيع.». «رائع»، أجاب الحارس ثم أردف: «لكن لا تتركه معلقًا هكذا، سيصيبنا بسوء الحظ، دعنا ندفنه.» سأل المجنون والساطور لا يزال في قبضته: «أين؟»، قال الحارس: «هنا في الزنزانة، وهكذا لن يُكتشف أبدًا أمر الجريمة.» سرعان ما اقتنع المجنون وألقى ساطوره ثم بدأ يحفر الأرض بكلتا يديه. سرعان ما التفَّ الحارس

حول الزنزانة ودلف من المدخل الخلفي، ليلقي بطوق حديدي حول عنق الرجل وينهي هذه المأساة.

بعد فترة من الزمن زار أخو الرجل الذي قصَّ هذه الحكاية المارستان، واقترب منه أحد المجانين ليُحيِّيه بالاسم، ثم رجاه بنبرة كئيبة أن ينجِّيَه من هذا المكان. حين تفحَّص الرجل رفيقه بعناية تذكر أنه صديق قديم، وشعر بعبء كبير إثر إلحاح المجنون بشأن ضرورة مساعدته ليحظى بحريته، فبدأ الزائر يفكر فيما عليه أن يفعله. أكَّد المجنون أنه في كامل قواه العقلية، وبعد برهة من الحديث قرر الزائر أن يتقدم بطلب لإطلاق سراح صديقه القديم. وعليه اتجه الرجل إلى مكتب المدير ليحدثه في هذا الأمر، مؤكدًا أن الحوار أدهشه وأفضى به إلى تقديم هذا الطلب. ما أكده المدير أن المجنون ربما أبدى أمارات العقل في هذه الفترة لكنه ربما يعود لهذيانه بعد برهة.

ألحَّ الزائر المتأثر بحديثه مع المجنون في طلبه خاصة وأن حُجة المدير لم تقنعه، وبعد حين وافق المدير قائلًا: «حسنًا، يمكنك أن تجرب حظك معه.» أخيرًا أُطلق سراح الرجل وغادر الصديقان معًا، ثم أخذا يتجاذبان أطراف الحديث أثناء تسكعهما في الشارع، وعلى حين غِرَّة، أحكم المجنون قبضته على حلق صديقه، وصرخ: «أيها المسلمون! ساعدوني! مجنون هارب من المارستان.» اضطر الصديق العاقل أن يلجأ للحكمة وقُيِّد طواعيةً إلى الزنزانة التي أطلق منها سراح صديقه المجنون، بينما الأخير نادى صائحًا فور أن دلف إلى المارستان؛ ليأتي له الحارس بطوق وسلسلة لتقييد هذا المجنون الذي عثر عليه يتسكَّع في الشارع بعدما هرب من المارستان. أحضر الحارس على الفور ما طُلب منه، وبينما تظاهر بتأدية ما يؤمر به، أحكم الحارس القيد على عنق المجنون الحقيقي، وأعاده إلى زنزانته القديمة. لا حاجة لذكر قدر رضاء مُخلِّصه بعودته إلى هذه الزنزانة.

حكاية أخرى قصَّها علينا مُرافقنا وقعت قبل عدة سنوات. هرب مجنون من زنزانته في المارستان، حين غادر الحراس أثناء الليل، استغلَّ المجنون الفرصة وصعد إلى مئذنة القبر الملحق بالمارستان، قبر السلطان قلاوون. هناك، كان المؤذن يرتل تواشيح الليل، وحين كان يلفظ بصوته الجهوري: «يا رب!» انقضَّ المجنون على عنقه. صرخ المؤذن المذعور قائلًا: «اسأل الله أن ينجيني من هذا الشيطان اللعين! الله أكبر!»، فقال المجنون: «لست شيطانًا، لا يمكنك أن تقهرني بقول الله أكبر.» (هنا يجب أن أذكر أن جملة الله أكبر يؤمن الناس أنها تهزم الشيطان). فقال المؤذن: «إذًا مَن أنت؟»، أجاب الآخر: «أنا مجنون، هربت من المارستان.» أضاف المؤذن: «أه! أهلًا بك. حفظك الله! تعالَ، اجلس، واسرد لي قصصك الممتعة.» وهكذا فعل المجنون وأردف: «يا حفيظ! لماذا تنادي بصوت مرتفع هكذا! ألَا تعي أن الله يسمعك حتى حين تتحدث بصوت خفيض؟»، فقال الآخر: «بلى، لكني أنادي ليسمعني الناس.»، أضاف المجنون: «غَنٌّ، هذا سيُسعدني!.» وهكذا شرع المؤذن يردد بعض الأهازيج؛ مما لفت انتباه الخدم الجالسين على أحد المقاهي القريبة من المسجد، ارتابوا في الأمر لذا هُرعوا إلى المئذنة، وألقوا القبض على المجنون.

بعدما خبَّرتك عن أوضاع تلك المخلوقات البائسة المحبوسة في المارستان، يسرني أن أضيف أن أحوالهم، كما أعتقد، ستتحسن كثيرًا في الأسابيع القليلة القادمة. لقد سمعت أنهم سيتم نقلهم إلى مستشفى آخر حيث يتم وضعهم تحت إشراف جرَّاح فرنسي شهير: كلوت بيه.

الآن أعود للحديث عن المساجد.

سِرْنا في نفس الاتجاه أي نحو الجنوب، ما زلنا نسير في الشارع الرئيس للمدينة، حين وصلنا إلى واحد من المساجد البديعة يُسمَّى «الأشرفية» ويقع على الجانب الأيمن من الطريق. بناه السلطان الأشرف برسباي بين عام ٨٢٥ و ٨٤١ هجرية (١٤٢١ وما يليها ميلادية). جرت العادة إلى تعليق رؤوس المجرمين على نوافذ هذا الجامع؛ وذلك لأن الشارع المقابل له دائمًا ما يزدحم بالمارَّة.

استمر المسير في الاتجاه ذاته وصولًا لمنطقة تُسمَّى «الغورية» (وهي بازار أو سوق كبير)، هناك رأينا مسجدين بديعين للسلطان الغوري يقعان على جهتَي الطريق في مواجهة أحدهما الآخر، ويمتد سقف خشبي بينهما. تم اكتمال بناء المسجدين في العام ٩٠٩ من الهجرة (١٥٠٣ - ١٥٠٤ ميلادية) المسجد الواقع جهة اليسار خصَّه الغوري ليكون قبره، ولكنه لم يُدفن فيه.

حين وصلنا إلى أقصى جنوب الشارع الرئيس، كان مسجد المَهِيب «السلطان المؤيد» يقع على جهة اليمين، تم تأسيس المسجد في العام ٨١٩ من الهجرة (١٤١٦ - ١٤١٧ ميلادية). يحيط المسجد ساحة مربعة فسيحة تضم رُفات السلطان وعدد من أفراد أسرته. أقصى يمين المدخل تقع قبة نبيلة ومدخل شرفة عالية. ترتفع مئذنتان هائلتان للمسجد فوق أبراج باب زويلة (البوابة الجنوبية لهذا القطاع من العاصمة والتي تأسست مع المدينة القديمة).

أما من أشهر مساجد ضواحي العاصمة وأكثرها رونقًا فهما مسجدا السلطان حسن وابن طولون، أو طِيلون كما ينطقه الكثيرون.

مسجد السلطان حسن يقع بالقرب من القلعة وهو واحد من أعلى صروح القاهرة، تم تأسيسه عام ٧٥٧ من الهجرة (١٣٥٦ ميلادية). يُعدُّ من أبهى المساجد إلا أن به من التناقضات ما يزعج الناظر، على سبيل المثال التفاوت الكبير في مظهر مئذنتيه. المئذنة الكبرى تبلغ نحو ثلاثمائة قدم من حيث الارتفاع عن الأرض. أقصى يمين الجهة الشمالية الشرقية من المسجد هناك مدخل مرتفع يفضي إلى ممرٍّ متعرِّج يقود إلى ساحة مربعة لا سقف لها، أشبه بالبهو، في منتصفها يقع خزان وبجواره عدة حنفيات لتُستخدم لغرض الوضوء، كل حنفية تُظلِّلها قبة. في الجهات الأربع من البهو هناك باحة لها قنطرة ومفتوحة على البهو. الباحة المواجهة لمدخل البهو هي الأكبر، وهي الباحة الرئيسة للعِبادة. تبلغ

مساحة عرض قنطرتها نحو سبعين قدمًا، وقد بُنيت من الطوب ولها مظهر آملس (مثل القنطرات الثلاث الأخرى)، من القنطرة تدلَّى العديد من المصابيح الزجاجية الصغيرة، ومشكاتين من البُرُنْز. الجزء السفلي من الجدار مُوشَى برخام ملون، بينما خلف البهو تقع صالة مربعة فوقها قبة هائلة وفي منتصف الصالة قبر مؤسس المسجد. يتميز المسجد في كثير من مواضعه بالزخارف الأنيقة الواضحة، لكن المبنى يحتاج، أو على الأقل عدة أجزاء منه، للترميم.

مسجد ابن طولون الكبير (أو، كما من الشائع تلقيبه، جامع طولون)، يقع في جنوب العاصمة، وهو بناء مثير للاهتمام. تم تأسيس المسجد في العام ٢٦٣ من الهجرة (٨٧٦ - ٨٧٧ ميلادية)، وكان الجامع الرئيس لمدينة القطائع، والقطائع أقدم من القاهرة بما يقرب القرن. تبلغ المساحة التي يشغلها المسجد نحو٤٠٠ قدمٍ مربع. بُني المسجد من الطوب المُغطى بالجِصّ، ويتكون من أروقة تحيط ساحة مربعة في منتصفها خزان للوضوء يقع أسفل مبنى من الحجر ويعلوه قبة كبيرة. أقواس المسجد تتسم بقمة مدببة، وهذا أمر واضح، ويؤكد حقيقةً مهمة، لقد بُني المسجد بين عامَيْ ٨٧٦ و ٨٧٧ من الميلاد، ولم يُرمم من قبل؛ لذا الحقيقة أن الأقواس المدببة المشرقية تسبق تلك الشهيرة في العمارة القوطية. وهذه الملحوظة استعرتها من ملاحظات أخي. في شمال غرب الساحة تقع مئذنة ضخمة لها دَرَج ملتف حول جدارها الخارجي، ويفضي إلى مدخل مقنطر. حالة هذا المسجد الكبير في تدهور يُرثى له، ولا يحاول المسئولون حتى أن يحافظوا على نظافته، سوى الاهتمام بنظافة السجَّاد المفروش. مسجد ابن طولون هو أقدم المباني العربية الباقية في مصر بعد مقياس النيل بالروضة (الذي سبق بناء المسجد باثني عشر عامًا) فمسجد عمرو، على الرغم من بنائه قبل قرنين من مسجد ابن طولون، فإنه تم إعادة بنائه أكثر من مرة.

في نفس الحي الذي يقع في المسجد المذكور هناك أطلال قلعة أو قصر، تُسمَّى قلعة الكبش، تحيط مساحة هائلة من أطلال الحجارة. تم بناء قلعة الكبش(47) في القرن السابع بعد الهجرة (أي القرن الثالث عشر من الميلاد). داخل أسوار القلعة تقع عدة مبانٍ حديثة (48).

مساجد السيدة زينب، والسيدة سُكَيْنة، والسيدة نفيسة (يقع الأول والثاني في جنوب العاصمة، بينما الثالث يقع في ضاحية جنوبية خارج أسوار العاصمة) هي من المساجد المعظمة لكن لا تتسم ببناء مميز (49). هناك الكثير من المساجد الأخرى في القاهرة التي تستحق الزيارة، ولكن ما ذكرتها لك هي المساجد الأكثر تميزًا.

أدهشني أنني زرت أكثر المساجد قُدْسيةً في القاهرة دون أن أثير أدنى شك في هُويَّتي الدينية. قبل عدة أيام مُنعت مجموعة من الرجال الإنجليز من دخول مسجد الحسنين، كان يصحبهم إنكشاري من رجال الباشا مما أثار حنقه الشديد ضد مسئولي المسجد. لم يقف الأمر عند هذا الحد بل إنهم ألقوا القبض عليه وأدخلوه إلى المسجد، ثم أغلقوا الأبواب

والنوافذ واحتجزوه بعيدًا عن جماعته. إلا أن الترجمان المرافق للإنجليز كان مسلمًا فحظي بفرصة الولوج إلى المسجد من باب خلفي وحرر السجين.

هناك مبانٍ عامة أخرى في القاهرة غير المساجد، والتي تثير الانتباه. من بين هذه المباني «التكيَّات»، أو أديرة الدراويش وغيرهم، وقد بنى الباشوات الأتراك أغلب تلك التكيات لصالح ابن وطنهم. بعض هذه التكايا تتميز ببنيان وجيه.

العديد من الأَسْبِلة (أو النافورة العامة) تتميز أيضًا بطرازها المعماري. يمكن أن أصف لك الطراز الشائع لبناء السبيل. الجزء الرئيس من السبيل يأخذ شكلًا نصف دائريّ له ثلاث نوافذ من خشب الأرابيسك نُحاسية اللون. خلف كل نافذة حوض صغير من الماء، حين يرغب أحد المارَّة في الشرب يمد يده عبر فتحات الخشب ويملأ الكوب النحاسي المسلسل في أحد أعمدة النافذة. فوق النافذة هناك ألواح من الخشب تحمل مبنى هو في العادة غرف للتعليم لها شرفة مفتوحة وتدعمها الأعمدة والأقواس، وفي قمتها ألواح خشب تشكل سقفها. بعض هذه المباني يُبنى من الرخام الأبيض والأسود.

الأحواض، أو أماكن سقاية المَطيَّات، عديدة في القاهرة. الأحواض الصغيرة عادة ما تُبنى من الحجارة يعلوها قوس في تجويف داخل الجدار، وفوقها أيضًا نجد فصلًا من فصول المدارس العامة.

يقول أخي إن هناك ما يقارب ستين إلى سبعين حمَّامًا، وهي حمامات عامة، في القاهرة. بعضها مخصص للرجال، وبعضها مخصص للنساء، أما البعض الآخر فمخصص للرجال صباحًا وللنساء في فترة ما بعد الظهيرة. حين تبدأ فترة النساء تُعلق قطعة من القماش القطني الأبيض على الباب. غرف الحمام ممهدة بالرخام وتحوي خزانات ونافورات، كما يعلوها قباب بها ثقوب صغيرة تسمح بنفاذ الضوء.

القهاوي، أو المقاهي، هي آخر المباني التي أودُّ ذكرها، وتحوي القاهرة ما يزيد على ألف مقهى. في هذه الأماكن لا يُباع سوى القهوة، ويحمل الزائرون في جَعْبَتهم الغليون والتبغ.

(46) ملحوظة صوفيا لين بول: ينطقها العامة «مورستان».

(47) ملحوظة صوفيا لين بول: كبش لا تشير فقط إلى الكباش المعروفة لدينا، ولكنها تشير كذلك إلى الخراف الجبلية (الذَّكر والأنثى) التي تعيش في الصحاري المتاخمة للقاهرة.

(48) ملحوظة صوفيا لين بول: منذ عدة سنوات ظهرت هذه المنازل، وتم إخباري أن الكثير من أطلال البوابة الرئيسة ما زال قائمًا حتى الآن يرفل في حُلَّة نبيلة وله مظهر معماري راقٍ وبسيط.

(49) ملحوظة صوفيا لين بول: السيدة زينب هي ابنة الإمام علي، ابن عم النبي وزوج ابنته، سُكينة هي ابنة الحسين بن عليّ، ونفيسة هي ابنة حفيد الحَسَن بن عليّ.

الرسالة الثالثة عشرة

ديسمبر، ١٨٤٢.
صديقي العزيز،

لتصحبني الآن، في خيالك، من المدينة إلى القلعة. لو كنت معي في رحلتي الواقعية لكابدت أهوال الهبوط من السفح المُنحدِر في سبيل رؤية أفضل مشهد بانورامي في المشرق، وليس لغاية مشاهدة ما خلف جدران القلعة. تقع القلعة أقصى جنوب شرق العاصمة، فوق هضبة مستوية ترتفع عن السهل بنحو ٢٥٠ قدمًا، وبالقرب من جبل المُقطَّم الذي تطلُّ عليه بالكامل. أُنشأ صلاح الدين، الشهير، هذه القلعة عام ٥٧٢ هجرية (١١٧٦ - ١١٧٧ ميلادية) ولكن لم يكتمل بناؤها حتى عام ٦٠٤ هجرية، مُذَّاك أصبحت المقرَّ الرسمي لسلاطين وحكام مصر. أمام القلعة تقع ساحة فسيحة تُسمَّى الرُّميْلَة حيث يُقام سوق يضم المشعوذين والموسيقيين والحكَّائين كُلٌّ يحيطه حلقة من المتعطِّلين.

باب العزبة هو البوابة الرئيسة للقلعة. خلفه طريق ضيق وحاد شُق في الجبال، حاد لدرجة أن بعض أجزائه أُعيد نحتها لتيسِّر بعض الشيء من صعود وهبوط الجِمال والخيول وغيرها من الدواب. هذا الطريق المذكور كان الشاهد الأول على مذبحة مماليك القلعة عام ١٨١١. ربما يكون لديَّ ما أقوله، في مناسبة قادمة، عن هذه المأساة.

جزء كبير من داخل القلعة طمسته الأطلال والقُمامة، وهناك العديد من المساكن وبعض الحوانيت داخل الأسوار. أهم المعامل التي تحويها تلك الأسوار هو مسجد السلطان ابن قلاوون، وقد بناه السلطان في بدايات القرن الثامن من الهجرة (أي القرن الرابع عشر من الميلاد). أصبح المسجد الآن في حالة خَرِبة، ولم يعُد يُستخدم كمكانٍ للعبادة. يتكون المسجد من عدة أروقة تحيط ساحة الصلاة المربعة.

في الشمال الغربي من المسجد، يقع، منذ اثني عشر أو ثلاثة عشر عامًا، طلل نبيل وهو قصر قديم يُسمَّى عادة قصر يوسُف، أو ديوان يوسُف، ويُقال أنه كان قصر يوسُف صلاح الدين، ولكنه قول خطأ. الرحالة الأوروبيون لديهم نفس الظن، ويطلقون على المكان «قاعة جـوزيف». لكن أخي أخبرني، عن أقوال المقريزي، أن هذا القصر قد بناه هذا الأمير السالف ذكره (50). استُخدمت أعمدة ضخمة من الجرانيت في بنائه. كان للقصر قبة كبيرة، سقطت قبل هدمه بفترة وجيزة. حين تدلف إلى طلَل القصر تلاحظ في منتصف الجهة الجنوبية الشرقية محرابًا يشير إلى اتجاه مكة، يشبه كثيرًا محاريب المسجد، ولكنه كان وجه الشبه الوحيد بين هذا المبنى ومباني المساجد. داخل وخارج القصر هناك زخارف بالحروف العربية، ولكن الكثير منها تهاوى قبل فترة طويل من هدم القصر.

على مقربة من غرب موقع القصر القديم هناك أطلال لمبنى ضخم يُسمَّى «منزل يوسُف صلاح الدين» جزء منه يقع على قمة التل وجزء آخر يقع عند المنحدر. من موقعنا على حافة التل رأينا أروع المشاهد للعاصمة ونواحيها. مآذنها العديدة، قبابها، أسطح منازلها، وظلالها التي تمثل مُتنفَّسًا للطريق، والقليل من النخيل والأشجار ترتفع فوق المنازل، جميعها مشاهد أضفت على مظهر المدينة مشهدًا مغايرًا لأي مدينة أوروبية. خلف العاصمة رأينا النيل، يقطع سهلًا من العشب الأخضر، ومدن بولاق، ومصر العتيقة، والجيزة، وإلى الجنوب رأينا القناة وتلال القمامة التي تحتل مشهد الفسطاط، وعلى بُعد بدت أهرام ممفيس، وبساتين النخيل. إلى الشمال من العاصمة رأينا سهول هليوبوليس وأرض جوش(51). هذا المشهد البديع يُحرك مشاعر أكثر الناس جفاءً. المشهد المادي يكفي لسَحْر الألباب، ولكن الشعور الأعمق وأنت تحدق إلى هذا المنظر، هو مرورك بعين سريعة على صفحات الزمان التي شاء الله لها أن تكون وأن تزول. قمع وهجرة بني إسرائيل، والمعجزات التي جانَبت هجرتهم، كل تلك الأحداث التي تهز ذاكرة الحاضر، تمر في ذهنك - ازدهارهم الواضح، عصيانهم، وعقابهم، كل شيء يعبر أمام عينيك في مشهد كئيب. آه! يا لجبروت الخالق، لتحضر بين هؤلاء الراغبين في استعادة قوتهم، و«يا ليت بعد حين»، كما يقول السيد ويلبر فورس في مذكرته البديعة، «يا ليت بعد حين يدركون طول شقاقهم عن المنقذ.». دائمًا ما وُصِفوا بكونهم «قبيلة من الهائمين عاريي الصدور.» غالبًا، «مشردين، بلا مأوى، ومنبوذين، عانوا كُلَّ أشكال المهانة، واعتادوا الصعاب، ولكن عين الرب لا تزال تنظر إليهم، أُذُنه لا تزال منفتحة لتلقِّي صلواتهم». الصدق أنهم حتى الآن «لم يطلبوا عون الرب ولم يسألوه رحمته»، لكن هذا لا يعني أنه هجرهم، وبينما نسمع - بامتنان - عن حماس الكثير من اليهود في سبيل قضية المسيحية نثق أن ليس ذاك اليوم بعيدًا، وعوضًا عن:

«ابكوا على مَن بكى عِند نبع بابل، مَن هُجرت معابدهم، وأصاب أرضهم وابل»(52)، سنحتفي بهذا الوقت المبارك الذي سيقول الرب كلمته: «لأُعْطِيَهُمْ جَمَالًا عِوَضًا عَنِ الرَّمَادِ، وَدُهْنَ فَرَحٍ عِوَضًا عَنِ النَّوْحِ، وَرِدَاءَ تَسْبِيحٍ عِوَضًا عَنِ الرُّوحِ الْيَائِسَةِ»(53)، حين يمكن لكل أمم الأرض أن «[يفرحوا] مَعَ أُورُشَلِيمَ وَابْتَهِجُوا مَعَهَا، يَا جَمِيعَ مُحِبِّيهَا. اِفْرَحُوا مَعَهَا فَرَحًا، يَا جَمِيعَ النَّائِحِينَ عَلَيْهَا».(54)

هناك، ملحق بقصر يوسف، مسجد هائل المساحة، لم يكتمل بناؤه بعد، يبدو على بنيانه الفخفخة، ويدلل على ذلك الإسراف في أعمدته المرمرية، لكن طرازه المعماري المختلط لم يُثِر الكثير من إعجابي، على الرغم من أن تأثيره حين يكتمل البناء سيكون مغايرًا وربما له تأثير كبير. هنا، بالكاد أضيف، أن مؤسس هذا الصرح البَذِخ هو محمد علي، وسيُطلق اسمه على المسجد حين اكتماله.

أما عن بئر يوسُف صلاح الدين الشهير، فقد سُمي بهذا الاسم لأنه تم حفره أثناء حكم السلطان، ويقع بالقرب من الزاوية الجنوبية للمسجد القديم. وقد حُفر البئر بالكامل داخل صخرة من الصخور الكربونية، ويعتمد على عمودين مجوفين لهما مظهر مستطيل، الواحد

يعلو الآخر، وله درج متعرج يلتف حول العمودين هبوطًا لقاع البئر. حين هبطت إلى الطابق الأول، خذلتني قدماي وتسارعت دقات قلبي، واكتفيت بمشاهدة ما أستطيع من البئر عبر الكوَّات الصغيرة النافذة من الدرجات. أما مرشدنا، فكانت فتاة شابة، ويمكنني الحكم بجمال ملامحها المخبأة خلف قطعة القماش لأن عينيها السوداء كانت غاية في الجمال. حملت مشعلًا في كل يد، وتقدمتنا هبوطًا إلى وجهتنا القاتمة الخطرة (في وجهة نظري). لأنها اعتادت على هذا الطريق الوعر، تقدمت الفتاة دون خوف عبر الظلام، بينما ضوء مشعليها يتهادى مطلقًا قَبَسًا من نور، ويسطع على الصخور الندِّية على الجانبين.

العمود العلوي يبلغ عمقه نحو ١٥٥ قدمًا، أما السفلي فارتفاعه يبلغ نحو ١٢٥ قدمًا؛ أي أن عمق البئر كله نحو ٢٨٠ قدمًا. وترفع المياه، التي تتسم بدرجة من الملوحة أغلب الوقت، ساقيةٌ مثبتةٌ أعلى قمة كل عمود.

هناك العديد من الصروح الحديثة المبنية على الطراز التركي، يمكن أن نطلق عليها، في هذا البلد، لقب قصور، وتقع في الحي الجنوبي من القلعة، وفي حي الإنكشارية الذي لا يُعد جزءًا من القلعة القديمة ويقع في الشرق من القلعة القديمة. عدد من جدران ومنازل الحافة الشمالية من التل تهاوت إثر انفجار مخزن بارود حدث عام ١٨٢٤. أما الحافة الغربية فتقع عليها ترسانة أسلحة، ومصنع لصبِّ المدافع، وغيرها من المنشآت العسكرية.

يطلُّ جبل المقطم على المدينة، وقلعة القاهرة، وهو جبل من الحجر الكربوني الأصفر يعجُّ بحفريات الحشرات الزاحفة، وتنعدم الرقعات الخضراء على سطحه. تم تأسيس حصن عتيد على سطحه يُصعد إليه عبر أقواس ضيقة تفضي إلى جسر حاد الارتفاع. على جانبَي هذا الجسر تتراكم الأحجار. أما في الجهة الغربية من الجبل فهناك العديد من الجبَّانات القديمة، لكن الوصول إليها عسير ولا أرشح أبدًا زيارتها. لقد زارها أخي، ولم يرَ أي أثر لنقوش هيروغليفية أو زخارف في أيٍّ من تلك الجبانات.

إلى شمال العاصمة هناك العديد من الحدائق، وفي موسم الفيضان، تصبح بحيرات رغدة، في إحداها (بركة الرَّطْل) تنتشر نباتات اللوتس وتُزهر في شهر سبتمبر. أما في المنطقة نفسها فهناك أطلال مسجد، أسَّسه الظاهر بيبرس في العام ٦٦٥ من الفيضان (أي ١٢٦٦ - ١٢٦٧ من الميلاد). وقد حوله الفرنسيون إلى حصن.

قُبالة باب النصر هناك مقابر فسيحة تقع فوق بقعة صحراوية كبيرة، وفيها قبر المستنير بوركهارت(55).

أما المقابر الشرقية الهائلة، فتقع في مساحة رملية بين العاصمة والجبل وتضم مقابر العديد من سلاطين المماليك. بعض هذه المقابر (والتي اعتبرها عدد كبير من الرحالة مقابر للخلفاء) لها بنيان بهي؛ خاصةً مقبرة السلطان بُرْقُوق(56)، وقايتباي(57). لم يعُد هناك وجود لأي من مِقابل خلفاء مصر: حيث يقع خان الخليلي (كما سبق وذكرت في رسالة من

رسائلي) فوق أطلال تلك المقابر. في منتصف تلك المقابر تقع العديد من بيوت خُصصت لإيواء الفقراء والمحتاجين، ويطلق عليها «قايتباي». هنا، وعلى مقربة من القلعة، المقابر تزدحم بجوار بعضها الآخر، ويقطع المنطقة بأسرها عدة طرق كما شوارع المدينة؛ لذا من العادل أن نطلق عليها نيكروبوليس أو مدينة الموتى. المنطقة بأسرها صحراوية التربة، ويمكن مقابلة بضعة رجال هناك، ماعدا صباحات الجمعة، حين تقتضي عادة المسلمين بزيارة مقابر أقاربهم وأصدقائهم. حينها يُرى مجموعات عديدة من النساء في المقابر، كل واحدة تحمل سعف النخيل، لتضعه على القبر الذي تزوره.

جنوب العاصمة هناك مقابر أخرى تُسمَّى «القرافة»، وهي أكبر اتساعًا، ولكن لا تضم جبَّانات هائلة مثل سالفتها. تقع تلك القرافة هي الأخرى في منطقة صحراوية. العديد من مقابرها لها مظاهر جميلة: خاصة طرازًا بعينه هو عبارة عن ضريح مستطيل، عادة ما يكون من الرخام، ويعتليه قبة، أو سطح هرمي يدعمه أعمدة رخامية. في جنوب هذه المقابر يقع قبر الإمام الشهير: الإمام الشافعي مؤسس واحد من مذاهب الإسلام الأربعة، والمذهب الذي ينتمي إليه أغلب سكان القاهرة. مات هذا الإمام في العام ٢٠٤ من الهجرة (٨١٩ - ٨٢٠ ميلادية). المسجد الحالي الذي يضم قبره بُني من الحجر الأبيض الأملس، وله قبة تدعمها درجات. تمت إعادة بناء هذا المسجد مرتين؛ أي أن البنيان الحالي هو هيئته الثالثة ويبلغ عمره قرنين ونصف القرن تقريبًا. على مقربة من شمال المسجد تقع بناية قصيرة هي مدافن عائلة الباشا الحالي. وبينها وبين الجبل العديد من المقابر العتيقة التي تحفُّها القمامة. يبدو أن هذه المنطقة كانت مدينة الموتى في عصر سابق.

بمحاذاة الجهة الغربية من العاصمة هناك العديد من البحيرات والحدائق. أشهرها حدائق إبراهيم باشا، ولكن أفضِّل أن أعتبرها مزارع. لقد ذكرت لك من قبل هذه الحدائق. رقعة كبيرة من الأرض التي تشغلها كانت، منذ عدة سنوات مضت، مُغطَّاة بتلال من القمامة، والتي، رغم أنها لم تكن مرتفعة مثل التلال المنتشرة في الشمال والجنوب، أخفت الكثير من مظهر المدينة أمام المقتربين من جدرانها. كل الجِمال والحَمِير وغيرها من المطايا التي تموت داخل أسوار العاصمة يتم إلقاؤها عند تلال القمامة التي تحيط الأسوار، وهناك يقتات عليها الكلاب الجائعة والنسور المحلقة.

على ضفة النهر، بين بولاق ومصر العتيقة، تقع العديد من القصور والسرايات، أحدُها ينتمي لإبراهيم باشا، ويقع إلى جوار مبنى ضخم مربع الشكل يُسمَّى «قصر العيني» (وهو مؤسسة لتعليم الشباب المَنُوط بهم العمل لدى الحكومة)، وإلى جواره تكية صغيرة للدراويش. على مقربة من جنوب تلك المباني يظهر مدخل الخليج، أو قنال القاهرة، وبعدها مباشرة تبدأ القناطر المائية التي تنقل مياه النيل إلى القلعة. ثمة مبنى سداسي ضخم يبلغ ارتفاعه نحو ستين إلى سبعين قدمًا، يضم السواقي التي ترفع المياه من القناطر. يبلغ طول القناطر الكامل نحو ميلين. وقد بُنيت من الأحجار، وتضم عدة أقواس تتفاوت في الارتفاع، بسبب اختلاف عمق القناة الواضح للعين المجردة. قرب نهاية القناطر، تتدفق

المياه نحو قناة جوفية تصل إلى بئر القلعة. تم بناء تلك القناطر (في موقع القناة القديمة المبنية من الخشب) في بدايات القرن العاشر الهجري (أو السادس عشر الميلادي). إلى جنوب القناطر تقع مدينة مصر العتيقة، وتواجه منازلها الرئيسة النهر، وجزيرة الروضة.

الجزيرة (واسمها يعني الحديقة) يبلغ طولها ميلين إلا ربع الميل، وعرضها ثلث الميل. فرع النهر الشرقي من جهة الروضة يتسم بضيقه الواضح، وحين يبلغ النيل أقصى درجات انخفاضه تكون هذه المنطقة شبه جافة. تضم الجزيرة عدة منازل صيفية وحدائق غنَّاء من أشجار النخيل وأشجار البرتقال والليمون والحوامض والرمان والجميز (الذي يضفي ظلال عريضة) والموز ولا سيما كروم العنب. لأشجار الموز رونقها الخاص، بفضل أوراقها الطويلة المتدلية من قمتها مثل أوراق النخيل. في هذه الجزيرة الخضراء نجد أيضًا أشجار الحنَّة التي تقدِّرها كثيرًا نساء تلك البلاد بفضل الصبغة التي تفرزها أوراقها، ويقدرها شعوب الدول كافة بفضل العطر المنعش الذي تفرزه أزهارها. أما عنصر الجذب الأهم في جزيرة الروضة فهي حديقة يملكها إبراهيم باشا ويشرف عليها مباشرة السيد ترايل، الذي حوَّلها لأبهى حدائق القاهرة.

مصر العتيقة، رغم أنها تمتد لمسافة ميل، فإنها مدينة صغيرة كادحة، تقع على ضفة النيل وتشغل جزءًا من موقع الفسطاط. العديد من مراكب الصعيد تفرغ حمولاتها في المدينة وهناك حركة ملاحة مستمرة بالقوارب الصغيرة بين المدينة والجيزة. تقع خلف المدينة مساحة هائلة من القُمامة تغطى سائر ما تبقَّى من الفسطاط. في هذه الرقعة المهجورة يقع مسجد عمرو وقصر الشمَّاع وعدة أديرة مسيحية.

تم ترميم مسجد عمرو وإعادة بنائه عدة مرات لدرجة أننا قد نعتبره الآن مسجدًا حديثًا، مع ذلك لا يزال هناك شيءٌ آسرٌ بخصوص هذا المسجد، حيث صلى فاتح مصر بصحبة العديد من «صحابة الرسول» مرات ومرات.

يقع المبنى على مساحة ٣٥٠ قدمًا مربعًا، يضم ساحة مربعة تحيطها الأروقة، وله مظهر متواضع وأصم. خارج المسجد يحفُّه جدران من القرميد. الرُّواق الواقع في اتجاه القبلة يضم ستة صفوف من الأعمدة، أما الرواق إلى جهة اليسار فيضم أربعة والآخر إلى جهة اليمين يضم ثلاثة، أما الرواق الواقع في وجهة المدخل فله عمود وحيد. الأعمدة من الرخام القرمزي، بعضها صغير الحجم تدعمها قواعد ضخمة. أما قمم الأعمدة فمن أطرزة مختلفة، حيث جُلبت من عدة مبانٍ أخرى عتيقة تمامًا كالأعمدة.

قصر الشموع هو حصن روماني قديم، وكان معقل مصر في فترة الحكم الروماني، ومقر قيادة الجيش الإغريقي، والذي حاربه العربي وقضى عليه بقيادة عمرو. يُقال أن المبنى، قديمًا كان يُضيء بالشموع في الليلة الأولى من كل شهر؛ ولذلك يحمل اسمه الحالي والذي يعني «جناح الشموع». يقع القصر على مساحة تمتد، من الشمال إلى الجنوب، مسافة ألف

قدم، ومن الشرق إلى الغرب مسافة ستمائة أو سبعمائة قدم. أسواره تتسم بارتفاع بالغ بُنيت من القِرْميد والأحجار ويدعمها أبراج دائرية. داخل الأسوار يزدان بالمنازل والحوانيت التي يمتلكها المسيحيون، كما تضم الأسوار عدة كنائس من بينها كنيسة القديس أبو سرجة، حيث تقع مغارة صغيرة تشبه إلى حدٍّ ما كوَّة الفرن وهي مغارة هروب العائلة المقدسة. أما حصن بابليون فيقع فوق صرح صخري في الجنوب الشرقي من قصر الشموع. يؤمن المقريزي، ومؤرخون غيره من العرب، أن تلك هي مصر التي حاصرها عمرو واستولى عليها. بجوار قصر الشموع يقع حصن آخر يُسمَّى «قصر بابليون». وقد أُخبرت أن هذا المكان هو مبنى مربع فسيح المُلقَّب بـ «إسطبل عنتر»، وأنه في عصور لاحقة أصبح ديرًا، والآن تحول لمصنع بارود. إلى جنوب حصن بابليون، وبالقرب من النيل، هناك قرية صغيرة تُسمَّى «أثر النبي»، وحملت هذا اللقب تيمُّنًا بحجرٍ يحمل أثر قدم الرسول ومحفوظ في مسجد صغير له طلّة بهية على حافة النهر.

الجيزة، التي تقع قُبالة مصر العتيقة، هي مدينة فقيرة صغيرة الحجم، يحيط بها، عدا الجزء المواجه للنهر، جدار هزيل بالكاد يحميها من جماعات البدو. هناك ادعاءات أن الجيزة تقع في جزء من حيِّز مدينة ممفيس القديمة ولكن ثبت خطأ تلك التكهنات.

يتعين عليَّ، أيضًا، ذكر بعض الأماكن الواقعة إلى شمال العاصمة. طريق واسع مستقيم تحفُّه أشجار التوت والجُمَّيز والسَّنْط، يقود إلى شُبْرا، المستقر الريفي المفضل للباشا، والذي يبعد أكثر من ثلاثة أميال عن القاهرة. قصر شبرا يطل على النيل مباشرة، له مظهر خارجي بديع؛ خاصةً حين تراه من قارب في النيل، وبه حديقة غنَّاء يعتنى بها أصحاب أذواق رفيعة.

على بُعد ستة أميال تقريبًا من البوابات الشمالية للعاصمة، وفي اتجاه شمال الشمال الشرقي، هناك هليوبوليس، مدينة الشمس، والتي يسميها المصريون، «أون» ويسميها العرب «عين شمس»، أو «نبع الشمس»، ولكن المعنى الأدق للإشارة لاسم مدينة الشمس هو - كما أخبروني - «عين شمس»، والذي يمكن أيضًا ترجمته إليه «أشعة، أو شعاع الشمس». يعبر الطريق من القاهرة إلى عين شمس في الصحراء، ولكن بالقرب من حدودها مع الرقعة الزراعية. هذا الجزء من الصحراء يتسم بأرض رملية منبسطة، ينتشر فيها الحصى والخشب المتحجر والصخور الحُبيبية، والصخور الرملية الحمراء إلخ. وعلى مقربة من الشرق يقع جبل صغير من الحجر الرملي الأحمر يُسمَّى «الجبل الأحمر». على مقربة من هليوبوليس وتحديدًا على مسافة ميل من موقعها، يمر المسافر بجوار قرية «المطرية» حيث تقع شجرة جميز عتيقة أسفل ظلالها (وفقًا للتراث) استراحت العائلة المقدسة، وارتوت من بئر قريب. أشجار الشَّوح البلسمي كانت تُزرع في الحقول المجاورة دونًا عن أي موقع آخر في مصر، وجرت العادة على الإيمان بخرافة تقول إنها تنمو في هذه المنطقة تحديدًا بفضل مياه البئر الذي يرويها. من المُرجَّح أن الاسم الذي أطلقه العرب على هذه المنطقة «عين شمس» اشتُق من هذا البئر. على مساحة تزيد على نصف الميل المربع،

محاطة بقرميد خام تبدو الآن أطلال، كانت تقع صروح هليوبوليس المقدسة. الأثر الوحيد الباقي من هذه المقدسات هو مسلة بديعة تقع في منتصف الميدان الرئيس، ويسميها العرب «مسلة الفرعون». تتكون المسلة من قطعة جرانيت أحمر ضخمة، وتبلغ نحو اثنين وستين قدمًا من حيث الارتفاع، وستة أقدام مربعة تشكل قاعدتها. ارتفعت التربة قرابة أربعة أقدام أو خمسة أقدام لتغطي أغلب القاعدة؛ لأن، أثناء موسم الفيضان، تلجُ مياه النيل إلى هذه الساحة بفضل قنال القاهرة. على وجهتَي المسلة نقوش هيروغليفية تحمل اسم الملك سنوسرت الأول الذي حكم بعد فترة ليست ببعيدة عن عصر بناة الأهرام. كما يوجد آثار أخرى تنتمي لحقبته كمسلَّة الفيوم. يتحدث عبد اللطيف عن عين شمس قائلًا، أنه شاهد هناك (قرابة نهاية القرن الثاني عشر الميلادي) أطلال العديد من التماثيل العملاقة، ومسلتين هائلتين، إحداهما سقطت وتهشمت إلى قطعتين. تلك التماثيل، والمسلة المهدمة، على الأرجح طُمست الآن تحت التربة المتراكمة عبر السنوات.

هذا ما تبقَّى من هليوبوليس، مقعد العلم الشهير حيث درس إيودوكسوس وأفلاطون ثلاثة عشر عامًا، وحيث استقى هيرودوت الكثير من معلوماته عن مصر. في زمن سترابو، كانت المدينة قد هُجرت بالكامل من سكانها، ولكنها ظلت شهيرة بفضل معبد الشمس القائم رغم ما أصابه من خراب على يد قمبيز. عُبد العجل مافيس في هليوبوليس على غرار عبادة أبيس في ممفيس. من المرجح أن أرض جوش أُلحقت إلى مقاطعة هليوبوليس من جهة الشمال والشمال الشرقي.

على بعد ثلاثة عشر ميلًا من القاهرة وفي ذات الاتجاه الذي تقع فيه هليوبوليس، تقع قرية «الخانكة»، التي كانت ذات يوم مدينة كبيرة، ولفترة أطول معسكرًا للجنود. تقع الخانكة على بُعد ميلين شمال بحيرة الحُجَّاج، التي تحمل هذا الاسم لأن الحجيج يتجمعون ويعسكرون عندها قبل استكمال رحلتهم إلى مكة. طول هذه البحيرة يزيد على ميلين من الغرب إلى الشرق، وعمقها يبلغ ميلًا، يصل الماء إليها عن طريق قنال القاهرة خلال موسم الفيضان.

(50) ملحوظة صوفيا لين بول: السلطان ابن قلاوون.

(51) ملحوظة المترجمة: أرض جوش هي الاسم العبري لمنطقة تقع شرقي الدلتا وذُكرت في العهد القديم.

(52) ملحوظة المترجمة: مطلع قصيدة للشاعر الإنجليزي لورد بايرون.

(53) ملحوظة المترجمة: الإنجيل. سفر إشعياء ٦١:٣.

(54) ملحوظة المترجمة: الإنجيل. سفر إشعياء ٦٦:١٠

(55) ملحوظة المترجمة: تقصد الكاتبة يوهان لويدچ بوركهارت وهو مستشرق ورحَّالة وجغرافي سويسري، اشتهر بإعادة اكتشاف مدينة المملكة النبطية الشهيرة: البتراء. مات في القاهرة ودُفن فيها.

(56) ملحوظة صوفيا لين بول: بناها ابنه وخليفته فرج، أوائل القرن التاسع الهجري؛ أي القرن الخامس عشر الميلادي.

(57) ملحوظة صوفيا لين بول: بُنيت بعد ما يقارب قرن من المقبرة السابق ذكرها.

الرسالة الرابعة عشرة

ديسمبر، ١٨٤٢.
صديقي العزيز،

أرجو أن تتحملني إذا اضطررت للعودة للحديث عن البيت المسكون، وذلك لأن واحدًا من مصادر إزعاجنا وصل ذروته وأصبح يتسم بطابَع مثير للانتباه والحماس، ويرفل في حُلَّة من الجاذبية لدرجة تدفعني لأقصَّ عليك ملابسات الحادث.

انتهى رمضان منذ شهر تقريبًا، وبنهايته انتهت لياليا الهادئة. من المستحيل أن أصف إليك ما كابدناه من أشكال الإزعاج المختلفة. قُرع باب غرفة الجلوس بعنف واضح أثناء ما كنا نجلس في ساعة متأخرة من الليلة، بعد ساعتين أو ثلاثة تقريبًا من منتصف الليل، دقات قصيرة ومُلحَّة. في أحيانٍ أخرى، كنا نشعر أن شيئًا ثقيل يقع في الرُّواق المجاور لنوافذ الغرفة ذاته، أو في الغرفة المجاورة؛ ولأن هذه الغرف كانت تقع في الطابق الأخير من المنزل تخيلنا في البداية أن بعض الأحجار أو أشياء ثقيلة أخرى كان يلقيها الجيران على سطح المنزل، ولكن أبدًا لم نجد ما يثبت ذلك حين نصعد إلى السطح بعد انقضاء الجلبة. استمر الصخب المعتاد خلال الجزء الأكبر من الليل، وبدت الأصوات أقرب لوقع الأقدام الثقيلة كما لو كان أحدهم يسير في عباءة ضخمة، وتنوعت بين النقر على أبواب الغرف المختلفة، أو دوارق المياه التي تزين تجاويف الجدران. تبدلت العديد من الخادمات علينا منذ إقامتنا هنا، عدا خلال رمضان، ويا له من هلع يمسهم ويبلغ بهم أقصى الدرجات لإيمانهم أن لمسة واحدة من عفريت ستحولهم لشياطين.

منذ عدة ليالٍ، اندفعت خادمة، قضت يومين فقط في المنزل، إلى غرفة الجلوس، بعد انتهائنا من تناول وجبتنا وقالت إن هناك كيانًا طويلًا يتشح بالأبيض يقف فاتحًا ذراعيه في مدخل الطابق العلوي ويمنعها من المرور. عُدنا جميعًا معها، وكما نتوقع، لم نجد أي شيء. هذا الكيان الأبيض لقَّبه الخدم بالقدِّيس، ويؤكدون أن المنزل يسكنه عفريت وقديس. أكد لنا أحدهم أيضًا أن هذا القديس الذي، دعني أَسْتَعِرْ مصطلحه، «يرفُل في البياض»، جاء ذات ليلة إلى البئر، ورفع الدلو إليه وتوضأ وأتم صلاته. أرجح أن مخاوف الخدم - الخادمات خاصة - غير متناسقة. بالتأكيد الخدم لا يتبرم دون سبب، وبالتحديد سبب مفجع، وذلك لأنه لا يوجد، بين كل المنطقة الصالحة للسكنى في المدينة، منزل مريح واحد متاح للإيجار.

خلال رمضان، يؤمن المسلمون أن العفريت يُسجن، وهكذا رجَّح الخدم سبب راحتنا من الأصوات المزعجة طوال الشهر. أما نحن فكان اقتناعنا أننا طوَّقنا مداخل هذا المتسلل، ولكن أصابتنا خيبة أمل كبيرة حين اكتشفنا عدم جدوى تلك الاحتياطات.

منذ عدة أيام، اشتكى الحارس (الجديد) أنه لم ينَمْ على الإطلاق منذ وصل إلى هنا أكثر من عدة دقائق خلال الليل، وأنه لم يتمكن قطَّ من النوم بانتظام بسبب تدخلات هذا العفريت. كما أضاف، أنه كان يصعد كل ليلة للطابق العلوي حيث تقع غرفنا وهناك كان يرى الكيان الذي سبق وذكرته، يطوف في أرجاء الطابق، وحث أخي بطلبٍ لَحُوح على السماح له بإطلاق النار على الشبح مدعيًا أن الشياطين تحترق دومًا بسبب طلقات الأسلحة. وافق أخي على الطلب شريطة أن يستخدم الخادم سلاحًا بعينه. انقضى يومان وليلتان، وفي اليوم الثالث، اكتشفنا أن الحارس كان ينتظر للتأكد من هُويَّة هذا الشبح ما إذا كان شيطانًا أم قديسًا قبل أن يطلق عليه الرصاص.

جنَّ الليل، كانت الظلمة حالكة بصورة غير معتادة. كنا قد نسينا بالفعل نيَّات حارسنا، رغم أننا تحدثنا عن هذه الإزعاجات حتى منتصف الليل تقريبًا، وتكهنَّا الكثير من التكهنات بشأن تلك القضية. في الغرفة التي ينام فيها أبنائي قريري الأعين سمعنا دوي نار هائلًا تبعه صوت خُوار يصدر من الحارس، قائلًا: «ها هو يرقد، الملعون!» وتلاه صوت يبدو كصوت مخلوق يعاني ويلفظ أنفاسه بصعوبة. في اللحظة التالية نادى الحارس على رفاقه هاتفًا: «اصعدوا، لقد أرديت الملعون!» تلا صرخته أصوات غامضة جعلتنا نظن أن رجلًا قد أُردى ويلفظ أنفاسه الأخيرة، أو أن هناك رجلًا قد أطلق النار على نفسه بالخطأ.

دار أخي في الطابق بينما وقفت زوجته مرتجفة تقبض على أيادي أبنائها، بينما أولادي فما زالوا في نوم هانئ (كما ينام الصغار)، آمنين ومطمئنين رغم هذا التوتر والاضطراب. اتضح أن الرجل لم يستخدم الخرطوش بل وضع طلقتين من البارود في بندقيته. على أيَّة حال، سأصف لك الحدث بكلماته الخاصة: «مرَّ العفريت من جواري في الطابق، ثم مر مرة أخرى، حينها حادثتُه: هل نغادر نحن المنزل، أم تغادره أنت؟. فأجابني: يجب أن تغادروا. وعبر جواري وقد ألقى التراب نحو عيني اليمنى. هذا أكَّد لي أنه شيطان. لقد أحكمت غلق عباءتي حولي وشاهدت الطيف بينما ينتحي جانبًا ويقف في أحد الأركان، رمقته جيدًا لفحص مظهره. كان طويلًا، أبيض تمامًا، وقفت وسرت نحوه، عمَّرت بندقيتي، وأبقيتها جاهزة بجواري، وأطلقت النار ليسقط الملعون أمامي، وها هي بقاياه.» قالها وحمل رمادًا محروقًا أرانا أخي إياه فيما بعد، يبدو كرماد ساقط من نعال الأحذية أكثر من أي شيء آخر، ولكنه محروق تمامًا. هذا الرماد، كما أكد الرجل وفقًا للرأي الشائع، هو بقايا تظهر دائمًا عند تدمير شيطان، وتظهر أسفل الحائط الذي أُطلق عليه النار.

أما الجلبة التي لحقت هذا الحدث، والتي ملأت قلبي رعبًا، فستبقى إلى الأبد لغزًا لا أعرفه. في الصباح التالي فحصنا عن كثب موقع الحادث، ولم نجد أي شيء يُذكر عن الأمر. فالبقايا المحترقة لا تفضي بنا إلى أي تفسير، مع ذلك، لا يمكنني ألَّا أصدق أن أحدهم، الذي لعب دور الشرير، عانى إصابة، وبفضل الظلام لاذ بالفرار. إنه لمن سُخف هذا القوم أن يصدقوا أن بقايا شيطان تكون تلك الحفنة. ذكَّرني الأمر بالأرواح الملعونة التي قرأنا عنها

في «ألف ليلة وليلة» والتي (كما قيل) كانت مخزنة في قوارير مُحكمة الغلق وملقاة في البحر بأمر من سليمان بن داود.

لا حاجة لي أن أقول إن الحارس تم توبيخه لمخالفة أوامر أخرى بشأن تلقيم البندقية. كان دائم الخنوع للأوامر عدا تلك المرة. أؤمن بشدة أن الرجل أنهكه شُح النوم، وحفزه رؤية الكيان نفسه كل ليلة يطوف في الطوابق ويمنع من الراحة؛ مما أدى به لهذا العصيان.

ستتذكر القصة في «ألف ليلة وليلة» عن عفريت يلوِّح بانتقامه من تاجر؛ لأنه ذبح دون عمد ابنه حين ألقى في الهواء حجارة تسببت في إصابة ابن العفريت إصابة مميتة. هؤلاء القوم يخشون بشدة إيذاء أي عفريت عن غير قصد، يعشش الخوف في عقولهم. دائمًا يقولون «دَستور» حين يهمون بالنزول من مكان مرتفع، أو حين يرون شخصًا يفعل ذلك. ذات يوم سقط طفل مسكين على وجهه بالقرب من منزلنا، وبالتأكيد جرح نفسه، ولكنه قبل أن يبكي، قال: «دَستور!». أعتقد أنه فعل ذلك خشية أن يكون قد سقط على عفريت دون قصد، ولكن على أيَّة حال طلب السماح حتى بعد فعل الأمر يغفر له خطيئته، ثم حين أدى واجبه انفجر في البكاء.

الرسالة الخامسة عشرة

القاهرة، فبراير، ١٨٤٣.
صديقي العزيز،

أنت تعي رغبتي المُلحَّة لأحظى بفرصة الولوج إلى حرملك الطبقات العليا وكذلك المتوسطة، والآن بعدما تحققت رغبتي، اكتشفت أنني لم أرغب فيما قد يُخيب توقعاتي. بالطبع كان لديَّ اهتمام كبير لفحص سلوكيات نساء هذا البلد، أحيانًا راق لي ودهنَّ، وأحايين أكثر أدهشني طبيعتهن الوقورة. أوقن أن الوصف لن يفي الحرملك حقه ولكنني سأحاول أن أمنحك وصفًا عادلًا لما رأيته من غرف الحرملك. في البداية يجب أن أقول إنني مدينة للطف السيدة سييدر، زوجة المُفوَّض السامي البريطاني، والتي تملك علاقات وثيقة مع جميع حرملك البلاد، وقد مهدت لي الطريقة، دون أي تحفُّظ، وبأقصى صور الود. من بين النساء التي قدمتني إليهن كانت زوجة حبيب أفندي، الحاكم السابق للقاهرة. دعني أخبرك قبل سرد زيارتي الأولى لهن عن نيَّاتي بشأن سبر أغوار حرملك الطبقة العليا.

انقضى وقت طويل لي في القاهرة قبل أن أجرؤ على ركوب البغال بسبب ما لها من مظهر مَهِيب. وهكذا اتبعت ما يفعله العديد من النساء هنا بالجلوس فوق سجادة مريحة مفرودة على سَرْج الحمار، ولكن عند زيارة حرملك الأعيان أصبح من الضروري أن أتبع طرق الأعيان، وقد وجدت الأمر مختلفًا عن امتطاء الحمار العادي. بالطبع كنت مضطرة أكثر من مرة لأن أحني رأسي عند المرور عبر البوابات، وأحيانًا كنت أحاذي نوافذ الطوابق الأولى من بعض البنايات؛ لذلك وجدت أنه من الضرورة الانتباه طوال الطريق، ولكن على أيَّة حال لا يمكن المقارنة بين تلك المطايا وبين الحمير، بالنسبة إليَّ أُفضِّل الحمير.

حين وصلنا إلى منزل حبيب أفندي، ودلفنا عبر مدخله الخارجي، وجدت أن غرف الحرملك، مثل منازل الأعيان الأخرى في البلاد، لا تقع في الطابق الأول، بل لها بناية منفصلة ومتكاملة تتميز عن مبنى الرجال. بعدما عبرنا بهوًا فسيحًا مُعبَّدًا بالرخام، قابلنا عند باب الغرفة الأولى الابنة الكبرى لحبيب أفندي، والتي حيتني التحية المشرقية المعتادة، بلثم يدها اليمنى ووضعها على جبهتها. ثم أصرت على خلع رداء الخروج بنفسها، بالرغم من وجود الإماء حولها، وكانت تلك لافتة تدل على التقدير المفرط، هذا ما ستفهمه فيما بعد. في حرملك الطبقات الوسطى تبجل النساء زائراتهن بهذه الحركة، لكن في حرملك الأعيان هذه المهمة موكلة للعبيد، إلا في حالة حضور ضيفة رفيعة الطراز.

A Turkish Lady in the ordinary dress worn in an Egyptian Harcem.

سيدة تركية في الرداء التقليدي للحرملك في مصر.

خلال زيارة مَن يُعدُّون نبلاء هذه البلاد، حافظت على ثوبي الإنجليزي أسفل ثياب الشارع المشرقية، وذلك لأقيَ نفسي أي إهانات. كانت طريقة تحيتي متبعة العادات التركية المنزلية ربما أكثر خضوعًا مما أحببت، بينما، بصفتي امرأة إنجليزية، يميزني أفضل السمات، ليست فقط المساوية لهن، بل والأفضل منهن. من قبل لم أتبع سوى طريقة التحية المعتادة، إلا عندما أخاطب نساء أكبر سنًّا، حينها تقتضي الظروف أن أظهر لهنَّ انحناءة احترام وأن ألثم يدي اليمنى وأضعها على جبهتي حين أُقدم لهنَّ، وحين أغادرهن. أو حين تقدم لي الحلوى، أو القهوة، أو الشربات، أو المُرطِّبات، أو أيًّا كان. لا بد أن أقدم تلك التحية التقليدية لسيدة نساء الحرملك، التي يشير مجلسها على الأريكة الوثيرة إلى سطوتها على الحرملك.

في المنزل، وحين أزور نساء الطبقة الوسطى، أرتدي الثوب التركي المريح لدرجة لا توصف؛ لأنه ملائم جدًّا لطقس البلاد. لم أسِرْ في الطرقات أبدًا سوى بالزِّيّ التقليدي للخروج، والذي سبق ووصفته لك.

حين خلعت السيدة التي ذكرتها ثوب الشارع عني، تلقَّفته أمَة تتبعها ووضعته في منديل وردي كبير من الكشمير، مُطرَّز بخيوطٍ من ذهب. المناديل من تلك النوع، في حرملك الأغنياء، تتسم بمظهر أنيق، ولكن كان هذا أفضل منديل رأيته على الإطلاق بفضل زخارفه البديعة. حُمل ثوبي على الفور إلى غرفة أخرى، كما جرت العادة، وذلك لإفساح بعض الوقت لتقديم مُرطِّبات إضافية حين تهمُّ الضيفة بالرحيل. صحبتني صديقتي الجديدة بعد ذاك إلى غرفة الجلوس وأجلستني إلى مقعد الشرف المخصص لأمها، قريبة السلطان الراحل محمود، والتي سرعان ما لحقت بنا وأغدقت عليَّ بترحابٍ وَدُود، ثم منحتني مجلسًا مميزًا إلى يُمناها، ذات المقعد الذي قادتني إليه ابنتها في البداية، بينما جدَّة عباس باشا جلست إلى يُسراها. لحق بجلستنا الابنة الثانية التي حيَّتني بأدب شديد، وأكدت لي بلباقة مدى ترحيبهم بي. كانت الابنة الثانية ترتدي ثيابًا أكثر فخفخفة من أختها؛ لذا سأصف لك ثوبها.

على رأسها التفَّ منديل أسود حول طربوش جهته اليمنى مُطرَّزة بغصن من الماسات اللامعة، وينسدل على جزء من جبهتها. كان الغصن يتكون من ماسات هائلة الحجم معقودة في شكل ثلاث أزهار من اللوتس، وفي منتصفِ كُلٍّ منها يمتد الغصن ليشكل رسمة بيضويَّة يبلغ طولها نحو خمس إنشات. على الجانب الأيسر من رأسها وضعت عقدة من الماس عبرها تنسدل جدائل تبدو، بسبب موضعها، صناعية. أما زِرُّ طربوشها فكان - كالعادة - من الحرير الأزرق، ولكنه يتدلى على الجانبين. وأما قميصها الطويل، وبنطالها فكانا من القماش الهندي الزهري الأدكن، وحول خصرها لفَّت شالًا ضخمًا من الكاشمير، وأما عنقها فزيَّنته بعقد مدرَّج من اللآلئ الكبيرة مُوشَّاة بخرز ذهبي. كانت بشكل ما مشوهة المُحيَّا، ربما بسبب الكحل المرسوم فوق حاجبها والمتصل بين الحاجبين في خط عريض ومشوه. الكثير من النساء الحاضرات هنا رغم طبقاتهن الاجتماعية المختلفة ينتهجن هذا النهج في التزيُّن، بعضهن يرسمن الكحل على الحاجب وأسفل العين أيضًا ولكن بدقة شديدة، أما السيدة التي أتحدث عنها فكانت لها حاجبان مميزان لدرجة طغت على ملامحها الأخرى كافة، ومنعتها من التألق.

أمامنا شكَّل عدد من الإماء البِيض دوائر نصف مكتملة، يتلقَّيْن من أخرياتٍ ينتظرن في الغرفة المقابلة صِحافًا فضية تحمل أطباقًا زجاجية بها الحلوى. في كل طبق وُضِع ثلاث ملاعق، وقطعتان من الحلوى في كل ملعقة. قُدمت القهوة مباشرةً بعد الحلوى، وقُدمت أيضًا على صحاف فضية، في أكواب صينية صغيرة - كالمعتادة - لها هيئة بيضويَّة، ولكن لم تكن، كما العادة في البيوت العادية، موشاة بالفضة أو صمَّاء، بل كانت مزخرفة بالماسات. بدت بلا شك أنيقة، ولكن باهظة أكثر منها جميلة. لا تُقدم القهوة قط على الصِّحاف بل

تقدمها إليك واحدة من الخدم تحمل الكوب الصغير بين إبهام وسبَّابة اليد اليُمنى. ينقضي وقت قصير بعد تقديم تلك المُقبِّلات، ثم يدلف خادمان حاملين الشربات في أكواب طويلة غاية في الأناقة موضوعة فوق صحون صغيرة ومغطاة من أعلى، وتُغطى الصينية بأكملها بقطعة دائرية من القماش الوردي وموشَّاة بالزخارف، يزيحها الخادم حين يقترب منا. تقتضي العادة بترك ربع الشراب في الكوب، بعدها يقترب خادم آخر حاملًا منديلًا أبيض كبيرًا مُطعَّمًا بخيوط بديعة نستخدمه لنمسح شفاهنا، لكن أي سيدة تُعدُّ مبتدئةً إذا لم تمسح برفق على شفاهها كما اللثمات.

في خِضمِّ حديثنا أبديت إعجابي باللغة التركية، ولدهشتي، دعتني أكبر الفتيات الحاضرات لتكون معلمتي. قالت للسيدة سييدر بلهجة غاية في الوُدّ: «أختاه! اقنعي صديقتك أن تزورني دائمًا، وهكذا يمكنني تعليمها التركية، ويمكنني أيضًا أن أتعلم لغتها وهكذا نقرأ ونكتب معًا.» شكرتها على عرضها المهذب، ولكنني لم أقدم أي وعود لأكون تلميذتها، وفي قرارة نفسي ظننت أن الأمر سيكون مضيعةً كبرى للوقت. في كل الحرملك الذي زرته، العربية مفهومة وكذلك يتم التحدث بها؛ لذلك لا أتوقع أن تقدم لي المعرفة باللغة التركية أي مميزات جديدة إلا لو درستها بدافع الفضول.

البهجة وروح الفكاهة المثالية التي شاعت في دائرة العائلة جديرة بالذكر، وقد شغلت حيزًا كبيرًا من تفكيري خلال نهار زيارتي. كل ما لاحظته من أخلاقيات المرأة المشرقية، في منزل حبيب أفندي وفي منازل أخرى، قادني للتفكير في التضاد البالغ بين عادات الحياة المشرقية وبناء المجتمع الأوروبي بأكمله. إذا قرأت كتاب «روح الشرق» للسيد أوركهارت(58)، سيجذبك رأيه عن حياة الحرملك، وستفكر في «المنزل» المشرقي الذي يكتب عنه أوركهارت بطريقة ممتعة تستحوذ على اهتمام بالغ. لكن صدقني هناك الكثير مما يسحر ويثير الاهتمام في فحص ومراقبة خصوصيات هؤلاء القوم التي ليس لها نظير في الغرب، ويمكنني أن أبذلَ رسالةً كاملةً في سبيل الكتابة عن التناقضات بين الحضارتين قد تعادل في إثارتها كتاب السيد أوركهارت.

هناك سمة استثنائية وهي أن الفتيات، إلى أن يتزوجن، لا يقابلن سوى أبناء جنسهن، مع استثناءات بسيطة للرجال من أقاربهن الرجال، ثم يتزوجن رجلًا ليس لهن به أي معرفة سابقة! هذا أمر مُقزِّز بالنسبة إلى المرأة الإنجليزية، مجرد التفكير في هذا النظام (الذي، كما أُخبرت، يفوق في تشدُّده أي نظام مُتَّبع) لا يمكن التغاضي عنه؛ لذلك، يجب أن أذكر، وأُعجب بكل ما يستحق الإعجاب، أني سعيت بجهدٍ لأنسى هذا الأمر المرفوض جملةً وموضوعًا والذي يتبعه المجتمع المشرقي.

قبل رحيلنا، كان من المقترح أن أشاهد منزلهم، وقد طوَّقت الابنة الكبرى عنقي وقادتني عبر الغرفة الشاسعة التي تحيطها الغرف الصغيرة. الجزء المرتفع من الطابق كان مُغطى بالسجَّاد الهندي، وفي منتصفه جزء منخفض داخله نافورة بديعة، ربما أجمل نافورة

شاهدتها في مصر، من الرخام الأسود والأحمر والأبيض. السقف كان قطعة فنية من الأرابيسك، أما الجدران فكانت - كالعادة - مدهونة باللون الأبيض، وملساء تمامًا، عدا الجزء السُّفلِي منها الذي عُبِّد بالبلاط الهولندي، مسافة ستة أقدام تقريبًا.

استمرت الابنة في جَرِّي من عنقي إلى الطابق التالي، ولم أشعر، وأنا في حالتي تلك، بالكثير من الترفيه، ولكن باعتبار أن هؤلاء النساء ينتمين إلى العائلة الملكية في تركيا، يمكنك أن ترى قدر الشرف الذي منحوني إياه.

حين اقتربنا من الحمَّام، ولجنا أولًا إلى غرفة الاستلقاء المفروشة بالأرائك الوثيرة وأوحت لي بشعور مريح، لكن الحرارة والبخار كانا خانقَيْن في منطقة الحمام؛ لدرجة أننا لم نتمكن سوى من إلقاء نظرة عليهم، وبسعادة عُدت إلى الغرفة الرطبة. لن يدهشني فضولك حول أمر الحمام، والطريقة المشرقية لاستخدامه، وأرجو أن أسخِّر رسالة مستقبلية لأصف لك عملية الاستحمام (التي بلا شك ستكون مثيرة)، والمكان حيث تقع.

حين عدنا إلى السلالم، تولت الابنة الثانية لحبيب أفندي دور أختها الكبرى، وبذراعها المُطوَّقة حول عنقي، هبطنا الدرجات ودلفنا مجددًا إلى الغرفة التي استُقبلت فيها ذاك الاستقبال الوَدُود. حين نهضنا لنرحل، أحضرت الابنة الكبرى ردائي من الخادمة، وكانت على وشك أن تُدثرني به، حين قالت أختها: «لقد توليتِ مسئولية خلعه، الآن دوري لأُلبسها إيَّاه.» وافقت الأخت الكبرى على مضض، وتناولت هي مهمة مساعدتي في ارتداء الحبَّارة، وهكذا تناوبتا على مهمة ارتدائي ثياب الشارع. ثم، بعدما تلقيت التحية التقليدية، شدت كلاهما على يدي، وقبلتا وجنتي. هبطنا تاليًا إلى البهو، تصحبنا بقية النساء، وجمع من العبيد البِيض. بعدما عبرنا البهو وصلنا إلى البوابة الرئيسة التي مررت عبرها حين وصلت، والمغلقة بسجَّادة ضخمة تمنع رؤية ما خلفها، وتمثل الستارة الفاصلة بين المنزل والحرملك. يتولى مهمة حمل هذه السجادة عبد أسود خَصِيّ، يقف في رُواق خارجي، وسرعان ما لحق ببقية العبيد بعدما ودعتنا النساء وعُدن إلى الداخل. أما كبيره فصحبني إلى الخارج وساعدنا في الصعود فوق مطيَّتي بينما اثنان آخران ثبَّتا قدمي على السَّرْج، وخدَمُنا الخاص ظلوا واقفين في الخلفية.

بعد انقضاء أيام على هذه الزيارة، تلقَّيت دعوةً ثانيةً إلى هذا الحرملك، مع تأكيد مهذب أنهم ينوون عقد مهرجان خاص لتسليتي.

(58) ملحوظة المترجمة: دايڤيد أوركهارت هو دبلوماسي وكاتب وسياسي اسكتلندي وُلِد عام ١٨٠٥ وتُوفِّي عام ١٨٧٧، له العديد من المُؤلَّفات أهمُّها The Spirit of the East.

الرسالة السادسة عشرة

مارس، ١٨٤٣.
صديقي العزيز،

أخشى أن تكون محاولاتي لوصف أي شيء يخصُّ الوضع السياسي الحالي في البلاد هي محاولات جريئة نوعًا ما. لكنني أنوي الكتابة لك في تلك الرسالة عن وصفٍ عامٍّ لتاريخها منذ غزو العرب، وهو أمر، أرجو، أن يثير اهتمامك. ولهذا الغرض سأستعين وأقتبس بحُريَّة من كتابات أخي.

في العام العشرين من الهجرة (٦٤٠ - ٦٤١ ميلادية) غزا العرب مصر، ومُذَّاك أصبحت خاضعة للحكام المسلمين. حكمها الولاة العرب، والأمراء الأتراك المستقلون، والخلفاء العرب، وسلالة من الأكراد، والسلاطين الأتراك، والسلاطين الشراكسة الذين كانوا في شبابهم مماليك (أو عبيدًا). كانت مصر جزءًا من الإمبراطورية التركية العظمى، وحكمها الباشوات الأتراك بعد رحيل المماليك، وكانت فريسةً للمماليك وحدهم، ثم غزاها الفرنسيون، وانتزعها منهم الإنجليز واعادوها للأتراك مرةً أخرى. وكانت مسرحَ نزاعٍ دمويٍّ بين الأتراك والمماليك. والآن تعود لحكم الأتراك. وعن كل هذه الثورات المختلفة، سأتحدث باقتضاب.

خلال فترة تمتد إلى قرابة القرنين ونصف القرن كانت السلطة في مصر تابعةً للخليفة، الذي يعيِّن ولاة ويغيرهم باستمرار. أول هؤلاء الولاة هو عمرو بن العاص، فاتح البلاد. تاريخ هذه الحقبة، الذي نقله لنا المؤرخون العرب، يقصُّ عن مصر القليل الذي لا يستحق الذِّكر. في أعقاب سقوط الحكم الأموي (خلفاء سلالة أُمية)، والتي كانت عاصمتها دمشق، لم يتبدل أيٌّ من أشكال الحكم في مصر سوى بناء مدينة العسكر وأصبحت مقرَّ الولاة الذين تعينهم الدولة العباسية (أي خلفاء سلالة العباس عَمّ الرسول)، وقد نُقل مقر حكم الخلافة الإسلامية في عهدهم من دمشق إلى بغداد.

قرب نهاية الحقبة المذكورة، بدأ يتدهور حال الإمبراطورية العباسية وخلفائها، حيث لم يعُد لهم القوة والبأس ليبسطوا سلطانهم على الولاة في أطراف الدولة المترامية. وقد ضرب والي الجزء الأكبر من شمال أفريقيا مثلَ التمرد على خليفة الرسول، وأعلن استقلاله. وفي العام ٢٦٩ هجرية (٨٨٣ ميلادية)، قرر حاكم مصر، مدفوعًا بغريزة الدفاع عن النفس وليس الطموح الشخصي، أن يخلع عباءة الخليفة المُعتمَد، خليفة الدولة الإسلامية آنذاك، ومنح والي مصر لنفسه السلطة المطلقة ليس فقط على مصر، بل وبسط نفوذه على سوريا التي حكمها من قبل لمدة خمسين عامًا. هذا الأمير كان أحمد بن طولون (وينطقه الناس عادةً طِيلون)، ومُؤسِّس المدينة النبيلة: القطائع (التي جعلها مقرَّ الحكم)،

ومؤسس المسجد الكبير الذي يحمل اسمه وهو الأثر الشامخ الوحيد المُتبقِّي من حقبته. كان أحمد بن طولون ابنَ عبدٍ تركيّ ترقى إلى رتبة ضابط في البلاط البغدادي. رُغم أن أحمد بن طولون أعلن نفسه حاكم البلاد فإن الخليفة استمر ذِكْره بصفته رأس الإسلام، وهكذا استمر الدعاء له في صلاة الجمعة. لحق ابنَ طولون أربعةُ أمراء مستقلون للدولة الطولونية؛ وهكذا حُرم خليفة بغداد لمدة اثنين وعشرين عامًا من واحدة من أفضل ولايات إمبراطوريته الشاسعة. سقطت سلالة بني طولون في العام ٢٩٢ هجرية (٩٠٥ ميلادية) على يد محمد بن سليمان، الذي قاد جيشًا هائلًا لحرق مدينة القطائع، نهب الفسطاط، وأعاد الحكم إلى الخلافة العباسية في مصر.

بعد مُضيّ قرابة ثلاثين عامًا على هذه الأحداث، بدأت الإمبراطورية العربية العظمى في الاضمحلال. في العام ٣٢٣ من الهجرة (٩٣٥ من الميلاد)، نجح تركيٌّ آخر يُدعى محمد الإخشيد (أو الأخشيد) للمرة الثانية في الاستقلال بحكم مصر، وسرعان ما بسط نفوذه على سوريا. الأخيرة انتُزعت منه لفترة، ثم عادت مجددًا لحكمه. هذا الأمير كان مؤسس الأسرة الإخشيدية (أو الأخشيدية)، تلا محمدَ الإخشيد في الحكم ابنان، ثم جاء الأمير الرابع ليكون عبدًا أسود خَصِيًّا يُدعى كافور، كان الإخشيد قد اشتراه وأعتقه. بعد وفاة هذا الخصيّ تصاعدت الخلافات بشأن الحاكم التالي، وعلى الرغم من وجود حفيد للمؤسس واعتراف عدد كبير من الناس بأحقيته في الحكم فإن الأصوات تصاعدت ضده. كان ذلك في العام ٣٥٨ من الهجرة (٩٦٨ - ٩٦٩ من الميلاد). وقد استغل المُعزّ هذه الأزمة، وهو الخليفة الفاطمي الرابع (أي خلافة الدولة الفاطمية التي حكمت السواد الأعظم من شمال أفريقيا). جاء الفاطميون لسُدَّة حكم شمال أفريقيا بعد حكم سلالة بني الأغلب، والتي أسَّسها إبراهيم بن الأغلب الذي عيَّنه الخليفة هارون الرشيد حاكمًا على شمال أفريقيا، فاستقل ابن الأغلب بها وأعلن نفسه أميرًا مطلقًا لحكم البلاد. فور ما سمع المُعز باضطراب الأمور في مصر أرسل جيشًا جرَّارًا وضمن لنفسه، دون أدنى مقاومة أو معارضة، سُدَّة الحُكم. وأصبحت مدينة القاهرة، التي أسسها قائد جيوشه جوهر الصقلي، مقرَّ حكم المُعز وخلفائه. لقب «الخليفة» الذي يحمله الحاكم المسلم يُشير إلى الحاكم الشرعي التالي للرسول، وبالتبعية، حامي الدين الإسلامي. لذلك حين استأثر الفاطميون سلبوا سلالة العباس شرف الدعاء لهم على منابر المساجد في مصر، معتبرين أن هذه الميزة لا ينبغي أن تذهب لغيرهم. كانت فترة حكم الفاطميين ثريَّة بالأحداث، وأهمها: المعاصي الماجنة في عهد الخليفة الحاكم، ومجاعة السنوات السبع في عصر المستنصر (خليفة حكيم ومُتبصِّر حكم لمدة ستين عامًا)، وحريق الفسطاط في فترة حكم العاضد آخر الخلفاء الفاطميين. استمرت هذه الخلافة التي ضمت أحد عشر خليفةً إلى جانب الخلفاء الثلاثة الذين سبقوا المُعزّ حتى سنة ٥٦٧ هجرية (١١٧١ ميلادية).

تلا الفاطميين، الأيوبيون، أو سلاطين سلالة أيوب، وهم عائلة كردية. أول السلاطين الأيوبيين كان السلطان الشهير صلاح الدين (المعروف باسم صَلَا - دين عند المؤرخين الأوروبيين). وقد أرسله نور الدين، سلطان سوريا، رفقة جيش يقوده عمُّه - صلاح الدين -

شيركوه لمساندة العاضد أمام الحملة الصليبية والتي كانت قد استولت على مدينة بُلبَيْس وحاصرت القاهرة، وقد حُرقت الفسطاط (كما سبق وذكرت) للحيلولة دون سقوطها في أيادي الصليبيين. على أيَّة حال، قَبِل الغزاة مبلغًا من الفدية لرفع الحصار عن القاهرة وأخلوا البلاد قبل وصول قوات شيركوه ومن بينهم صلاح الدين. وقد استقبل العاضد القائدين بحفاوة بالغة، وعيَّن شيركوه رئيس وزراء البلاد، لكن الأخير وافته المَنيَّة بعد شهرين وخمسة أيام فقط من تولِّيه منصبه، وأُسند المنصب لصلاح الدين الذي تقبَّل إحسان الخليفة بجحود. في العام المذكور (٥٦٧) بينما كان العاضد يعاني مرضًا عُضالًا، صلاح الدين، مدفوعًا بوساوس سيده السابق (سلطان سوريا)، أمر بالدعاء لخليفة بغداد في مساجد القاهرة، ومنع الدعاء للعاضد الذي تُوفِّي في العام نفسه دون أن يدري بالفعل الذي أقدم عليه وزيره. أعلن صلاح الدين نفسه سلطانَ مصر بعد وفاة العاضد مباشرة. لكنه لم يتمكن من الحصول على لقب الخليفة لأنه لا يملك أي صلة قرابة بعيدة كانت أو قريبة بالرسول محمد؛ لذلك استمر الدعاء لخليفة بغداد بصفته رأس الدولة الإسلامية. ليؤمِّن صلاح الدين لنفسه منصب الاستقلال كان عليه تذليل العديد من العقبات، لكن بفضل عقله النيِّر، وشخصيته الشُّجاعة، وخزائن الكنوز التي تركها الفاطميون، تمكن صلاح الدين من تخطِّي كل الموانع أمام استقلال دولته. بعد إعلان إمارته على مصر، قمع صلاح الدين تمرد أتباع الأسرة الفاطمية. بينما كان سلطان سوريا يوازن ما حدث لمصر وافته المنية في العام ذاته وبالتالي أضاف صلاح الدين سوريا لسطوته، وفي الآن نفسه كان على صلاح الدين مجابهة النزاعات المتكررة مع الحملات الصليبية والتي كان لها الفضل في نقل شهرته إلى أنحاء أوروبا. دفعت رغبة صلاح الدين لإيقاف التمردات والغزوات إلى بناء القلعة والسور الثالث للقاهرة، لكن الحروب التي خاضها بعد ذلك كانت بغرض الغزو وليس الدفاع. لحق بصلاح الدين ثمانية أمراء من أسرته، واستمر حكم الأسرة الأموية واحدًا وثمانين عامًا وعدة أيام، وخُلدت أسماء عدد من الأمراء الثمانية بفضل جهودهم ضد الحملات الصليبية. كما خضعت سوريا لأمراء الأسرة ذاتها، أحفاد صلاح الدين.

لحق بحكم الأسرة الأيوبية، سلاطين المماليك التركمان، ويُطلق عليهم أيضًا المماليك البَحْريَّة (59). وقد اشترى الملك الصالح نجم الدين ألف مملوكٍ تقريبًا، والصالح نجم الدين هو السلطان قبل الأخير للأسرة الأيوبية. عاش هؤلاء المماليك في قصر السلطان في جزيرة الروضة؛ ولهذا السبب حظوا بلقب «المماليك البحرية»(60). وتشير كلمة «بَحْريّ» في هذه الحالة للنهر. بعد خضوعهم لتدريبات عسكرية، أصبح لهؤلاء العبيد أجساد مفتولة وسُرعان ما فُقدت السيطرة على قوتهم. كانت أمَةٌ حسناء تُسمَّى شجر الدُّر (أو شجرة اللآلئ)، تنتمي لنفس سلالة المماليك، زوجة نجم الدين المفضلة. وقد مات الأمير نجم الدين في المنصورة أثناء حملته للدفاع عن البلاد أمام الصليبية بقيادة لويس التاسع والذي قد استولى على دمياط. وخلَفَ توران شاه أباه نجم الدين في حكم مصر(61)، ولكنه حكم لمدة سبعين يومًا فقط وقتله المماليك الذين اعتبروه عقبة في طريقهم، وفي طريقة شجر الدُّر. تحت حكم السلطان توران شاه تلقى الفرنسيون هزيمة وحيدة سقط على إثرها لويس أسيرًا. أعلنت شجر الدُّر نفسها فيما بعد ملكةً على مصر بإيحاء من المماليك ومساعدتهم.

وهكذا بدأت سيدة حكم المماليك البحرية في العام ٦٤٨ من الهجرة (١٢٥٠ ميلادية). لكن سرعان ما تم التخلي عن هذه الملكة ورُفع إلى الحكم مملوك بحري يُدعى عِزّ الدين أيبك التُّركماني، وأُطلق عليه لقب الملك المُعز. تزوجت شجر الدر من عز الدين أيبك، ولأنها كانت أكبر منه سِنًّا، أمرت بقتله بعد سبع سنوات من تولِّيه الحكم ليعقبه ابنه من زوجة أخرى الذي سلَّم شجر الدر لشَرَك أُمِّه. وقد هوت زوجة عز الدين أيبك الثانية وخدمها على رأس الزوجة الشهيرة وجسدها بالقباقيب الخشبية الثقيلة حتى فاضت روحها. مُزِّق جسدها وأُلقيت عاريةً خارج أسوار القلعة لعدة أيام، ثُم حُملت الجثة إلى قبرها الذي أمرت سلفًا ببنائه. استمر هؤلاء السلاطين في حكم مصر وسوريا رغم انتزاعهما منهم عدة مرات. كان سلاطين المماليك البحرية ٢٤ سلطانًا والملكة شجر الدُّر، وقد استمر حكمهم، وفقًا للمقريزي، لمدة مائةٍ وثلاثٍ وستين سنة، وسبعة أشهر، وتسعة أيام. اشتهر العديد من هؤلاء السلاطين مثل (الملك الظاهر بيبرس، قلاوون، محمد بن قلاوون وآخرين) بفتوحاتهم، والمساجد الأنيقة التي أمروا ببنائها، وصروح عامة أخرى أُسِّست في عهدهم. عدد قليل منهم مات ولم يُقتل، بينما الأغلبية إما عُزلوا، أو نُفُوا، أو سُجنوا، والسواد الأعظم راح ضحيةَ الاغتيالات. من الجدير بالذكر أن أول حكامهم كانت امرأة، وآخر حكامهم كان صبيٌّ يبلغ من العمر ست سنوات فقط.

زاد سلطان المماليك البحرية من عدد المماليك في مصر بشراء عبيد شراكسة والذين، على مر الزمان، أصبحوا خلفاءَهم. خلال فترة حكم الطفل الملك الصالح حجي القصيرة، وهو آخر المماليك البحرية، كان الوصيَّ على الحكم المملوك الشركسي، بُرْقُوق. في العام ٧٨٤ هجرية (١٣٨٢ ميلادية) استولى الأخير على الحكم، ومعه بدأ حكم سلالة المماليك الشراكسة، والمعروفين أيضًا باسم المماليك البُرْجيَّة، وقد حصدوا هذا اللقب لأن السلطان قلاوون حين اشترى عددًا ضخمًا من هؤلاء العبيد جعل مسكنهم أبراج القلعة (62).
خضعت سوريا لحكم السلاطين البرجية. حكم من هذه السلالة ثلاثة وعشرون سلطانًا واستمرت في سُدَّة الحكم لمدة مائةٍ وثلاثٍ وثمانين سنة ونصف السنة. يمكن ذكر الظاهر بُرْقوق، المؤيد، قايتباي، والغوري بصفتهم أشهر أمراء المماليك البرجية. وقد أسهم في ترسيخ أسمائهم، مساجدهم ذات القباب البديعة وإنجازاتهم العسكرية وصفاتهم الكريمة. تم خلع العديد من سلاطين هذه السلالة، وبعضهم تنحى طواعية، لكن الأغلبية منهم وافته المَنيَّة بصورة طبيعية. وضع غزو الأتراك لمصر بقيادة السلطان سليم عام ٩٢٣ هجرية (١٥١٧ ميلادية)، نهاية دولة المماليك البرجية. الغوري، السلطان قبل الأخير للمماليك، مُنيَ بهزيمة مفجعة أمام جيش سليم بالقرب من حلب، وقد خانته جيوشه. أبدى طومان باي، آخر السلاطين المماليك، مقاومة منقطعة النظير للأتراك في أحياء عاصمته، وقد شُنق (وفي رواية أخرى صُلب) على باب زويلة، واحد من بوابات القاهرة. تغير شكل الحكومة المعتاد أيام المماليك، وتم تقسيم مصر إلى أربعٍ وعشرين مقاطعة، تولى كل مقاطعة حاكم عسكري مملوكي من البكوات، ويخضع البكوات الأربعة والعشرون لسلطة الباشا التركي، الحاكم العام، الذي يعينه السلطان. من أعضاء الحكومة الجديدة أذكر لك سبعة قادة أتراك يُطلق عليهم الحوچاكليز، ويسميهم المصريون الأوجاكليز أو الحوجاكليز، وهم مجلس

الباشا الاستشاري. أحد البكوات كان يُنصِّب شيخ البلد؛ أي حاكم العاصمة ويتمتع بمنصبٍ أعلى من البكوات كافة؛ مما جعل الكثير من البكوات - بلا شك - في سعي دؤوب للحصول على هذا المنصب. وكان منصب شيخ البلد يُقلد إما بالخديعة، أو بحدِّ السيف، أو بكأس سُمّ. المماليك الذين تشاركوا السلطة مع الأتراك كان يُطلق عليهم جميعًا لقب «الغُزّ»، وهو اسم القبيلة التي ينتمي إليها أغلبهم(63). امتنع أغلب المماليك عن الزواج من النساء المصريات وفضلوا الزواج من بنات عرقهم، أو نساء من الدول الشمالية، قليل منهم حظي بسلالة لأن أغلب النساء غير المصريات في مصر كُنَّ عواقر، أو ينجبن أطفالًا هزيلة ضعيفة تموت في سن مبكرة. ولهذا السبب كان المماليك مجبرين دائمًا على تعزيز صفوفهم بشراء مزيد من العبيد من بلادهم الأم. معظم هؤلاء العبيد، حين جاءُوا لمصر، كانوا لا يزالون فتية غير قادرين على حمل السيف العربي. في البداية كانوا يعملون في خدمة البيك أو السيد الذي ابتاعهم، وكان العبد الوسيم أكثر قربًا لسيده من أقرانه. وغالبًا (بعدما يتلقَّى تدريباته العسكرية) حين يُظهر شجاعةً واضحة، وإخلاصًا، وسماتٍ حميدة أخرى يُعتق من عبوديته ويُرقَّى لرتبة ضابط، ربما بعدها يصبح كاشفًا، ثم يحظى بلقب بيك. لذلك من المرجح دائمًا أن يملك البيك حليفًا مستقبليًّا له، يبقى دائمًا مخلصًا - حتى بعد عِتْقِه وترقيته. عزم كل بيك على تعزيز عدد المماليك، متذرعًا بالاضطرابات التي يُحدثها فلاحو المحافظة التابعة له. خلال ما يقرب قرنين منذ غزو السلطان سليم لمصر كانت سلطة الباشوات الأتراك المتعاقبة مُحترمة من قِبل البكوات المماليك، عدا بعض الاستثناءات، ولكن المماليك سرعان ما فرضوا سطوتهم بعد ذلك، وأصبح تأثير الباشا على شيخ البلد والبكوات التابعين له غير ذي ذِكْر. هكذا أصبحت مصر خاضعةً لحكم أقلية عسكرية، واضمحلَّت أحوال شعبها - أكثر - بسبب النزاعات الدموية المتكررة بين أطراف الغُزّ. هكذا كانت حالة البلاد حين غزاها الفرنسيون، الذين يُثني الشعب المصري على حكومتهم، رغم تحفُّظهم على قمع الفرنسيين وممارساتهم. بعد طرد الفرنسيين استمرت حالة الاضطراب في البلاد بسبب النزاع المستمر بين البكوات المماليك والباشوات الأتراك، حتى أباد محمد علي، الحاكم الحالي للبلاد، المماليك عن بَكْرةِ أبيهم.

(59) ملحوظة صوفيا لين بول: اسم المملوك يُطلق عادةً على العبد الأبيض؛ خاصةً إذا كان جنديًّا.

(60) ملحوظة صوفيا لين بول: وفقًا للمقريزي.

(61) ملحوظة صوفيا لين بول: ديربالتو وعدد من الكُتاب الأوروبيين أخطئوا في قول أن توران شاه ابن شجر الدُّر. أنجبت شجر الدُّر لنجم الدين ابنًا وحيدًا مات في فترة طفولته.

(62) ملحوظة صوفيا لين بول: وفقًا للمقريزي.

(63) ملحوظة صوفيا لين بول: حين يتحدث المصريون عن أيام حكم المماليك تحت سلطة الأتراك يقولون: «حدث ما حدث أيام الغُزّ». (والأدق: آخرة خدمة الغُز علقة - المترجمة.)

الرسالة السابعة عشرة

أبريل، ١٨٤٣.
صديقي العزيز،

فلتُبارِك لنا مغادرة المنزل المسحور، وستزيد من مباركات حين أخبرك أن ست أُسَر قد تعاقبت على المنزل وغادرته منذ رحيلنا. كادت الأسرة السادسة أن تغادر على الفور. كما سمعنا تلك الأخبار: لقد لاقت الأسر الخمس اضطهادًا عنيدًا من الشبح، ليس فقط خلال الليل، بل وأيضًا في وَضَح النهار، اضطهاد وحشي يصعُب وصفه؛ لدرجة أن نوافذ إحدى الغرف في الطابق العلوي قد تهشَّمت كُليًّا، في الحقيقة كانت تلك الغرفة الكبيرة هي غرفتنا المفضلة. عانت الأسرة السادسة من إزعاجات مماثلة، وتهشم الكثير من أطباق الصيني. مثلنا، لم تحظَ أي أسرة بالراحة الكاملة في هذا المنزل، أو الأفضل أن أقول إن الآخرين عانوا أسوأ من معاناتنا، على الأقل قد حظينا ببعض الراحة في أعقاب ما حققه حارس المنزل من إنجاز. والآن آمُل أنني انتهيت تمامًا من الحديث عن هذا، لقد أسهبت طويلًا في الحديث عنه، ولكن لي عذري فالأمر «غريب» بحق.

منزلنا الحالي مريح وفسيح، وذو ذوق مميز يظهر على جدرانه. التراس فسيح للغاية وجذاب، وغرف الطابق العلوي لها مواقع مناسبة. أغلب الغرف لها نوافذ زجاجية، وبناء المنزل بالكامل يتواءَم مع توفير الدفء في الشتاء ولتخفيف حدَّة حرارة الصيف.

من العسير الحكم بـ «مع أو ضد» أي شيء نظرًا لإقامتنا المؤقتة في مصر. لكنَّ هناك أمرًا واحدًا أنا أكيدة منه: يجب أن يمكث المرء عامًا في هذا البلد، ليجرب مناخ الفصول كافة، أو على الأقل أغلبها، قبل أن يحكم حكمًا نهائيًّا على الراحة التي تقدمها لك تلك البلد. أتذكر جيدًا الانزعاج البالغ الذي عانيته، لعدة أشهر بعد وصولنا، والذي اشتكيت لك منه، بسبب الذباب والبعوض، تلك الحشرات شكَّلت مصدر إحباط كبير لي، وبالكاد صدقت أقاويل الناس لي أنني سريعًا ما سأتقبل مناخ هذه البلاد. يسبب البعوض إزعاجًا كبيرًا لدرجة تمنع المرء من الاستمتاع بأي شيء، وأجزم أن السائح الذي يزور مصر خلال فصل الحرارة المرتفعة يمكنه أن يؤكد، عن صدق، أنه لم يحظَ بأي درجة من درجات الراحة لا في النهار أو حتى أثناء الليل إلا حين يدلف خلف الستائر. أعترف أنني أحيانًا ساورتني مخاوف بشأن مدة صمودنا هنا، ربما خشيت أن نرحل قبل أن أحظى بفترة الإقامة المنشودة. مع ذلك، بمجرد أن انحسر النهر، انتعشت آمالي من جديد، واكتشفت أن أروع ألوان الطقس والحرارة يلحق مباشرة بتلك الحرارة المرتفعة، هنا فهمت ما عناه السائحون حين تحدثوا عن الطقس «اللذيذ». هنا نوفمبر شهر لذيذ، أما ديسمبر ويناير فيتسمان ببرودة تصل لدرجة الصقيع أحيانًا، مع الوضع في عين الاعتبار أن منازل البلاد تفتقر للمدافئ الخشبية والحجرية، عدا في المطابخ. لفبراير ومارس طقس بديع، تصبح درجات الحرارة تقريبًا

مشابهة لدرجات حرارة صيف إنجلترا. وخلال أبريل تهبُّ رياح شديدة الحرارة، مع ذلك فهو شهر معتدل الطقس. تستمر الرياح الحارة في مايو، ثم يحين موعد الشهور الأربعة الأشد حرارة.

بصفتي وفية، بحق، لبلادي العزيزة، فيمكنني البوح برأيي الصريح، دون أن أخشى شك القارئ في تفضيلي لإقامتي في المشرق على منزلي الإنجليزي، وسأخبرك، دون تحفُّظ، عن مكامن سحر هذا الجزء من الشرق، عن المناخ، أخلاقيات الناس، عاداتهم البسيطة، والتي لا تجذب فقط إعجابي، بل وتخفف من وطأة تأثري بفقرهم مما أكون في بلدي الأم. من المُرجَّح أنه لو كانت صحيفة يومية تصدُر في القاهرة لَمَا رأينا قط أخبارًا معنونة بـ «مات جوعًا» أو «قضية مؤلمة»... إلخ لكن لماذا؟ رغم أن البلاد هنا لا تضمُّ منازل تأوي الفقراء على عكس الحال في إنجلترا. لن نرى تلك العناوين، ببساطة بسبب قناعة أرواح هؤلاء الفقراء، لو منحتهم كسرة خبز وماء، يكتفون، والأهم من ذلك أن يَحْيَوا في تجمُّع عائلي، وهو أمر لا غنى عنه في الشرق، وهو ما يعلمهم بحق «اِحْمِلُوا بَعْضُكُمْ أَثْقَالَ بَعْضٍ»(64). حين زرت الطبقة الوسطى والعليا لاحظت نفس الترابط الأسري، والأم تلعب دائمًا دور الأم ومديرة المنزل، وتدوم إدارتها حتى الممات، كما يتعاظم حب وتقدير من حولها على مَرِّ السنين. من المؤكد، أن محمد، حين سُئل عن العلاقة الأهم والأقوى والأكثر جدوى بالاحترام، أجاب بنبرة دافئة: «أُمُّك، ثم أُمُّك، ثم أُمُّك!».

للزوجة في الشرق الأولوية على صلات الدم كافةً وتستقبلها أسرة الزوجة كابنة صغرى لهم. من النادر، سواء هنا أو في تركيا، أن يُضطر الأب أو الأم لمغادرة المنزل ليفسحوا المجال لقدوم زوجة ابنهم. هذا، ستتذكر، مذكور في كتاب السيد أوركهارت «روح الشرق»، ودعني أسألك، أليس هذا المجرى الطبيعي للأمور؟ من العسير عليَّ أن أفهم كيف يمكن لأيِّ امرئٍ يحمل في قلبه ذرَّة من المشاعر يسمح لأبيه أو أمه بمغادرة منزله، عوضًا عن أن يبذل لهما كل غالٍ ونفيس.

أما حين نتعرض للحديث عن عادات وأخلاقيات النساء، فلديَّ الكثير من المميزات لأسردها. أولًا بفضل خبرة أخي ومعرفته بأحوال الشرق، وثانيًا بفضل خُطَّتي للالتزام بحزم مع العادات التي يُقدِّرها الناس هنا، وقد أمَّنت لي الخطة احترامهم على الفور، وزادتهم دهشة. لقد تمادينا في تقليدهم وأخذنا نحاكي طريقتهم في تناول الطعام، وهنا يجب أن أعترض مقدمًا وأرجوك ألَّا تُعلق «يا له من أمرٍ مُقزِّز!»، عليك أولًا أن تقرأ كيف كانت محاكاتنا لهم، وحينها ستقر أن الطريقة ليست بالسوء الذي تفكر فيه. الأطباق تُعد بطريقة دقيقة للغاية، على سبيل المثال: يُقطع الخيار الصغير والخضراوات الأخرى وتُخلط باللحم المفروم والأرز، ويُلف الخليط في ورق العنب، ويُطبخ بطريقة معينة، حينها تصبح كل وريقة ملفوفة بإتقان ومُحْكمة الغلق ومن السهل حينها تناولها بالأصابع. هناك أيضًا طبق اللحم المُحمَّر والملفوف في عجين يشبه الكعك، وكذلك السُّجُق، كلاهما ملائمان للأكل. هناك مائة طبق آخر يمكن ذكره (لأن هؤلاء القوم يتمتعون بتنوع في مطبخهم)،

والعديد من الأطباق يسهل تناولها تمامًا كتناول قطعة من الكعك. أما عن أطباق الشوربة، فالأرز يُعد بالطريقة الشرقية، ويطبخ مع الشوربة، نستخدم المعالق لتناول هذا الطبق وكذلك الأتراك. هناك صعوبة واحدة أحيانًا ما تطفو على السطح، ولكن نواجهها خارج المنزل. ربَّة المنزل، وفي بادرة لإكرام ضيوفها، تقدم لُقَيْمات من اختيارها للضيوف، المعضلة تكمن في أنها تضعها في الأفواه بأصابعها العارية، وتتكرر هذه المشكلة عادةً. في حالة رفض هذا الفعل، يكون الرفض إهانة جلية، وأنا أكيدة أن ليس هنالك امرأة إنجليزية قادرة على إجهاد نفسها بأكل الكميات الهائلة من الطعام التي تقدمها مضيفتها بدافع الترحيب، رغم أن الأخيرة تضرب مثالًا رائعًا للشخص المقبل على الطعام. لقد رأيت بالفعل نساء تلك البلاد يأكلن كميات بمثابة ثلاث أو أربع وجبات على الأقل، ويأكلنها دفعةً واحدة. لكن، لنعُد إلى الصعوبة التي واجهتني. اكتشفت أن الخطة المُثلَى أن أتلقى، على الفور، تلك اللقيمة المُقدمة لي، وأحيانًا ما أقبل - إذا أعجبتني - بالثانية وربما الثالثة، وأؤكد لمضيفتي في الوقت نفسه أنها أكرمتني أفضل كرم، وكان للطعام المختار بعناية أثر بالغ في نفسي يدفعني للتساؤل عن الطاهي، وهكذا أستخلص منها بعض المعلومات. هكذا محوت سريعًا الانطباع المُكوَّن مسبقًا أن العشاء لن يكون لائقًا كفاية ليرتقي لذوقي، ولم أترك سوى تعليقٍ واحد: «أن الإنجليز يأكلون أقل بكثير مما يأكل المشرقيون» وأصحب تعليقي بالندم على أنني غير قادرة على تناول المزيد بسبب طبيعتي الإنجليزية، ثم أختم خطتي برسم تعبير من استمتع بالعشاء الشهي.

لم أجد قطَّ صعوبةً في التعامل بسلوكيات وأخلاقيات الشرق، وأعتقد - بالنظر للطريقة اللبقة والمُرحِّبة التي دائمًا ما أُستقبل بها وأُعامل بها، والإلحاح الدءُوب على عودتي مرة أخرى، أنني قد فهمت كيف أُسعد هؤلاء القوم. من آرائي المفضلة والراسخة التي تربيت عليها أن القليل من المراقبة لأخلاقيات وعادات الآخرين ستُجنبنا الاختلافات حول التُّرَّهات التي تُزعج المجتمع، والتي أحيانًا ما تقطع أوصال الصداقة. هنا، في مصر، وجدت بلا شك ميزة ممارسة هذه المراقبة، وقد أثبتت بكل السبل قدرتها على توفير سُبل عدة لجذب الاهتمام والاحترام معًا.

أعتقد أنه من الممتع لك أن تسمع عن تجهيزاتنا المنزلية لوجبة العشاء. في البداية، تُفرد سجَّادة صغيرة على الحصير المفروش سَلفًا، ثم، توضع منضدة مُصنفرَة بعرق اللؤلؤ(65) فوق السجادة وتكون المستقر لصينية دائرية كبيرة من النحاس يوضع فوقها عشاؤنا، ورغيف خبز لكل فرد. بعد ذلك تُحضر خادمة دورقًا نحاسيًّا وحوضًا من النحاس، وتصبُّ المياه فوق يد كُلٍّ منَّا، ثم نجلس حول الصينية، وشراشف الطعام المشرقية مفرودة على رُكبة كل واحد منا. تلك الشراشف أكبر من نظيرتها الإنجليزية المستخدمة على طاولتنا؛ لدرجة أنها قد تُغطي كلتا الركبتين عند الجلوس على الطريقة التركية. خلال الوجبة، تحمل الخادمة قنِّينة من الماء، أو تدافع عنَّا أمام هجمات الذباب والبعوض. بما أننا لا نُبدل الأطباق أو السكاكين أو الشوكات أثناء الوجبة فلا يضيع وقت طويل في العشاء، وغالبًا ما نستغرق عشرين دقيقة فقط في تناوله. وهكذا نوفر الكثير من الوقت النفيس بتجنب

الكثير من الأعمال البيروقراطية على المائدة. يوضع صحن أو صحنان من الحلوى على الصينية إلى جوار صحون الأكلات المالحة، ومن الطبيعي أن ترى نساء هؤلاء هذه البلاد يتناولن لُقيمَة من صحن الحلوى وأخرى من صحن الطعام المالح متتابعتين. بعد العشاء مباشرة، يُحضر الدورق والصحن ويدور حول الجلوس لغسل الأيدي، ثم تُرفع المنضدة والسجادة وبالطبع الصينية، تُوضع المنضدة في غرفة أخرى حتى تُطلب مجددًا. هناك شيء اجتماعي بشأن طريقة الجلوس حول الطاولة، ومن المدهش رؤية عدد الناس الذين يمكنهم الجلوس مرتاحين حول هذه الصينية الصغيرة. أود لو أنصحك أنت وأصدقاءَنا الإنجليز الآخرين أن يستمروا في تناول الطعام على طاولات دائرية صغيرة، لقد ندمت أحيانًا أن تلك الطاولات أصبحت عادة قديمة؛ لأن، لأسرة صغيرة، تلك الطاولات تبث راحة متناهية أكثر من الأخرى الضخمة المربعة أو المستطيلة المستخدمة حاليًّا في إنجلترا.

الحقيقة، التي يمكنك استنباطها، أنني أحيانًا أستمتع بمكانتي؛ خاصةً حين يحصل حدث ضخم في الحرملك، مثلًا مرور رجل عبر الرُّواق التابع للحرملك. دائمًا ما يُعلن عن اقتراب الرجال من الرُّواق بنداء مسموع: «يا ساترا!» و «دَسْتور»، ويتكرر النداء عدة مرات. عدا تلك المناسبات القليلة، لا يدنو رجل من الحرملك سوى السقَّا وهو حامل المياه، أحيانًا ما أظن أن أي شخص يفهم العربية، ولكن لا يملك أدنى دراية بعادات هؤلاء القوم، سيظن أن هؤلاء السُّقاة هم في الحقيقة مريدون، وذلك بسبب الابتهالات الدينية التي دائمًا ما يرددونها. الرجال دائمًا حريصون على تجنُّب الحرملك، تمامًا كحرص النساء على تغطية وجوههن، وبالطبع في حالات كثيرة، يكون الرجال أكثر حرصًا. لقد سرَّني عناية واحد من خَدَمِنا الذي عاش لفترة طويلة مع عائلة تركية، وأصبح بذلك خادمًا بطباع الأتراك. في واحدة من المناسبات، حين عُدت إلى المنزل من نزهة مع أبنائي، ألقى بي الحمار - دون مبالغة - عن ظهره فور دلفت إلى الساحة، وحين عاونني هذا الرجل على النهوض (لأن رأسي كان قد ارتطم بالأرض)، استندت بيديَّ لبرهة إلى الجدار، وأكَّدت لأبنائي المرتعدين أني لم أتعرض لأي أذى، وقد تناسيت تمامًا أن يدي عارية، ليس فقط لنظر رجالنا بل ونظر كل مَن يملك الحمارا! سريعًا ما ذكَّرني هذا الخادم بطبيعة المكان حيث نقف، وبمدى وقاحة هذا التعرِّي حين - بأدبٍ جَمّ - ألقى الحبَّارة على يدي العارية، وأحكم غلق الثوب جيدًا حول جسدي ليمنع الرجال من فرصة ثانية ليتمتعوا برؤية أناملي.

لا يمكن لأحد تخيُّل مدى تشدُّد الحرملك دون أن يحيا في عزلتهم، ولا يمكن لأجنبي أن يتخيل مدى الحرية التي يتمتع بها النساء - دون اختلاط - في المجتمع المشرقي. هناك أمر واحد مؤكد، حين يكون الزوج طاغية تكون زوجته أمَةً له، ولكن تلك الحالات نادرة. لا أدَّعي أنني أدافع عن نظام الزواج الأعمى - أي دون أن يعرف الزوج زوجته والعكس؛ وكذلك لا أتطلع لتلك الزيجات السعيدة في إنجلترا، لكنني مسرورة لمعرفة أن نساء المشرق مرتاحات، ودون استثناء خاصةً بين دائرة معارفي، مبتهجات؛ لدرجة تجعلني أستنتج أنهن يُعاملن معاملة طيبة. نساء الطبقة الوسطى لهنَّ الحرية في التزاور، والذهاب إلى الحمَّامات، وقتما شئن، لكن آباءَهن وأزواجهن يعترضون على تسوقهن؛ لذلك تأتي

السماسرة النساء في زيارات شبه دورية إلى الحرملك. نساء الطبقة العليا يُفرض عليهنَّ حماية أكبر، وتلك الحماية إشارة واضحة على تميُّزهن، ويهنئ النساء بعضهن عليها. من الرائج أن يطلق الزوج على زوجته لقب للتدليل تعبيرًا عن مفاتنها المخبَّأة، مثل «اللؤلؤة المكنونة».

تحيا في حَيِّنا، امرأة عجوز من المريدات، حياتها تبدو كحياة دبورة(66) التي تطلق أحكامها من النافذة على كل القضايا المطروحة عليها. وقع حادث من عدة أيام سيثبت لك أن النظام الذي وصفته ليس مقيدًا لطبقة اجتماعية معينة. رجل شاب في الحي خطب فتاة يافعة للغاية، بعد نصيحة واحد من أصحابه، دون أن يرسل أيًّا من أقاربه النساء ليتأكدن من ملاحة مظهرها، أو قبحه. وبينما اعتمل القلق في صدره بصدد تلك المسألة، أرسل، بعد يومين من الخِطْبَة، صديقةً أكدت له أن عروسه عوراء، ومظهرها يُرثى له، وأنها بكل السبل لا تليق لتصبح زوجته. الرجل الذي رشحها له كان متزوجًا، واتهمه العريس بذنبه: الإهمال؛ لأنه لم يتأكد عين اليقين ما إذا كانت العروس عوراء أم صحيحة البصر، ولأنه لم يرسل زوجته لتتحقق من صحة الأمر. ولأن صاحبه كان الأكثر حماسًا لتلك الزيجة، أضحى أكبر المذنبين. هذا ما طرق ذهني حين ذكرت دبورة. حين سمعت صاحبتنا القصة قالت: «يا بني، لِمَ تجبر نفسك على خطبة امرأة لا تعرفها أمك ونساء منزلك؟»، أجاب الشاب بنبرة كئيبة: «لقد ذهبن بعد خطبتي لرؤيتها، ولكنهن أُجلسن في غرفة مظلمة، ولم يستطعن التأكد من حقيقة عينها العوراء، وفي الحقيقة، آه يا أماه، لقد ابتعت لها عدة أثواب، ودفعت أربعمائة قرشٍ مهرًا لها، كل مدخرات الشهور.»، سألته العجوز: «هل للفتاة ميزة تدفعك لدفع هذا المبلغ نظير مهرها؟»، رد العريس: «لا، ولكنها تنتمي لأسرة من طبقة أعلى من أسرتي، يملكون المنازل، والأراضي، ومُلك كبير.»، قالت العجوز: «المُلك لله،» وانسحبت من اللقاء. فيما بعد سمعنا أن عائلة الفتاة سمحت له - بسخاء - أن يرى وجه الفتاة في حضور أمها، وقد عقد العريس مقارنة بين المنازل والأراضي والأملاك ووجه خطيبته، واستنتج في النهاية أن عيبها لا يُذكر.

(64) ملحوظة المترجمة: الإنجيل، غل ٦:٢.

(65) ملحوظة المترجمة: معروف أيضًا باسم أم اللؤلؤ، وهو عبارة عن مجموعة من المواد العضوية وغير العضوية يُدهن بها الخشب لصنفرته وتزيينه.

(66) ملحوظة المترجمة: دبورة وفقًا للعهد القديم، سِفْر القُضاة، هي قاضية وحاكمة، وتُعد المرأة القاضية الوحيدة التي تحدث عنها الإنجيل.

الرسالة الثامنة عشرة

أبريل، ١٨٤٣.
صديقي العزيز،

أؤكد لك أن العبودية في الشرق ليست ما تتخيله عنها. هنا، ربما، العبد يملك قوة أكبر من السيد في الغرب، وهناك بعض الوحوش، الذين فقدوا إنسانيتهم، يستغلون تلك القوة أسوأ استغلال وبصورة شرعية، لكن، أتحدث عمومًا، العبد الشرقي منغمس في اللذَّات لأبعد حد، والكثير من أولئك الذين انتُزعوا من الوالدين بوحشية في سن مبكرة، يجدون الأب والأم في أسيادهم الجُدد. غالبية العبيد حسنو المظهر والهندام، يتناولون أجود الأطعمة، ومسموح لهم بالانغماس لدرجةٍ من الأُلفة مع أسيادهم قد تدهشك. لو هذبوا تعاملاتهم، عادة ما يُزوج السيد عبده لأناس أصحاب سمعة حسنة، ويُعقد حفل زفاف أمَة من إماء حرملك الأعيان في أبهى حُلَّة. من المعتاد أن يعرض السادة على بعضهم عددًا كبيرًا من الآمِ والمُحظيَّات، ليتخيروا منهن المُناسِبة للزواج. أحيانًا ما تشعر الآمُ بالكبت بسبب طردهن من منازلهن القديم، ويفضلن عدم مغادرتها، ولكن على أيَّة حال من المعتاد أن يكون هذا الزواج بغرض المتعة الخالصة، وجرت العادة في الشرق أن ترضخ النساء للزواج - من رأس الهرم الاجتماعي لأسفله، والحقيقة أن اختيار السادة أزواجًا للإماء يعزز من رغبتهن في الموافقة، ويحثُّ لديهن شعور الامتنان. في يوم الزفاف، ترتدي الأمة أبهى الملابس، بينما يُفرد في الحرملك التي تنتمي إليه، أوشحة من الكشمير، وأحيانًا قطع قماش من خيوط الذهب على الأرض ليسرن عليها. تشارك النساء في الاحتفالات بالرقص والغناء، تحمل بعض الفتيات المباخر، والبعض الآخر يحملن العطور الفوَّاحة، ويساعدن كل عروس. لقد سمعت وقرأت بالطبع عن الرقص العربي، المتجرد من الرقة، لكن الرقص في الحرملك التركي ليس محط ازدراء. تستلقي الفتيات على الأرض بدلال يحفُّه الحياء، ويرفعن كعوبهن بمهارة مسلية فوق رؤوسهن، ليس عرضًا مُرْضيًا ولكنني على الأقل لا أراه مُقزِّزًا.

لا يمكنني الثناء على الغناء لأن النساء يخترن عادةً مقامات مرتفعة تشبه الصراخ أكثر من الغناء. أحيانًا ما أظن أن بعض التعديلات الحميدة ربما تجعل الأغاني مقبولة، ولكن الآلات الموسيقية في هذه البلاد تمُتُّ لكل شيء عدا الموسيقى، وتتعارض تمامًا مع غاية التناغم. أصوات المغنيات بديعة، وستكون مثالية تحت عناية الثقافة الأوروبية، يتسم المُؤدُّون بحماس واضح يشير لحبهم للفن، لكن ما زال المستمعون يتسمون بحماسٍ أكبر.

حين تتزوج أَمَة من الرجل الذي اختارها لنفسه، يكون غالبًا هذا الرجل وحيدًا، وعادة ما تتعامل المرأة - على استحياء - أنه ملكٌ لها.

لقد استمعت كثيرًا بقراءة «وصف فارس» مؤخرًا، يصف عددًا من السكان الأصليين للبلاد (ومن ضمنهم أشخاص يشغلون مناصب عليا في الحكومة، وهم بالتالي نبلاء البلاد) يتحدث عن حرية وقوة نسائهم. وأنا أميل لتصديق قولهم لأن النساء، على أصعدة مختلفة، لهنَّ سلطة بين الطبقات الاجتماعية العليا في الشرق. في إنجلترا، لدينا معتقد أن الزوج في الشرق هو السيد والآمِر الناهي، وهو كذلك في حالات عدة، لكن سيُدهشك حين تعلم أن رب البيت قد يُمنع من دخول الحرملك ليوم أو عدة أيام؛ لأن زوجته - أو أزواجه - تركت مداسها خارج باب الحرملك، في إشارةٍ تدل على وجود زائرين في الداخل. بالطبع قد يملُّ الزوج أحيانًا من ذلك الحرمان، ويمنع، وهو حقه، تلك الزيارات المتكررة، ولكن حين يفعل ذلك يجلب على رأسه مصائب عديدة. هناك بلا شك حل للحد من تلك المصائب، ولكن الطلاق نظام تعيس! من قد يدافع عنه؟ بعدما أصبحت الزوجة أُمًّا، بالكاد يستطيع الزوج تطليقها، ولكن قبل أن تنجب تتعدد حالات الطلاق، وتبدو سهلة يسيرة.

بين الطبقات الدُّنيا، بعض الأزواج طغاة بصورة مُحزنة. الصدق أن العديد من الرجال يتزوجون من فتيات صغار، يبدو أنهن بناتهم أكثر منهن أزواجهم؛ وبالتالي، عن نقص خبرة، تستفز تلك الفتيات أزواجهن. وفي هذا الصدد دعني أخبرك أن ديبورة - العجوز جارتنا - لديها حفيدة من أعنَد النساء اللاتي قابلتهن، ومما لا شك فيه أنه بلاء على رأس العجوز. هذه الطفلة معتادة سَبّ خدم الجيران، ومنذ عدة أيام استخدمت لغة عدائية واضحة ضد رجل كان يجلس في مدخل منزل سيدها. شعر الحارس باستفزاز هائل لِمَا فعلته، وعلى الفور قال: «حين أحظى بمزيد من المال، سأتزوجك، وأعاقبك على ما جنيته كل يوم.» تلك الطريقة الانتقامية جديدة حقًّا على مسامعنا نحن الأوروبيين.

الأسبوع الماضي، زُفَّت عروس عبر طرقات حيِّنا، كانت بالكاد تبلغ من العمر عشر سنوات. ولأن الفتاة ظنت الأمر برُمَّته مزحة كبيرة، كانت فاقدة لزمام أمورها، وبدلًا من السير أسفل المظلة المُوشَّاة بالزخارف المخصصة لها، والسير بجوار اثنتين من صديقاتها بينما تتبعها امرأة تحمل مروحة من الريش توفر لها التهوية الملائمة، أصرَّت الفتاة أن تسير خلفهن جميعًا، وتوفر لهنَّ هي التهوية. هذا قد يمنحك لمحة عن طبيعة الأطفال اللائي يتزوجن في هذه البلاد.

وظيفة نساء الحرملك كانت مقتصرة في البداية على الغُرَف المستطيلة المُدعمة بأربعة أعمدة، ولكن وظيفتهن امتدت فيما بعد لتشمل الإشراف على المطبخ، وبلا شك الإماء ونساء الخدم بصورة عامة. عادةً ما تطبخ نساء الطبقة العليا أطباقهن المفضلة بأنفسهن. الشربات على سبيل المثال تصنعه سيدات المنزل، وهذا كان الأمر الذي شهدته في واحد من الحرملك الذي سبق لي زيارته حيث النساء، أصحاب المكانة، هم من أرقى طبقات المشرق. شربات البنفسج يُعد كالتالي: تُحضر زهرات البنفسج للنساء على صينية من الفضة، وتشرع الإماء في نزع الأوراق من الزهرة، ثم تضع السيدات قلب الزهرات في قدور صغيرة، ويضغطنها تمامًا حتى تتحول الزهرات لسائل، يُخلط السائل بسُكر مُكرر نقي، ثم

تشكل السيدات من هذا الخليط كعكًا صغيرًا ويُحفظ لحين تماسك قوامه، ويصبح أشبه بأرغفة سكر صغيرة مصبوغة بلون أخضر. تلك القطع الصغيرة تصنع شربات أخضر لامع اللون، وهو أفضل مظهرًا من الأزرق والوردي، وله مذاق لذيذ. لا أعلم مِمَّا يُصنع الشربات الأزرق، ولكن أُخبرت أنه توليفة خاصة يدخل في صناعتها البنفسج أيضًا، أما الشربات الوردي فعادة ما يُصنع من الأزهار، والأصفر مصنوع من البرتقال أو المُشْمُش... إلخ من الفواكه التي تصبغ الشراب باللون الأصفر. إنه لمن الحمق أن أشرح لك أنواع الشربات المختلفة، ولكن ما ذكرته سيمنحك فكرة عن تلك المشروبات الصيفية المُرطِّبة. لصناعة الشربات توضع ملعقة طعام كبيرة من السائل وتُذوَّب في ثلاثة أرباع لتر أو نصف لتر من الماء، لتصنع لك أفضل شراب مُرطب.

سيُدهشك حين تعرف أن ابنة الباشا، التي لا يجرؤ أحد من النساء أن يرفعن رؤوسهن في حضرتها، تُشرف بنفسها على تنظيف وتلميع رخام أروقة قصورها. تقف - في هذه المناسبة - عارية القدمين على سجَّادة مربعة صغيرة وفي يدها قضيب من الفضة. يحيطها نحو عشرين عبدًا، نصفهم يسكب الماء والنصف الآخر يمسح الرخام بعناية، ثم يُصنفره بأحجار ناعمة.

من المُجحِف أن النساء - في الأعمال اليدوية - لا يلعبن سوى دور المأمور. لا يجب أن أتعرض ولو جزئيًّا عن براعتهنَّ في التطريز، حيث يُطرِّزن أشكالًا بديعة - أفضل من أفضل عمل يدوي صُنع في إنجلترا. عملية التطريز تشي بذوق رفيع خلال صناعتها، وعلى صعيدٍ آخر، مشابه، يبدو هذا الذوق الرفيع في جوانب أخرى مثل زخارف العمارة العربية، وللألوان النصيب الأكبر من بهاء تلك الزخارف، فهي لا تُختار بصورة عشوائية.

أعمال التطريز التي تتم داخل الحرملك أفضل من أي أعمال أخرى، وعادة ما تتضمَّن التطريز باستخدام أحجار كريمة، غالبًا الماس واللؤلؤ والزمرد والجواهر. بنطال الديباج الضخم عادةً ما يُطرز بالعديد من الجواهر، ويُزخرف بالرسومات. أما «السالتة» (السترة الصغيرة) تتميز بأفضل زخارف وأعمال تطريز قد رأيتُها في أي ثياب. ملابس الشتاء عادةً ما تكون من القطيفة أو القماش الثقيل ولا غنى عن وجود خيط من الحرير. السالتة المصنوعة من الحرير الفاخر يتم ارتداؤها خلال الخريف والربيع، أما خلال الصيف، فيبدو أن ارتداء الملابس المصنوعة من القماش الأوروبي الخفيف مُعتمَدة عالميًّا، وهي الثياب الوحيدة التي يمكن تحمُّلها خلال حرارة الصيف المصري المرتفعة.

عدد قليل من النساء قادرات على القراءة والكتابة - الأغلبية تجهل حتى لغتها الأُمّ. ولكني أعرف مع ذلك بعض الاستثناءات. في واحدة من الأُسَر، هناك فتاة تعلمت جيدًا على يد أخيها الذي أكمل دراستها في أوروبا. وجدت في مكتبتهم أعمال الشعراء الإيطاليين الأوائل، وأفضل كتب الأدب التركي، وهم لم يقرءُوا تلك الكتب فقط بل وفهموها عن ظهر قلب.

الرسالة التاسعة عشرة

القاهرة، يونيو، ١٨٤٣.
صديقي العزيز،

هناك تحذيرات بتفشِّي الطاعون في القاهرة، وقد عُزلت العديد من حرملك المنازل. تم استنباط الأمر بسبب تفشي طاعون الماشية بضراوة خلال الأشهر التسعة الماضية، وقد ثبت في السنوات الماضية أن التالي له يكون دائمًا تفشي طاعون ضارٍ.

ذكرت لك من قبل أن هذه المصيبة من أكثر المصائب المكروهة في البلاد، وقد حلَّت - بشكل أو بآخر - علينا. في المنصورة، ازدادت أعداد المصابين بالطاعون بشكل ملحوظ، وبينما أتحدث عن هذا الموضوع يجب أن أخبرك حقيقة استثنائية، والتي ستثبت لك أن من رَحِم المعاناة يولد الأمل. وصل عدد من الروس إلى المنصورة لدراسة طبيعة المرض. وكتجربة لإثبات ما إذا كان الطاعون مُعديًا أم لا، استأجروا البعض لارتداء ملابس الذين قتلهم المرض، ودفعوا لهم خمسة قروش يوميًّا نظير هذه المهنة. يُعد هذا الأجر ثمينًا، يعادل عندنا شلنًا يوميًّا! يعتبر فقراء هذه البلاد نصف القرش يوميًّا مبلغًا ملائمًا للعيش، والحفاظ على حياتهم، في رأيهم الشخصي، هذا المبلغ التافه يكفي، فما بالك بالرقم الخرافي الذي عرضه الرجال الروس، حتى نظير تكبُّد هذه المخاطرة. مع ذلك، هم لم يُقدِّروا قدر المخاطرة التي هم بصددها. تدفق الفقراء على الأطباء الروس من أنحاء المدينة كافة، وعرضوا خدماتهم لارتداء ثوب الطاعون. أصرَّ رجل طاعن في السن على طلبه قائلًا: «أنا رجل عجوز فقير، ولديَّ أسرة أعولها، لا ترفض طلبي، أستحلفك بأعز ما تملك - حياتك - دعني أرتدِ هذا القميص.» كما تجمعت النساء حول منزل الأطباء حيث خُيِّل لهن أن رجالهن سيحصلون على النقود، فجئن ليباركن مسعاهم، ولدعمهم ودعم أبنائهم. حين لاحظ رئيس الأطباء التجمهر حول مسكنه، خرج إلى الناس وسار بينهم، خلع قبَّعته، وبايماءة مهذبة، حيَّا زواره كحيلي الأعين، حينها صدحت الزغاريد تشق عنان السماء.

لم يمُتْ أيٌّ من «مرتدي القميص» رغم أن الأطباء (الذين انتظروا نتيجة تجربتهم) سجلوا ارتفاعًا ملحوظًا في درجة حرارة أصحاب القمصان. لكن على أيَّة حال، لم يمُت أي من الفلاحين الفقراء، ونجوا ليعودوا لحياتهم، لكن مات واحد من الأطباء. كيف مات، هو سؤال جدلي بلا شك، ولكن المهم أن أصحاب القمصان فرُّوا من الموت، وكان ذلك انتصارًا هائلًا لغير المصابين بالمرض في القاهرة، ومنه يمكننا جميعًا أن نتعلم أفضل سمات هؤلاء القوم.

في بيت أحد تجار القاهرة، مات مؤخرًا واحد من العبيد متأثرًا بإصابته بالطاعون، ووفقًا لما جرت إليه العادة، عُيِّن رجل من الدَّرَك على الباب ليفرض حَجْرًا صحيًّا صارمًا على

ساكنيه. لم يستوعب التاجر هذه القيود، وشاء أن يسترجع حريته في الخروج من منزله والعودة إليه متى شاء. بالتالي، هاجم بضراوة سجَّانه المؤقت قائلًا: «أنت تعلم، يا أخي، أنني تاجر، وبالتالي عملي كله يقتضي مزاولته في الأسواق، ومن الضروري أن أكون هناك. دعني أذهب، أتوسل إليك، وسأُعين غيري ليحل مكاني. فكر في أمري بكرمك البالغ.» ختم حديثه ووضع في يد السجَّان قطعة معدنية بقيمة تسعة قروش، وحينها شعر السجَّان بشفقة واضحة على الرجل، وتطورت الشفقة لأفعال فتمكن التاجر من تحقيق غايته، وأحضر غيره ليحلَّ محله في الحَجْر الصحي!

منذ فترة طويلة أخبرتك أنني أخشى أن يدفعنا الطاعون، هذا العام، على الرحيل إلى صعيد مصر. ولكن لم تصل الأمور قط لهذا السوء، على صعيد آخر كُنا في حال قلق مستمرة، ونتساءَل دائمًا عن الأمر، ولم نسمع أن الحالات ازدادت في المدينة، حتى انقضى وقت الخطر.

هي حقيقة حزينة أنه خلال مُقامنا في البلاد لمدة تسعة أشهر، زار مصر ثلاثة من أضرى الأوبئة - طاعون الماشية، الطاعون، وهجمات الجراد. دمر الأول ماشية تُقدر بمبالغ طائلة، والثاني لم يحتدَّ في انتشاره وتأثيره كالعادة، أما الجراد فلا يزال يقتات بضراوة مُهابة على الفواكه المزروعة. وُكِّل لفلاحي حدائق إبراهيم باشا وغيرها من الحدائق مهمة إبعاد الجراد إما بإلقاء الحجارة عليها، أو بالصراخ أو دق الطبول وغيرها من الأفعال التي تُبعد الحشرات الطائرة.

ذِكْري لحصة هؤلاء القوم اليومية من النقود سيُثبت لك قدر القوة التي يملكها أصحاب الدخل المتوسط ليستغنوا عن راحتهم في سبيل عدد معقول من الفقراء المُمتنِّين، ومع ذلك لا يمكنك ألَّا تلاحظ الأعمى والعليل والمُسّن الذي يتجول طالبًا العون في شوارع القاهرة، وحينها يختلج التَّوْق في نفسك لتوفر لهم أبسط احتياجاتهم.

أولئك الذين «فوق خط الفقر» يمكن أن نعدَّهم، عدا نسبة ضئيلة، من الفقراء حسب المعايير في إنجلترا، ولكن، على عدة أصعدة، فهم يتعاملون مع ممتلكاتهم القليلة بأغرب الطرق الممكنة. رغم أنهم لا يهدرون قط لقيمة طعام، أحيانًا يسرفون في الأمور التوافه، بدافع التباهي الخالص. منذ فترة وجيزة تلقينا من حانوت طردًا صغيرًا بطول الشبر، وحولها عُقد حبل بطول أربعة وسبعين قدمًا؛ لدرجة أن ورقة التغليف ذاتها بالكاد تراءت لنظرنا أسفل هذا الحبل الطويل، ولم يكن هناك داعٍ، كما ستفكر، في هذا الحبل الطويل؛ ذلك لأن محتوى الطرد لم يكن باذخًا بل يُكلف عدةَ قروش.

يقدم الطقس لنا أنماطًا شتى منهكة للغاية، ويحاول الناس بقدر الإمكان تخفيض جهدهم قدر المستطاع (لو كان في مقدورهم العمل في منازلهم لا يترددون)، ولكن على أيَّة حال، كما ذكرت لك من قبل، لا يستطيع الناس بذل قُصارَى جهدهم في هذا الطقس. أنا أحب

العرب بشدة، وأسعد للغاية بجولاتي بينهم حيث ألحظ كرمهم وأدبهم، وتُضفي الصفتان سحرًا خاصًّا على أخلاقياتهم. من المثير مشاهدة اثنين من الفلاحين يتقابلان، يُظهر كلاهما للآخر ودًّا عظيمًا، يتبادلان المزاح، ثم يودعان بعضهما البعض بسلامات متبادلة.

كنت أتجول منذ بضعة أيام وفاجأني مشاهدة عرض مبهر ضمن احتفالات زواج فلاح بسيط. حين دنوت من منزل العريس، مررت أسفل عدد من الأعلام المصنوعة من الحرير الأحمر والأخضر، تمتد بعرض الشارع، فوق تلك الأعلام تدلت سبع ثُريَّات ضخمة ملونة المصابيح، ومن سطح منزلٍ لآخر امتدت قطع قماش خضراء هائلة، وفُرت للمارَّة عريشة ظليلة. أما العروس فكانت تُزفُّ ترتدي شالًا من الكاشمير الأحمر، يحفُّها العديد من الأصدقاء ويلحق بها امرأة تحمل مروحة من ريش، وتسير العروس أسفل مظلة وردية.

الغريب سيظن أن هذا الاحتفال الباذخ يشي بحُسن ضيافة جَمّ، لكن الأمر ليس كما يبدو، لقد دُهشت حين سمعت النظام الذي اتبعه هذا الحفل. الفلاح، على سبيل المثال، سيبتاع اثنين من الخراف، وجوالين من القمح، وكمية من الزبد، تلك العناصر لا غنى عنها في أي محفل ينظمه أبناء الطبقة الدُنيا في مصر. ثم بعد ذلك سيبتاع أنواعًا مختلفة من الفواكه، وفقًا للفصل الذي يُقام فيه المحفل، وكميات من التبغ والقهوة، ثم، لتسلية الحضور، سيُحضر المطربين، وعددًا من الراقصات. ولينظم الفلاح هذا المحفل الباهظ، هو مُضطر لاقتراض المال، ثم خطوته التالية أن يدعو أقاربه كافة ، وأصدقاءه ومعارفه. ويشعر المدعوون بضرورة قبول الدعوة، ولا يمكن لأحد أن يحضر العرس دون جلب هدية؛ وبالتالي، في نهاية الاحتفال، يجني العريس عادةً مغانم كثيرة. مع ذلك يجبره أصدقاؤه على دفع ما قد اقترضه بالفعل. بالتالي، الكرم وحُسن الضيافة لا صلة لهما بتلك المظاهر. المباهاة وحدها هي التي تدفع العريس لإعداد هذا الاحتفال.

في صباح عُرْسه عادةً ما يصحب العريس أصدقاءَه إلى الريف أو حديقة حيث يحتفلون معًا، وعادةً ما يتسلون بالغناء والرقص. تكاليف هذا الحفل الغنائي، بالطبع، تقع على عاتق العريس.

يكنُّ المصريون شغفًا خاصًّا بالحدائق والمياه. حتى المياه الراكدة، إذا كانت عذبة، يعتبرونها رفاهية، أما المياه الجارية، حتى لو كانت قذرة، فهي رفاهية كبيرة، وحين تمتلئ قنال القاهرة - خلال الفيضان - تضجُّ منازل الضفتين بأناسٍ يجلسون لساعات طويلة يدخنون التبغ أمام المياه الجارية، لكن أعلى درجات نشوتهم يتحقق حين يجلسون بالقرب من نافورة، هي بالنسبة إليهم «قطعة من الجنة».

لَكَمْ تمنيت لو حظينا برفاهية تساقُط الأمطار الخفيفة هنا في مصر، مع ذلك، يُسرِّي أحد أبنائي عني ويُلبي لي تلك الرغبة، فيضع أصيص زرع على حافة نافذة الطابق العلوي

ويسقيها، ويستهلك لهذه الحيلة كمية كبيرة من المياه، وهكذا تسقط قطرات منعشة على النوافذ السفلى وتغسل شجرة التوت، وتمنحني هدوءًا بديعًا.

بالحديث عن شجرة التوت، كانت تلك الشجرة محل إعجاب الرجل الذي وصف لنا هذا البيت قبل أن نراه، لقد قال، بعدما أكد أن الإقامة في المنزل مناسبة، «هناك شجرة في الباحة!». وبينما نسي الرجل نوع الشجرة، ذكر صَلِّ على النبي (كما يفعل هؤلاء الناس لإنعاش ذاكرتهم)، وأردف «شجرة عنب.».

لا أستطيع كتابة المزيد في هذا اليوم القائظ، وحتى لو تناسيت الحرارة، ستُذكِّرني الببغاوات الصغيرة المسكينة؛ لأنها تحلِّق دخولًا وخروجًا عبر نوافذنا العريضة بحثًا عن الظل. يبدو أنها غير قادرة على تحمل الحرارة الحارقة، وتطوف حول المياه والطعام الموضوع لها في الشرفة، بينما تثير شفقتي بسبب معاناتها أمام الرياح الحارَّة، وأفكر في نقلها إلى إنجلترا. مع ذلك، لا أعتقد أنها ستكون في مأمن هناك كما حالها في مصر. لم أشهد هنا أي قسوة غاشمة، ألمس قدرًا كبيرًا من الرحمة والمعاناة في شخصيات القوم، ولا أظن أن العرب، بصفة عامة، تعمدوا يومًا الإيذاء.

الرسالة العشرون

يوليو، ١٨٤٣.
صديقي العزيز،

منذ أن وصفت لك المباهج التي شهدتُها في زيارتي للحرملك المختلفة، زرت حرملك واحدًا يخصُّ رجلًا تركيًّا، وكان استثناء حزينًا، وصورة صارخة لحب العائلة والسعادة الخَجْلَى. يقع صاحب هذا الحرملك العجوز المحبوب في أزمة حقيقية، حيث أنه يعاني من غضبة الباشا، وقد أُرسل إلى السجن. استقبلني نساء أسرته بترحابٍ دافئ. وقد لاحظت بأسف الحزنَ الجَمَّ الذي أثقل أرواحهن جميعًا، وقد صدمني أن أسمع من كبيرة الحرملك أنها بدورها قد سُجنت لبعض الوقت، وهي مُلزمة الآن بالسجن الإجباري داخل منزلها.

كانت ترتدي ما يشبه رداء صباحيًّا أبيض، مُزخرفًا بخيوط سوداء، وتُوِّجت بتاج بديع(67). كان التاج له قاعدة من الذهب وترصعه الماسات المتداخلة في شكل أزهار، والهيكل له دائري يبلغ طول قطره ستة إنشات تقريبًا. ارتدته السيدة فوق رأسها وألحقت به قطعة قماشية حولها عُقد المنديل، الأنيق، وبدت في حُلَّة بديعة. وقد كانت الماسات متقاربة لدرجة جعلت ثنايا المنديل المتداخلة مع التاج تزيد، كما الذهب الأصفر الذي ترصعه الماسات، من بهاء المظهر. على مسافة من السيدة، سيبدو التاج لفيفًا من الماسات.

حين تحدثت تلك السيدة على أمراض القلب التي تعاني منها، انحدرت الدموع على وجنتيها، ولا أظن أن أيًّا من الحضور - السيدات والآم - لم تغرورق عيناها بالعَبَرَات. في هذه الجلسة جذب انتباهي امرأة بعينها، لِمَا كانت عليه من مظهر وشعر أحمر وعينين تشيان بجذور إيرلندية، لم أرَ من قبل شرقية لها نفس الملامح. وقد وشى وجهها بألمٍ أعمق من ضيق رفيقاتها. تخيلت أنها واحدة من زوجات الرجل التركي السجين؛ لأنها كانت حاضرة بصحبة ممرضة تحمل طفلتها (طفلة ملائكية بديعة) ومعها عدد من الآم. مع ذلك لم تجلس على الأريكة المجاورة «للهانم»؛ أي السيدة الأولى في الحرملك.

تخشى الأمهات هنا بدرجة كبيرة من الشر وعين الحسود، ومن الضروري، حين يتواجد رضيع أو طفل صغير، أن يُقال: «ما شاء الله»، والعزوف عن الحملقة في الصغير، من الضروري قول هذه اللفظة لاستدعاء حماية ومباركة الرب، والكثير من المسيحيين، إلى جانب المسلمين، في البلاد المشرقية يرددون العبارة ذاتها، وهكذا يشيع السرور في نفس الوالدين لأن الابن قد أودع في حماية الرب.

غرف الحرملك تقع في حديقة شاسعة، والزخارف الداخلية تُذهِّب أغلب القصور التركية في البلاد. الجدران مدهونة ومزخرفة بمناظر طبيعية فقيرة تضم صورًا لقصور ومساحات

خضراء.

أخبرتُك من قبل أن حرملك المنازل التي ذهبت إليها كانت السيدة الأولى هي الزوجة الوحيدة، ولكن الآن لا يمكنني أن أتسق مع ذات المعلومة، ولكنني أشاهد وأتساءل - بصفتي امرأة إنجليزية - عن كُنْه هذا التناغم القائم بين النساء بينما جميعهن يحملن الحب للزوج نفسه - لا أود أن أذكر عدد الزوجات.

«حدائق الحريم» ليست أبدًا أماكن مناسبة للنزهة؛ وذلك لأن أسوارها شاهقة الارتفاعة لدرجة لا تسمح بتبدُّل الهواء، وتكعيبات الكروم عالية بحق، مهمة بلا شك لتحجب أشعة شمس الظهيرة، لكنها أيضًا تحجب الهواء الطَّلْق صباحًا ومساءً.

أدهشني خلال زيارتي الثانية لحرملك حبيب أفندي، أن أجد النساء (اللائي لم أزُرْهن من فترة طويلة بسبب انتشار الطاعون) قد انغمسن في الحديث عن السياسة، ويعتريهن قلق بالغ بشأن المناوشات المتصاعدة بين إمبراطور روسيا وابن عمهم السُّلطان التركي. وقد تساءلوا بقلق ما إذا كانت إنجلترا ستُعضِّد من قضية تركيا، وقد سرى بينهم ارتياح حذر متعللين بالصداقة الدافئة التي عبرت عنها إنجلترا للسلطان الشاب، وبالإجراءات النشطة التي تتخذها حكومتنا لإعادة بسط نفوذه على سوريا. وجدت الحرملك يُعضِّدن وبشدة إنجلترا، وما استنتجته أنني أسمع منهن أصداء الرأي العام. حكمي لا ينبع فقط مما أسمع، بل أيضًا من الطريقة المُرحِّبة المُتسمة بتبجيل بالغ التي يستقبلنني بها، وكذلك الوداع الوَدُود للغاية حين مغادرتي.

سبق وأخبرتك عن التهذُّب الجَمّ الذي لاقتني به سيدات الأسرة الحاكمة في هذا الحرملك السابق ذكره. وفي زيارتي الثانية لهُنَّ أربكني الشرف العظيم الذي منحنني إياه؛ حيث تركت لي السيدة الأولى مقعدها الخاص، وجلست إلى أريكةٍ أدنى درجةً مني. كنت مُجبرة على تقبُّل ما منحتني إياه من هبة، ولكني قبلته بالكثير من التحفُّظ.

خلال هذه الزيارة لم أشاهد ما يستحق الوصف، على صعيد الملابس والزخارف، عدا نطاق الابنة الكبرى. كان النطاق عريضًا مصنوعًا من قماش قاتم يميل للون الرَّمادي الشاحب، وتزخرفه بتلات بيضاء صغيرة تُشكِّل كلمات عربية، وله بروش ماسي بديع هو أشبه بمحارتين، وحجمه أعرض قليلًا من عرض النطاق. كما حضرَتْ إلى مجلسنا زائرة أحسست من مظهرها ولقبها أنها من عِلْيَة القوم، وإذا كان الأتراك، كما يقول البعض، يُقدرون الأنثى ممتلئة القوام، فهذه السيدة بلا شك خلَّابة الجمال. نادرًا ما رأيت - وأكاد أكون لم أرَ في حياتي من قبل - بشرًا في مثل حجمها.

واحدة من أجمل النساء اللائي رأيتهن في حياتي هي زوجة شاعر شهير. أحب النظر إلى الوجه المليح، ووجهها كان له جمال لذيذ. كما اتسمت أخلاقها بالتهذب، وكان ترحيبها بحضوري له دفء خاص، أما دعوتها لي لأزورها زيارة طويلة فبدت صادقة وعطوفة.

باستثناء تاجها الماسي، كانت السيدة ترتدي ثوبًا بسيطًا، ومظهرها لا يعكس ما يحتاج الوصف. أتخيَّل أن شخصيتها مصدر بهجة لزوجها وأبنائها. ستعذر اعتزازي وفخري بوطني حين أقول إنها ذكَّرتني بالمرأة الإنجليزية.

منزل أسرة هذه السيدة مُصمَّم على الطراز العربي القديم، ويقع على ضفاف بحيرة في ضواحي المدينة، تحدُّه منازل جذابة التصميم. تقع عدة غرف في الطابق الأرضي، وساحة مُسقفة بالخشب تدعمها أعمدة خشبية، ويظلل السقف الخشبي بتلات الياسمين والعنب. في هذه الباحة يقضي الرجال أوقات فراغهم يتأملون مياه البحيرة. أما في الطابق العلوي فتقع المشربيات (النوافذ الخشبية التي سبق ووصفتها لك)، وتطلُّ مباشرةً على البحيرة.

دعني أنتقل من الزيارات إلى الزوار لأخبرك عن أكثر الضيوف غير المُرحب بهم في منزلنا بالأمس. رأيت، بين الستارة وزجاج نافذة الغرفة التي جلسنا فيها بالأمس، ثعبانًا ضخمًا، طوله يبلغ أكثر من ياردة ونصف الياردة. كان الثعبان يتحرك على الجهة الخارجية من النافذة، ولكنني أيقنت أنه رآني من خلف النافذة حين رفع رأسه وأخذ يحرك لسانه المشقوق. كان له لون البُنّ الفاتح، وفي نهاية ذيلة بقع صفراء فاقعٌ لونُها. كان من المستحيل القبض عليه من موقعه، وبالتأكيد كان أخي الرجل الوحيد في المنزل كله القادر على المحاولة؛ لأن الخدم قد أنهكتهم الخرافات لدرجة أنهم لن يقربوا هذا الدخيل، بل لم يجرؤ أحد الرجال على النظر إليه. بالتالي قررنا ألَّا نلمس الثعبان، وأرسلنا واحدًا من الخدم ليُحضر رفاعيًّا.

في هذه اللحظة بالتحديد كان من العسير إيجاد الرفاعي، رغم أن القاهر تعجُّ بهم. بعد مُضيّ وقتٍ طويلٍ وصل رجل مُسنّ فقير، بالكاد يرى، وقد أزال بالخطأ قطعة قماش كُنا قد حشرناها بين الشقوق لنمنع المخلوق من الولوج إلى المنزل؛ مما زاد من فزعي. خاطب الرفاعي الثعبان باحترام مبالغ قائلًا: «أيها المبارك!» وكررها عدة مرات، فيما بدا أشبه بالدعوة، لكن، تجاهل الثعبان تلك الدعوة كُليًّا، وتلوَّى ببراعة فوق تعريشة الستائر والتف حول إحدى نوافذ الساحة حتى اختفى كُليًّا. بالتأكيد كُنا نُفضل أن نجده رغم التأكيدات التي قدمته لنا بصفته «ثعبان منزل غير مؤذٍ».

قد قرأت بلا شك عن إنجازات الرفاعية المشرقيين وتعجبت بشأن مهاراتهم. مؤخرًا، صديق لنا شهد لمحة من سحرهم، أو لنقُل جاذبيتهم. كان الصديق في منزل واحد من معارفه حين وصل الرفاعي الذي، بعدما أطلق صفيرًا قصيرًا واستعدادات سخيفة أخرى، استدعى الثعبان وقال: «أردك باسم السيد سُليمان (يقصد سليمان بن داود)، الذي حكم الإنس والجان (الجني)، لو أطعتني، تعالَ إليَّ، لا تؤذني!» بعد صمت قصير، هبط ثعبان من أحد شقوق الجدران في الغرفة، واقترب من الرجل، الذي بدوره حمله ووضعه في جَعْبَته. لم تظهر أي ثعابين أخرى، وهكذا تقرر أن المنزل أصبح خاليًا منها، وقد سأل صديقنا

الرفاعي أن يصحبه إلى منزله. بالكلمات ذاتها استدعى الرفاعي الثعابين في منزل صديقنا. وكانت النتيجة واحدة، حيث حضرت الثعابين مستسلمةً إلى الرفاعي.

أما بخصوص الثعبان المقيم في منزلنا، دعني أقُل، كما يقول المسلمون، لنحمد الله أنه ليس عقربًا. فلسفتهم - المسلمون - هي درسٌ لنا.

مؤخرًا، لُدغ العديد من الجيران المساكين من العقارب، وقد أرسلنا لهم بعض بيكربونات الأمونيا ليستخدموها في إبراء جراحهم، وكانت أفضل علاج لتلك اللدغات.

توفر القاهرة، بسبب منازلها المهدمة العديدة، أعشاشًا لا تُحصى للزواحف السامة، وهجماتها أصبحت متصاعدة متأخرًا؛ لدرجة أن الباشا أصدر أوامر بإجراء ترميمات وإصلاحات موسعة في مختلف أنحاء المدينة. سوف يتم طلاء المنازل من الداخل والخارج باللون الأبيض، الذين يسكنون منازل خربة عليهم إما إصلاحها أو بيعها، والمساكن غير المأهولة سوف تُهدم بغرض تحويل أرضها إما لميادين أو حدائق، سيتم منع المشربيَّات وإزالة المصاطب. وهكذا لن تصبح القاهرة مدينة عربية بعد الآن، وستفقد المدينة المَيِّزات الأساسية التي تمنحها جاذبية خاصة. الظلال الكثيفة التي توفرها المشربيات للشوارع الضيقة، التجار المميزون الجالسون مع صديق أو أكثر أمام المحل يتمتعون بالمساحة التي توفرها المصطبة، كُلها أمور ستندثر، وبينما لا يمكنني ألَّا أعترف بالضرورة المُلحَّة لترميم المدينة، وإزالة الأطلال التي تُهدد المارَّة، يجب أن أعترف برغبتي في الحفاظ على تلك المظاهر التي لا غنى عنها والتي تساعد، كما كانت، في اجتماع الناس، وتُشكل إضافاتٍ بديعةً لصورة القاهرة.

يجب أن أضيف في هذه الرسالة حديثًا عن واحد من أكثر الأحداث التي واجهناها سُخفًا وعارًا وقد وقع قبل أسبوعين. كان هناك رجل مُسنّ مسكين يعمل لفترة طويلة كحارس للحارة، وقد سقط الرجل مريضًا لمدة، وساعده عدد من رجال الحي لتوفير احتياجاته الأساسية. ذات يوم تلقَّى أخي رسالة من شيخ الحارة يُخبره أن الحارس المسكين مُحمد قد وافته المَنيَّة في الساعة السادسة من الليلة الماضية، ويرجوه أن يرسل له ثمن الكَفَن. أرسل أخي، بناءً على الرسالة، واحدًا من خدمه إلى منزل محمد، حيث وجد الخادم جسد محمد مُسجى والمغسل حاضر، وزوجته تبدو في حالة كرب واضحة بسبب خسارة زوجها. وقد أبدت الزوجة خالص امتنانها للهبة التي أرسلها أخي إليها مساهمةً في دفن زوجها المسكين، ومضت مدة بعد أربعين الرجل (الذي لم نقابله قط)، حتى بدأت الأقاويل تتناثر حول مَن سيحلُّ محلَّه.

أما الزوجة العجوز فقط انتقلت بعد أيام قليلة من وفاته إلى منزل آخر، وذات يوم، حين كانت تمرُّ واحدة من الخادمات لدينا بالقرب من مسكن الزوجة الجديد، فوجئت أقصى مفاجأة لرؤية الراحل جالسًا أمام عتبة الباب. وصدرت منها صرخة تعجب وأردفت: «عمي

محمد لا يزال على قيد الحياة، وفي خير حال!»، فأجابها: «الشكر لله، أنا بخير، وقد أمَّنت لي هبة سيدك حياة كريمة». هنا يجب أن أخبرك بملحوظة مهمة، لا توجد صلة قرابة بين العجوز والخادمة، ولكن لفظة «عمي» يستخدمها الناس عادةً حين يخاطبون كبار السن، وذلك منتشر بين الطبقات الدنيا. وعدته الخادمة الحفاظ على سره، ولكنها، أثناء عودتها إلى المنزل، اكتشفت صعوبة الوفاء بوعدها، وقد اندلع شجار عنيف بينها وبين الخادم الذي حمل المال إلى منزل الحارس (لأن كليهما صدَّق ما رآه بأُمِّ عينيه)، وبدا الشجار في عنف الشجار بين هارون الرشيد وزوجته زُبيدة، أو الشجار الذي اندلع بين اثنين من المبعوثين بشأن قضية «أبو الحسن» في ألف ليلة وليلة.

(67) ملحوظة صوفيا لين بول: يُطلق عليه في العربية لفظة قُرْص.

الرسالة الحادية والعشرون

سبتمبر، ١٨٤٣.
صديقي العزيز،

لا يمكنني أن أفي وصف ما لقيته من استقبال ملكي وتسلية رشيقة قدمها لي حرملك الباشا.

يقع المقر الرئيس لنسائه في «قصر الدوبارة»، منزل بديع يقع غرب القاهرة، على الضفة الشرقية من النيل، وهو مسكنهن المفضل. بعدما تجولت خلال حدائق إبراهيم باشا، والتي تحيط تقريبًا القصر كله، وصلنا إلى بوابات القصر المَهِيبة، عبره دلفنا نحو طريق طويل داخل الأسوار العالية يُغطيه تعريشات من الخشب تتداخل مع كُروم العنب. في نهاية هذا الطريق، هبطنا منحدرًا نحو أرض ممهدة بالرخام يتفرع منها عدة ممرات، حتى وصلنا إلى الستائر التي تفصل الحرملك. حين رُفعت الستائر، استقبلتنا على الفور زوجة شابة من زوجات محمد علي، والتي خاطبت صديقتي السيدة سبيدر بأجَلِّ عبارات التقدير، ومنحت كلينا ترحابًا دافئًا. بعد برهة تجمع حشد من الناس حولنا، يتنافسن بين بعضهن في جذب انتباهنا واحترامنا، وبعدما خلعن عني ثياب التجول، لحقن بنا (والزوجة في مقدمتنا ترشدنا للطريق) إلى البهو الكبير.

هذا البهو كان غرفة شاسعة، مُعبَّدة بالرخام، كسائر الطرقات، وأنا أتخيل أن جميع غرف الطابق الأرضي لها أرضية رخامية، ولكن بما أن الغالبية مُغطاة بالسجاد لا يمكنني أن أؤكد هذه الحقيقة. أما عن رخام البهو فهو أبيض نقي، أنقى وأفضل رخام رأيته في الشرق. السقف (المقسوم إلى أربع مقصورات مستطيلة) دُهن بخطوط مستقيمة من الأسود والأزرق الفاتح، وتشعُّ من منتصفه خيوط مُذهَّبة. يتدلى من كل مقصورة ثُريَّا بديعة تضم العديد من الشموع المضيئة. أفاريز المقصورات وأركانها مُوشَّاة بزخارف ثرية. الرواق الواقع أسفل مقصورتَي منتصف السقف غير مفروشة بالسجَّاد، ولكن المقصورة اليُمنى واليُسرى أسفلهما سجاد بديع الزخارف، فوقه وضعت الأرائك القرمزية.

أُسدلت على النوافذ، ستائر من القماش الأبيض الخفيف مزخرفة الحوافِّ بألوان زرقاء ووردية. المَرايَا (تقريبًا هناك ست مرايا في الصالة) مُزينة بأقواس وستائر من الحرير الأزرق والوردي. هناك طاولة وحيدة فُرش عليها غطاء من قماش الكريب(68) الوردي وموشاة بخيوط من ذهب، فوقها وضع صحن كبير به حمام محشي(69). على كلا الجانبين من الباب تقف مصابيح أنيقة من الزجاج لها قاعدة مربعة ضخمة، وحول قمتها لفيفٌ من الأزهار الصناعية. النوافذ مصنوعة على الطراز الأوروبي، بينما ستائر الحرملك

مُصمَّمة على طراز رفيع الذوق، بالكاد يمكن وصفها بالرقة. الزخارف الداخلية كلها تليق بأجواء الصيف وشمسه، أما الصالون فيتسم بطقس منعش خلاب.

مررنا إلى غرفة في الجهة المقابلة للصالة، حيث أجلستنا الزوجة ذاتها على الأرائك المبثوثة وجلست إلى جوارنا. كانت تلك الغرفة مغطاة بالكامل بالسجاد، ومؤثثة بأرائك فاخرة، صُفت في ثلاثة جوانب من الغرفة، وكانت - على عكس الأرائك الأخرى - لا ترتفع كثيرًا عن الأرض، بل كانت من القطن الخالص ويبلغ سُمكها نحو قدمين. تلك الأرائك مُغطاة بقماش مزركش مختلف الألوان؛ وكذلك الوسائد المسنودة إلى الجدران. في الأركان هناك مربع مميز من الوسائد المغطاة بقطعة قماش بيضاء خفيفة مزخرفة بالحرير الأسود. وكذلك هناك صفٌّ من الوسائد البيضاء المزخرفة بالحرير الأسود والموضوعة فوق الأرائك الجانبية.

في هذه الغرفة احتسينا القهوة، التي قدمتها لنا سيدة المنزل الأولى، وهي سيدة تتسم بفخامة نساء الطبقة العليا. جاءت القهوة على صينية من الفضة تحملها سيدة، وتتبعها عدة إماء، تحمل إحداهن وعاءَ قهوة فضيًّا، وأخرى تحمل مبخرة يحترق داخلها فحم مشتعل. تميزت النساء بمظاهرهن الخلابة، وكانت معظم النساء يتسمن بوجهٍ مليحٍ شاب.

اقترحت علينا زوجة الباشا فيما بعد أن نعود إلى الصالة؛ لتستطيع أن تعرفنا إلى أرملة طوسون باشا، وابنة محمد علي باشا، اللتين تجلسان في الجزء العلوي من الصالة. وجدت أرملة طوسون باشا تجلس على وسادة موضوعة على الأرض، بالقرب من الزاوية اليمنى من الغرفة، وكانت ابنة محمد علي باشا تجلس على مقعد الشرف، وهو لا يختلف كثيرًا عن الوسائد الأخرى. كان في حضرتهن عدد من السيدات والإماء، يقفن جميعًا في خط مستقيم عند حافة السجادة.

مضت برهة من الوقت انضمت بعدها إلينا زوجة أخرى من زوجات الباشا، والدة محمد علي بك (فتى يبلغ عمره نحو تسع سنوات)، وتمت الإشارة إليها حين دلفت: «السيدة، والدة محمد علي بك.».

سيكون خرقًا لآداب الحرملك، ومخالفًا لقوانينهم، إذا وصفت لك - بالتفصيل - ملامح نساء الباشا، أو أي سيدة في الحرملك بعد أن تعرفت إليها وعرفت مكانتها ولقب أسرتها. ولكن يمكنني أن أصف لك بصورة عامة إعجابي بسيدتين قد رأيتهما في الحرملك، وأعتقد أنهما وحدهما زوجتا الباشا. كلتا السيدتين لا تزال في عمر الشباب، إحداهما أبية ومليحة، والأخرى وَدُودٌ ورقيقة.

بعد العصر ببرهة، دُعينا للعشاء، وقادتنا أرملة طوسون باشا لغرفة مُلحقة بالصالة حيث تم إعداد عشاء فاخر على صينية فضية كبيرة موضوعة فوق طاولة قصيرة وتحيطها الوسائد الوثيرة. الممرات التي عبرناها ضمت العديد من الإماء السود، وعددًا من الخصيان، يرتدون

أزياء مشرقية ملونة، وبدوا على تضاد كامل في الهيئة مع الإماء البيض اللائي لحقن بنا. وقفت عدة نساء على جانبَي الباب حاملات دوارق وأحواضًا صغيرة لنغسل أيدينا قبل نجلس إلى الطاولة.

لم يُسمح بجلوس أحد من النساء سوى ابنة محمد علي باشا، ووالدة محمد علي بك، ونحن، وسيدة لها أهمية كبيرة في الشرق، وهي الأم الحاضنة لعباس باشا(70). أما مقعد زوجة محمد علي باشا الصغرى فكان فارغًا.

على الصينية وضعت العديد من الأطباق الفضية الصغيرة داخلها أنواع مختلفة من المخفوق والهلام... إلخ ومُزينة بأزهار رائعة. في المنتصف وضع ربع جدي. كنت سعيدة بحق، في هذه المناسبة تحديدًا؛ لأنني أعرف طبيعة العادات المنزلية المشرقية واعتدتها، لو لم أكن معتادة عليها لكان من العسير تناول قطعة لحم دون استخدام الشوكة والسكينح وكذلك لَمَا كنت سأحظى بتشريف أرملة طوسون باشا، وهي أيضًا أُمُّ عباس باشا، التي، بصفتها الأكبر سِنًّا، أطعمتني، بيدها العارية، تقريبًا كُل ما تناولت في هذه الوجبة. أما والدة محمد علي بك، فقد اهتمت - بالطريقة ذاتها - بمرافقتِي السيدة سييدر.

لحق لحم الجدي، تقديم حَسَاء الخضراوات، ثم لحق بالحساء طبق المخفوق المالح... إلخ وأصبحت المأدبة متنوعة الأطباق، كُلما رُفع طبق، وُضِع الآخر. بعد الوجبة وضعت أطباق الحلو المُعدة بإتقان، وجميعها، عدا طبق واحد، كانت موضوعة في أطباق فضية. بالقرب من مجلسنا وقفت سيدات يحملن مضارب الذباب، وخلفهن وقف نحو ثلاثين سيدة يشكلن نصف دائرة بملابس زاهية الألوان، والعديد منهن جميل الملامح. الواقفات بالقرب من الباب كُنَّ يحملن صواني فضية كبيرة لتضع الإماء السود الأطباق الفارغة التي يحملنها عن الطاولة.

جرت العادة في منازل الأعيان بمنع تواجد الإماء السود في حضرة الزوَّار، ويُسمح فقط بتواجد عبد أسود مخصيّ، إذا كان من المفضلين لدى ساداتهم، وغالبًا ما تجدهم في غرف حرملك الأعيان.

أثناء تقديمها اللُّقَيْمات لي كانت أرملة طوسون باشا تقول باستمرار: «بسم الله»، وتلك الكلمات دائمًا ما يلفظها المسلمون قبل تناول الطعام والشراب. «الحمد لله» تُقال بعد الانتهاء من كليهما.

هناك عادة واحدة ملحوظة بعد تناول العشاء في الشرق، لكل شخص الحق في مغادرة الطاولة وقتما شاء. بالنسبة إلى الأوروبي الأمر مريح للغاية؛ لأن الأطباق متنوعة وثرية وعديدة.

للسيدات الشرقيات عادات حميدة تظهر حتى في آتفه التصرفات، منها الطريقة الأنيقة لحمل الدوارق والأحواض الفضية في انتظارنا عقب انتهاء الوجبة. بعدما فرغنا من تناول الطعام، حضر عدد آخر من نساء المنزل ليتناولن عشاءهن، وأتصور أنهن من علية القوم.

عُدنا إلى الصالة حيث قابلنا مرةً أخرى زوجة الباشا الأخرى، والتي حُرمت من مشاركتنا الطعام بسبب وعكة ألمَّت بها. وقد دعتني دعوةً ودودةً لزيارة قصر الدوبارة مرة أخرى وهذه المرة خلال احتفال سيُعقد بمناسبة زواج مهم، وذلك قبل مدة من مغادرتي البلاد. أكدت لي أن الأجواء الاحتفالية ستكون من أروع ما يمكن أن يُعدَّ له، وقريبًا سأتمكن من إطلاعك على اسم العروس. لقد سبق وأخبرتني به، ولكنني لا أستطيع أن أذكر لك اسمها قبل تحديد موعد الزواج. إنه سر من أسرار الدولة المصرية!

يضم حرملك الباشا العديد من السيدات الجميلات والفتيات الفاتنات، بعضهن لم يتجاوز العاشرة من العمر. نساء أتراك، وأخريات شراكسة، والبعض من چورچيا، لكن جميعهن يتسمن بجمال خاص. ينبغي عليَّ أن أذكر لك واحدة كانت آية في الجمال، وارتدت ثوبًا أبهى من كل أقرانها. لم تدلف إلى الصالة قبل إعلان موعد العشاء، وكان مظهرها جذابًا للغاية. كانت ترتدي «چيليك»(71) و«شنتيان» (أو السترة الطويلة، والبنطال الفَضْفَاض) لهما لون زعف النخيل، وقد رُصِّعت السترة بماسات باهظة. أما غطاء شعرها فكان مُرتبًا بعناية، وقد عُقدت ريشة مرصعة بالماسات ببراعة فوق غطاء الرأس الأسود.

لن أجد فرصةً أفضل من وصف الزِّيّ الشرقي الذي ترتديه النساء التركيات في الحرملك، بينما ما زلت أملك ذاكرة حية عن زيارتي لحرملك الباشا. الطربوش (أو القبَّعة الحمراء) مُعلق بها قطعة طويلة من الحرير الأزرق الأدْكَن، والتي تتصل بالتاج، وعادة ما ترصع النساء مؤخرة الطربوش بأفضل مجوهراتها وأبهاها، إما في هيئة قُرص، والذي سبق ووصفته لك، أو في صورة غصن عريض وقصير. يُعقد المنديل فوق الرأس، جزء منه ينسدل على الجبهة، والجزء الآخر فوق الرأس، يُقصر شعر الجبهة، ويُمشَّط فوق الجبهة في اتجاه الحاجبين، وهذه الصيحة تشوه أجمل النساء، عدا النساء صاحبات الشعر المُجعَّد المنسدل طبيعيًّا على جباههن. يُعقد الشعر الطويل في عدة جدائل صغيرة ويُرفع من الجهتين ليُربط بالمنديل. في حالات عدة يكون شعر الإماء البِيض والفتيات الأصغر سِنًّا أشعث ومُتروكًا ينسدل بحرية على أكتافهن، ولكنني لم ألحظ ذلك سوى في حرملك الأتراك. العديد من النساء في قصر الدوبارة يتركن شعورهن تتماوج فوق أكتافهن، وتمنحهن تلك الطلَّة البسيطة جاذبية خارقة، ولكن مع ذلك تتميز النساء العربيات بشعرهن الطويل المُتدلِّي إلى أسفل ظهورهن والمعقود في جدائل، عادةً يوصلنه بجدائل صناعية من الحرير مُرصَّعة بالمئات من قطع الذهب الصغيرة، مُشكَّلة في شكل بيضويّ يتسق مع طبيعة العادات الشرقية أكثر من أي صيحة أخرى.

بالعودة للنساء التركيات: يرتدين الچيلك الطويلة للغاية، وتصل أحيانًا لتلمس الأرض، هذا الجزء الزائد بمثابة ذيل طويل للثوب يلحق بهن. حين يمررن فوق السجاد يرفعن هذا الجزء على ذراعهن. السُّتْرة من الحرير الخالص، أو القماش النقي، أو من الكريب الأملس، ومزخرفة بخيوط من حرير يحيكها نساء الحرملك، ولها لون الحليب الأدكن، أما الأكمام فقصيرة لا تصل إلى المعصم. الشنتيان يختلف تمامًا عن الچليك. فالشنتيان يُحاك من الديباج النقي، أو القماش الخفيف، أو الشنتز(72). وأحيانًا ما يُحاك من السَّاتان أو حرير نابولي. الچيلك، على صعيدٍ آخر، يُحاك من أقمشة ناعمة رقيقة، مثل ما ذكرت أو الساتان الناعم، أو الحرير الهندي، أو القماش النقي.

النساء التي لا تتسم بكسل خالص، أو لا تملك خادمات يتبعهن حاملات ذيل الثوب، تضع بنفسها الثوب بين طيَّات النطاق، وهكذا، أعتقد، يكونٍ من السهل السير في هذا الثوب. السيدات أصحاب المكانة الرفيعة دائمًا ما يعقدن شالًا من كشمير حول خصرهن، غالبًا ما يكون أحمر اللون، والسيدات في قصر الدوبارة كان لشالهن تصميم مميز حيث زُخرفت حافة الشال بخيوط من ذهب، وتدلت من جنباته أزرار وخيوط ذهبية. هوانم هذا القصر لم أرَ مثلهن من قبل، يرتدين ملابس ثرية الزخارف ومختلفة الألوان، وابنة الباشا، والأخريات، ارتدين سترة طويلة الأكمام لها أزرار عند المعصم. صُنعت الأكمام بطريقة تسمح بتقصيرها إذا كانت غير مناسبة الطول، ولكن لأن نساء القصر لا يقضين أوقاتهن إلا على أرائك الحرملك، فلم تجد إحداهن غضاضة في طول الأكمام المُربِك.

وصف الثياب يقودني مجددًا إلى السيدة التي جذبني مظهرها بصورة خاصة. بعدما طلبت إحضار ثوب الخروج، لاحظت عددًا من النساء يعبرن الصالة وهي بينهن، متجهاتٍ نحوي، وهي تبدو كالملكة قلبًا وقالبًا. ألبستني الثوب بامتنانٍ كبير، ثم اتجهت هي ومرافقاتها نحو المدخل لمراسم التحية الخاصة. لقد أغفلت ذكر أمر بعينه، الستائر القرمزية المزخرفة التي أُسدلت عند كل مدخل من مداخل القصر، وذلك لأن الأبواب تبقى مفتوحة دائمًا، غير مسموح أبدًا بإغلاقِ أيٍّ من أبواب الحرملك. تتسم تلك الستائر بذوق رفيع، بالتأكيد، أفضل الزخارف موجودة حتمًا في قصر الدوبارة.

(68) ملحوظة المترجمة: الكريب هو قماش من مشتقات الحرير.

(69) ملحوظة صوفيا لين بول: أُحضرت هذه الطيور من الولايات المتحدة، حيث يتم صيدها وتجهيزها. - إدوارد.

(70) ملحوظة صوفيا لين بول: عباس باشا هو الوريث حسن السُّمعة للباشا محمد علي.

(71) ملحوظة المترجمة: چليك أو يليك هي سترة غير ذات أكمام، واشتهرت في بلاد الأناضول وألبانيا.

(72) ملحوظة المترجمة: الشنتز نوع من الأقماش المزخرفة والموشاة بالأزهار أو الأشكال الهندسية الملونة.

الرسالة الثانية والعشرون

ديسمبر، ١٨٤٣.
صديقي العزيز،

لا يمكن أن أقدم لك وصفًا أفضل عن النظام المُتَّبع في حرملك الأعيان والأثرياء إلا حين أشير إلى جزء بسيط منها، وهو القواعد ومناصب النساء في الحرملك. المرأة التي لها المكانة الكبرى في الحرملك، وتأتي بعد صاحب المنزل، هي السيدة الأولى، وعادةً ما تُنادى: «هانم» أو «خانوم» وهو النطق الصحيح. هذا اللقب، والذي يعني حرفيًّا «مولاي» (تُلقب النساء التركيات، اللاتي نعتبرهن في إنجلترا يُعاملن بازدراء، بألقاب الرجال تعظيمًا وإجلالًا لهُنَّ)، يخص فقط نساء السلطان، أي يخص أولًا كل من يملك صلة قرابة بعيدة أو قريبة مع جلالته، أو يملك صلة قرابة مع أبنائه من الأميرات والأمراء، ثم ثانيًا تحلُّ زوجات الصدر الأعظم، وأحيانًا ما يُمنح بدافع التكريم لزوجات الأعيان من الأتراك، والسيدات من طبقات الأثرياء الأدنى نَسبًا. ويُمنح اللقب الذكوري «أفندم» (والذي يعني حرفيًّا «سيدي») لبعض تلك النساء.

السيدة الأولى في الحرملك هي أُمُّ سيد المنزل، وإذا لم تكن والدته في قيد الحياة، فيُمنح اللقب لأخته أو أخواته بناءً على أعمارهن، ثم تاليًا يُمنح اللقب لزوجته المفضلة. أمر أولوية تنظيم علاقة الرجل بزوجاته يتم بصورة أسهل مما قد تتخيله أنت الأوروبي القادم من الأمم التي تحترم حقوق النساء. ويجري التنظيم كما يلي: الزوجة الأولى، إذا رُزقت بأطفال، تحصل على لقب السيدة الأولى - بعد الأم والأخوات كما ذكرت - بأفضلية على أي زوجة أخرى، ولكن إن لم تحظَ بأطفال، يقتنص الرجل زوجةً أكثر حظًّا وهي المفضلة لدى زوجها. أما الزوجات الأخريات فيحصدن مواقعهن وفقًا لأهواء الزوج.

في الطبقات العليا تحظى كل زوجة بغرفتها الخاصة، ووصيفاتها الوفيات؛ لأن حتى الزوجات الشرقيات قد يُظهرن غيرتهن نظرًا لتفاعلهن الدائم مع بعضهن البعض. ليس من المعتاد أن تحظى كل زوجة بقصر كامل خاص بها، ولكن إذا كُنْ يسكُنَّ منزلًا واحدًا كبيرًا، أو عدة منازل صغيرة، فحريم الرجل يشغلن كل، أو الغالبية من المنزل، وعادة ما يقع الحرملك الخاص بهن في مساحة مغلقة بالأشجار والحدائق تفصلها عن بقية المنزل، والمنازل المجاورة. وهكذا يكون حرملك الأتراك آمنًا أمام المتطفلين إلا لو استخدموا سلالم نقَّالة أو أي وسيلة أخرى لصعود الأشجار المرتفعة. أمام الباب الخارجي يجلس البوَّاب أو الحارس، والباب الثاني يحميه رجال خِصْيَان، وخلف الباب الثاني تقع ستائر الحرملك التي سبق ووصفتها لك، يقابلك خلف الستائر أول الغرف في الحرملك والتي يحتلها الإماء الزنوج اللاتي يتولين الأعمال الوضيعة في الحرملك. تعبر الغرف الخارجية حيث تقف إماء حاملاتٍ قناني فضية بها مياه مُنكَّهة، ومبخرة فضية صغيرة، وأقداح

القهوة، والغليون، وأكواب الشربات، وصحون الحلوى، مصفوفةً فوق صوانيّ مُغطاة بقطع قماش مزخرفة بعناية. يمكن أن تلاحظ بين الإماء البِيض عددًا قد يبدو عليهن السلطة والسطوة على الأخريات، يسِرْن بتعالٍ كما لو كُنَّ المشرفات على التنظيم، وبين الأخريات؛ خاصةً، قابلت أبهى النساء في الحرملك، بعضهن أؤكد أنهن من النساء الشراكسة والچورچيات. عدا مرتين، لاحظت عادة السرور يغمر تلك المسجونات الجميلات الممنوعات كُليًّا من التخاطب مع الجنس الآخر أو لقائهن، عدا سيدهن ومعارفهن المقربين للغاية. لو حاول أي رجل آخر الولوج إلى المدخل الخارجي للحرملك ستكون عقوبته بلا شك الموت في اللحظة التي يُكتشف فيها.

أما مسكن الباشا، المنفصل عن الحرملك، فمن السهل الولوج إليه، ونادرًا ما يُغلق بابه الخارجي. الشهر الماضي، كان محمد علي مستقرًّا في قصره في شبرا، وقد لجأ اثنان من الأوروبين إلى القصر بحجة مشاهدة الحدائق. كان الرجلان يرتديان ملابس الفرنجة التقليدية، عدا أنهما عمدا إلى ارتداء الطربوش، ولفَّا نطاقًا حول خصرهما، وارتديا حذاء أحمر كما الأتراك. بعدما طافا في أنحاء الحدائق، دلفا إلى القصر، ولم يقابلهما أي اعتراض، فأخذا يفحصان الغرف الواحدة تلو الأخرى، وبعد برهة من التجول دلفا إلى غرفة نوم الباشا، حيث كان جلالته يجلس شبه عارٍ! على الرغم من المفاجأة التي باغتته، لكن بروده التركي لم يخذله، فنادى ترجمانه وأمره: «سَلْ هؤلاء الرجال من أين ابتاعا تلك الطرابيش.»، أجاب الرجلان على تساؤل الترجمان: «ابتعناهما من القسطنطينية.»، فأضاف الباشا: «وهناك على ما أعتقد قد تعلما أخلاق الأتراك. ترجم.» فهم الرجلان من تلك الجملة أن حضورهما غير مرغوب فيه، فحيَّيَا السيد وانسحبا.

يُذكِّرني هذا الحدث، بحدث آخر وقع عن قريب، حيث كان كل ما ينقص هو معرفة آداب السلوك التركي، وليس الفطنة والحكمة. تم تقديم رجل أوروبي، قد وصل إلى مصر مؤخرًا رفقة عدد آخر من الأوروبيين، إلى باشا من الأتراك، وقد ذهب الأوروبي إلى مسكن الباشا رفقة واحد من أصدقاء أخي، وبصحبتهما السيد مونس ل.، كلا الرجلين - صديق أخي والسيد مونس - عاشا في البلاد لسنوات عديدة، واختلطا بنخبة المجتمع المشرقي. بعدما دخنوا الغليون واحتسوا القهوة، قُدِّم الشربات وبدأ التقديم من الغريب. نظر الأوروبي لوهلة للسائل، ثم للمنديل القماشي المُزخرف الذي يحمله الخادم الذي قدم له الشربات، وتبعًا لإيحاء وصله، أعتقد أنه إيحاء نابع من معرفته السابقة عن عادات النظافة في الشرق، غمس الرجل أصابعه في الشراب الحلو، ثم مسحها في قماشة المنديل. السيد مونس ل.، بفضل رقته البالغة النابعة من أخلاقياته الفرنسية، حذا حذو صديقه، فغمس أصابعه في الشربات ثم مسحها في قطعة القماش. أتعجب ما إذا كان مُضيفهم قد استوعب دوافع هذا التصرف الغريب الذي فعلاه. صديق أخي الذي جلس على مسافة من رفيقيه، كان لحُسن الحظ قد احتسى الشربات.

بالعودة للحديث عن مؤسسة الحرملك العظمية. تملك الهانم، عادةً، أربع وصيفات، اثنتان هما الأكبر سِنًّا، ويتعاملن ببساطة كأنهن رفاق للهانم، الثالثة هي أمينة الخزانة، والرابعة، هي مساعدة أمينة الخزانة. أم النساء التاليات في الترتيب فيختصن بتقديم الغليون والقهوة والشربات والحلوى، وكل واحدة من هنّ ترأس مجموعة من الخادمات. في ذيل الترتيب يحل الطاهيات والإماء، وأغلبهن من الزنوج. الحرملك هو عالم مُصغَّر من النساء وحدهن حيث يقضين فيه فترة المهد والطفولة، وتشهد جدرانه على سعادتهن وتعاستهن، على مباهجهن واهتماماتهن، ما وراء الحرملك من مسرح شاسع مليء بالإثارة هو مكان مجهول تمامًا لهن، وعند مغادرته لا يُحدِث انتقالهن إلى حرملك أزواجهن فارقًا كبيرًا.

الفكرة التي يتبناها العديد في أوروبا بشأن فجور الحرملك، أؤمن أنها خطأ. لا جدال في أن السيدة الأولى لها سلطة عظمى قد تستغلها بصورة خطأ، لكن الإماء مفروض عليهن أقسى درجات الصرامة، والنظام المفروض حول شابات الحرملك في الشرق لا يمكن مقارنته بشيء في أوروبا سوى نظام دير الراهبات. أدنى انحراف عن نُظم الحرملك الصارمة يقابلها عقاب غليظ، أحيانًا ما يصل إلى موت المُنتهك. إطار الحياة في المجتمع الشرقي يخالف تمامًا آراء الأوربيين، وأغامر بالتنبؤ وأقول إن جهد عدة أجيال مطلوب للقضاء على تعالِي الشرق قبل محاولة إعداد العقلية الشرقية لتقبُّل أفكار حضارتنا. الأكيد أن المسيحية هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن من خلالها اقتناص السعادة، وبما أن الشرقيين يقفون في نقطة قصيَّة من اعتناق المسيحية وتقبلها، إلا بالصورة التي تسمح بها معتقداتهم الإيمانية (حيث يعترفون بالمسيح، لكن ينكرون ألوهيته وتكفيره عن ذنوب الخليقة)؛ ولذلك هم في نقطة قصية من تحقيق السعادة الحقَّة.

الترفُّع الذي تتسم به النساء التركيات عن العقيدة المسيحية الخالصة مشهود في مناسبات متفرقة، أو سأكون أكثر صراحة وأقول، مشهود عادةً في حضوري وحضور أصدقائي. هناك سيدة قد قدمت لي دعوة ودودة ودافئة لأزور الحرملك الخاص بها، وعاملتني بمحبة صادقة، ولكن معتقداتها غلبت في النهاية وقالت لي ولصديقتي: «يا لها من خسارة أنكم مسيحيات!» ها هو ذا! هذه المشاعر تسود لدرجة غير قابلة للنكران، وراسخة منذ أمدٍ بعيدٍ منذ استشهاد القدِّيسين الذين انتظروا دخول الناس في ديننا المبارك. لن يحقق هؤلاء الرجال الأخيار، الذين سخَّروا حياتهم بسعادة لقضية منقذنا وضمنوا بذلك مقعدهم إلى جوار الرب، سوى نتائج قليلة مع هؤلاء القوم.

من الإماء اللائي تم أسرهن بعد سِنِّ الطفولة، وأُحضرن من بلاد تمتعن فيها بحرية شبه مطلقة، نجد القليل قد تأقلم بحق مع قيود الحرملك. بعضهن، بفضل جمالهن الخلَّاب حظين باهتمام الباشا؛ وبالتالي حظين بمكانة رفيعة في السجن الفاخر. البعض الآخر، إلى جانب الحصول على إعجاب السيد، وطَّدن صِلَاتهن بإنجاب طفل للباشا، وهكذا يحصلن على حريتهن، وأحيانًا قد يُطلق سراحهن ويتزوجن من رجلٍ آخر. ولأن أغلبهن قد نشأن في بيئة مسلمة، يصبحن فيما بعد أمهاتٍ رقيقات. تتجلى أمومتهن غالبًا في فزعهن من

عين الحسود، خرافة تدفعني، حين أحضر مجلس به أمهات مسلمات، إلى توخي أقصى درجات الحرص وأنا أتحدث عن أبنائهن.

وقد حالفني سوء الحظ في إحدى المرات، حين أبديت ملاحظة من هذا النوع، ولكن من جانب آخر كانت الملاحظة التي أبديتُها تخص أحد أبنائي. لقد سبَّبت كربًا كبيرًا لسيدة عربية كانت تقضي اليوم معي (حين، أثناء الحديث، تناقشنا في تأثير المناخ على الصغار) وقلت إن ابني الأكبر لم يُعانِ أبدًا مثل سائر إخوته من الحرارة الشديدة، وأضفت ممتنَّة، أنني أعتبره رجلًا قويًّا. في التوِّ أضافت بنبرة صاخبة: «اللَّهُم صَلِّ ع النبي! اللَّهُم صَلِّ ع النبي!» وكررت الجملة أكثر من مرة، بينما تبدل لونها بشكل واضح، وبدا على وجهها أعتى علامات التوتر. أعترف أنني في البداية ارتبكت؛ لأنني في البداية أدركت أن قلقها كان ناجمًا عن خوفها من أن أعرِّض ابني للخطر بسبب رأيي عن قوة صحته، وقد رغبت بشدة في تجنُّبي هذا الحديث الذي شرعت فيه، ولكني لم أكن مستعدة للصلاة على النبي كما فعلت، ومع ذلك شرعت بهدوء في مواكبة حماسها وقلت بكلمات شرقية «الحمد لله على صحة عائلتي، وبمشيئة الله يكللهم بها دائمًا.» حين وجدت مني إصرارًا في إقناعها أن الإنجليز لا يخشون التعبير عن رخائهم ورخاء من يحبون، هدأت قليلًا، ولكنني لم أشعر بها مطمئنة أبدًا. من الشائع تصديق أن لفظة «اللهم صَلِّ على النبي!» تمنع العين الحاسدة، ولم يكن من الغريب أن تخشى صديقتي أن تجلب عيني المُعجبة بصحة ابني مصارع السوء.

من العسير على الغريب، مثلي، أن يتجنب الخطأ في أمور كثيرة. على سبيل المثال، منذ عدة أيام سمعت صوت خُطى صاعدة على السلم المتجه إلى شرفتنا، وسألت خادمة كانت قريبة مني أن تذهب لتعرف هُويَّة هذا الشخص الصاعد، حين، لدهشتي، هربت مني على الفور، ورغم أنني ناديتها مجددًا، لكنها نظرت إلى الخلف ورأتني أشير إليها بيدي، ومع ذلك استمرت في الهرب. أزعجني تصرفها الذي بدا لي تجاهلًا تامًّا، فصفقت بيدي، وحينها عادت على الفور. سألتها: «لماذا هربتِ حين أشرتُ إليك؟»، أجابتني: «لأنك أشرتِ إليَّ أن أغادر.» كان ذلك اعتقادها لأنني أشرت إليها بظهر يدي. لو أشرت لها بكفِّي لكانت فهمت أنني أريدها أن تأتي، وهكذا ظنت أنه ينبغي عليها الهرب بأسرع ما تستطيع.

لا أتذكر ما إذا كنت قد ذكرت لك من قبل الملابس غير المألوفة التي ترتديها نساء الطبقة العليا خلال هذا الفصل من العام. حين قمت بزيارة غير متوقعة لواحدة من نساء الطبقة العليا، وجدت أغلبهنَّ يرتدين سُترةً مُبطَّنة، صغيرة القياس بدرجة لا تُصدق. المجمر هو وسيلة تدفئة غرفهن ويصدر عنه رائحة خانقة، لم أتمكن بسهولة من تحمُّلها، وبالكاد وصلني دفئُه. الطقس الآن بديع للغاية، ولكنه لم يستقر منذ بداية الشتاء. كسائر حال المسافرين، اتسم مُستقرُّنا هنا بملامح جديدة على البلاد. الفيضان الاستثنائي الذي حدث العام الماضي، والأمطار الغزيرة التي تتساقط هذا العام، هي أحداث لم يشهدها أيٌّ من أبناء الجيل الحالي. بعدما تمنَّيت سقوط قطرات بسيطة لمدة ثمانية شهور - هباءً - وقعت في الثلاثين من أكتوبر عاصفة رعدية هائلة، واستمر البرق لمدة تزيد على ساعتين، يشق

السماء في أبشع صورة ممكنة، بينما الأمطار تتساقط زخَّات، وفي الأول من الشهر الماضي - نوفمبر - استمرت غزارة الأمطار، حتى تساقطت من بين شقوق الأسقف، خلال العاصفة لجأنا - نحن وخدمنا - إلى زوايا البيت الجافة حيث وزعنا الوسائد والسجَّاد والأثاث الآخر، بعدما ركضنا جيئةً وذهابًا لننقلها لمكان آمن لا تطوله يد المطر. رغم أن بناء منزلنا من أفضل أبنية القاهرة، فإن الغرف العليا وصل إليها الأمطار عبر شقوق السقف من آنٍ لآخر خلال العاصفة، ونجت غرفة واحدة من غرف المنزل من هذا الطوفان. أما جيراننا المساكين فعانوا كثيرًا، وساد بينهم الوجَل من المرض الذي لحق بالعاصفة. حتى الآن ما زال السكان يعانون من آثار تلك العاصفة الهائلة التي سقط على إثرها عدد كبير من المنازل، والبعض الآخر مسَّته يد الخراب. الأسطُح، على سبيل المثال، في الكثير من المباني يقيها من الأمطار طبقةٌ من الطين، وعروق الخشب المبسوط فوقها السجَّاد الذي لا يقيه من العاصفة سوى تراكم القمامة؛ وبالتالي أصبحت الأمطار الساقطة على بعض الأسطح العارية، أمطارًا محملة بالطين نفذت إلى قلب الغرف ودمرت الأثاث. مع ذلك، من النادر سقوط المطر في هذه البقاع إلا خلال الشتاء، حينها تسقط الأمطار عدة مرات، وعادةً ما تكون أمطارًا خفيفة.

الرسالة الثالثة والعشرون

يناير، ١٨٤٤.
صديقي العزيز،

قدمتني صديقتي السيدة سييدر يوم أمس إلى نازلة هانم. كان استقبالي حافلًا بشكلٍ ملحوظ، وربما استثنائيًا؛ لأنها استقبلتني في مخدعها. حين زرت قصر الدوبارة كنت جاهلة بأنها تعاني وعكةً صحيةً حادَّة، ولم أُعلق حين أُخبرت بوضعها، ولكنها حين عرفت بوصولي، عبرت عن رغبتها في رؤيتي بمجرد أن يغادر الطبيبان - اللذان جاءا لفحصها - غرفتها. جلالتها هي الابنة الكُبرى للباشا؛ وبالتالي تحمل أعلى منصب للنساء في مصر قاطبة. وقد ذكرت من قبل أنها أرملة الدفتردار محمد بك.

بينما كنا نجلس في غرفة تُطلُّ على الصالة، أُغلقت الستائر فجأة لأن الطبيبين سيمران. ثم فُتحت الستائر بعد دقائق قليلة، وتم اقتيادي إلى مخدع جلالتها. كانت متكئة إلى وسائد، وبدا عليها الألم الواضح من السُّعال المستمر الذي يمزق صدرها. قابلتني بترحابٍ بالغ، وطلبت مني على الفور أن أجلس بجوارها على أريكة مرتفعة، أتخيل أنها سريرها. أما الأرائك الأخرى في الغرفة والرُّواق المفضي لها فكانت مغطاة بسجادة تركية. لم تكن الغرفة بأي شكل تشبه غرف النوم، بل بدت كغرفة جلوس شتوية على الطراز التركي الفاخر. تطلُّ الغرفة على الصالة الخلابة التي وصفتها لك من قبل. رأيت الابن الأصغر للباشا، محمد علي بك، يجلس على وسادة بالقرب من قدم أخته، نازلة هانم، ولأنه لاحظ جهلي بالتركية، تحدث معي بتهذُّب باللغة الفرنسية التي يتقنها. كان في التاسعة من العمر، وفي غضون شهور سيصل للسن التي يُمنع فيها الفتى من الولوج لغرف الحرملك. جلست أمه، وسيدات أخريات، إلى يساري. ثم رأيت، من جهة، امرأة تبلغ قرابة الخمسين - هي إحدى بنات الباشا، وعلى الجهة الأخرى، رأيت امرأة شابة بديعة الجمال، هي زوجة أب جلالتها، وأُمّ أخيها الصغير.

تشبه ملامح جلالتها؛ وخاصة العينين، أبيها كثيرًا، لها مُحيَّا يشع بالذكاء، وقادر على إظهار مختلف التعبيرات، لها نظرة ثاقبة ومتطلعة، ولكنها عادة ما نظرت لي بأعذب ابتسامة قد تتخيلها. طلبت من واحدة من نساء الباشا المفضلات، وأُم اثنين من أبنائه، أن تعتني بي(73). هذه السيدة تلقت القهوة من خادمة وقفت عند مدخل الغرفة وقدمتها لي في قدح بديع من الذهب يرصعه صفوف من الماس، وبين الصفوف زخارف بديعة من الجواهر. يوم أمس وافق اليوم الرابع من العيد الكبير، أو عيد الأضحى (العيد الثاني والأخير من الأعياد السنوية الأساسية عند المسلمين) - وهو يوم ملائم لزيارات النساء لجلالتها، النساء المسموح لهنَّ بالولوج للحرملك. أما الأيام الثلاثة الأولى من العيد فمُخصصة لزيارة مقابر أقاربها وأصدقائها. بينما كنت أجلس معها، جاءت العديد من النساء

لتُعايدها باحترام بالغ، ولكن بسبب مرضها ارتدين ثيابًا بسيطة خالية من البهرجة، عدا امرأة واحدة، ارتدت أروع الثياب. رصعت هذه المرأة مُؤخَّرة رأسها بماسات عديدة، وارتدت «چوبة» طويلة من الكشمير البرتقالي، غنية بالزخارف، وبدت، وهي تسير، ذيلًا طويلًا من الذهب. اقتصرت زيارتها على تقبيل طرف ثوب جلالتها مغادرةً الغرفة دون حديث. على أيَّة حال، اقتصرت زيارات الأخريات كافةً على تقبيل يد جلالتها والمغادرة دون أن ينبسن بكلمة، ولم تحاول نازلة هانم أن تنبس بتحية لهن، كل ما فعلته هي أن تمد يدها إليهن لتقبيلها. ما عرفته أن هذه السلوكيات لا تتم فقط أثناء مرضها، بل هي السلوكيات المعتادة في مختلف الأوقات. لم ترفع الزائرات أنظارهن عن الأرض، وهنا بالتحديد شعرت بميزة كوني امرأة إنجليزية؛ لأنها حافظت دومًا على الحديث دائرًا بيننا، وعاملتني بحق كما لو كُنت مساوية لها. بلافتة مهذبة يتسم بها الشرقيون، أكدت لي جلالتها أنها شعرت بتحسُّن كبير في حالتها الصحية بفضل حضورنا، ورجتني أن أعتبر نفسي في المنزل، مستخدمة المغريات كافةً لتدفعنا للمكوث أطول فترة ممكنة. قُدم لنا الشربات في أكواب بنفسجية أنيقة، وكان مذاق الشراب لذيذًا كالعادة. أريد أيضًا أن أذكر بهاء أغطية أكواب الشربات والقهوة والمناديل القماشية وأناقة زخارفها التي لم أرَ مثلها، ولكني أملك ملاحظات أيضًا بشأن غليونات جلالتها. كان المبسم مصممًا بتميزٍ بارع، وزُين الحرير الذي يغطي المبسم بزخارف دقيقة التطريز. دخنت الهانم دون توقف، وكانت المرأة الوحيدة التي تدخن في الغرفة. بالمناسبة، اعتدت تمامًا الجلوس في هذا الدخون؛ لأن رائحة التبغ الذي يدخنه النساء خفيفة للغاية، ومختلفة تمامًا عن التي تزعجني وتزعج أبناء جنسي كثيرًا في إنجلترا.

سألتني نازلة هانم مراتٍ ثلاثًا أن أطيل البقاء حين هممت بالمغادرة، وبعدما طال بي المكوث أصررت أن وقت الرحيل قد حان، كانت الشمس وقتها تميل في الأفق نحو الغروب، فوافقت وودعتني أرقَّ وداع ممكن. بعدما غادرت غرفتها، لاقيت السيدة التالية في الترتيب، التي قدمت لي القهوة والشربات، تنتظرني وفي يدها كوب شربات آخر أحتسيه أثناء سيري. أذكر لك ذلك لأنه سمة من سمات التبجيل. صاحبنا إلى الباب عددٌ من السيدات، وأهدتني أمينة الخزانة منديلًا مزخرفًا هدية من جلالتها.

لا تنعتني بالغرور لأنني أصف لك تلك التفاصيل متناهية الصِّغَر عن استقبالي، أنا أصفها لأنني أعدُّها مهمة في وصف أخلاقيات هؤلاء القوم؛ خاصةً في عملية التزاور اليومي التي هي الشغل الشاغل للسيدة الشرقية، وآمل، حين أخوض في تلك التفاصيل، أن أمنحك فكرة عن التهذُّب الجَمّ الذي تتميز به معارفي من النساء. يمكنني أن أضيف أيضًا، أنني أعتقد أن هذا الإجلال الواضح من حرملك الباشا، وحرملك الأعيان لشخصي نابع من كوني إنجليزية. لو كُنت سيدة شرقية ذات مكانة مرموقة، ما كنت لأتلقَّى هذا التبجيل الواضح، ولكن بصفتي زائرة رفيعة الطراز، أعترف أنهم يتعاملن معي بتهذُّب يفوق تخيُّلاتي. جذب انتباهي، بعدما غادرت قصر الدوبارة، مشهد من أفضل وأبدع ما رأيت هنا، حين قابلت أمة بيضاء تبلغ تقريبًا سبعة عشر عامًا. كانت واقفة مستندة برأسها إلى المدخل، بينما جمالها

كان يطغي على وجهها حد الكمال. كانت ملامحه بديعة بحق، شعرها كستنائي ومقلتاها لهما لون البندق المتناغم مع مُحيَّاها المليح. لا يمكنني وصف ملامحها بدقة؛ لأن هناك جمالًا عصيًّا على الوصف، وهذا كان طبيعة جمالها. مس وجهَها لمحةٌ من كآبة منحهتا المزيد من الجاذبية، تضمن لمن يراها مرة واحدة ألَّا ينساها أبدًا.

أخشى أنني لن أتلقى في أي وقت قريب دعوتي لحضور العُرْس المقام في حرملك الباشا. يبدو أن هناك تأخيرًا ما لا أعرف سببه، وهو أمر خاص لا يمكنني، بدافع التهذُّب، أن أستفسر حياله. ولكن ابنة عم السلطان أخبرتني، قبل عدة أيام، وعلى وجهها ملامح تشي بخطورة ما تلفظه، أن هناك نقطة غير محسومة، وهي بالتحديد اختيار العريس! عدا ذلك كُل شيء مُعد وجاهز. في هذا الجزء الشاسع من العالم، السواد الأعظم من الناس لا يُعنى أبدًا برغبات الابنة في اختيار زوجها. تُغذَّى الفتاة وتُربَّى في انتظار اليوم الذي يُودِعها والداها إلى حماية زوجها، رجل غريب تمامًا عنها. ربما تتعجب من طبيعة الزواج في هذه البلاد، وربما تتنهد آسفًا لحال تلك النساء اللائي لا حول لَهُنَّ ولا قوة، ولكن إصلاح هذا النظام، في ظل الظروف الحالية، ضرب من المستحيل، أؤكد لك، من وجهة نظري الشخصية، أن النساء ذاتهن سيعزفن عن محاولة اختيار أزواجهن، أو التعرف إليهم بأنفسهن قبل الزواج.

الزواج بين الطبقة المتوسطة في هذه المدينة عادةً ما يختلف في مظهره. منذ عدة أيام مرَّ موكب زفاف عبر شوارع الحي الذي نقطنه، في مقدمته مهرج يمتطي حصانًا، ويرتدي ملابس سخيفة المظهر، بينما يعتمر قُبَّعة طويلة مدببة، ويزين وجهه بذقن مستعار، أخذ يستعرض حركات ساخرة فوق حصانه. لحق به رجلان يمتطيان جملين، وقد عُقد دُفَّان مختلفا الأحجام بسَرْجِ الجملين، وأخذ الرجلان يدقان الدفوف في إيقاع منتظم. بعدهما ظهر رجل يحمل مشعلًا كبيرًا تصاعدت من قمته ألسنة الخشب المحترق، وقد غطاه منديل مزخرف. هذا المشعل، الذي غرضه الأساسي إنارة الطرقات، كان حاضرًا فقط للتباهي. ثم ظهر رجل يسير على خشبتين مرتفعتين، ورفقته رجلان أشهروا الحسام، وقد ارتدوا ملابس ملونة، واشتبكوا - صوريًّا - في نِزَالٍ بالسيوف. بعدما اختفى رجال السيوف، ظهر راقصان صحبهما موسيقيون يحملون آلات موسيقية، ويُنشدون الأغاني ويتراقصون بخفَّة. ثم ظهر خمسة غلمان، يبلغ عمر الواحد منهم خمس أو ست سنوات، يرتدون ملابس نسائية صاخبة، مُثقلة بالذهب، ومزخرفة بخيوط الذهب والجواهر التي أربكت أبصار الناظرين. وقد غطى كل غلام نصف وجهه بقطعة من قماش مزخرفة وقايةً من عين الحسود. ظهر بعد الغلمان، نساء أربع، كان دورهنَّ إضفاء لمسة أنثوية على العُرْس. كانت كل واحدة منهن، وقد سِرْن جميعًا مثل السابقين على الأقدام، تحمل قطعة من القماش المُذهَّب على كتفها اليُسرى، وأطرافه قد ثُبتت بجانبها الأيمن. جميع الفتيات ارتدين الخمار، ثم لحقهن عدد مماثل من المتزوجات (ارتدين الحبَّارة الحريرية السوداء، وبَدَوْنَ، لأعين الأوروبي، أنهن يسِرْن في جنازة وليس زفاف)، في النهاية ظهرت العروس. كانت مغطاة بالكامل أسفل غطاء من الكشمير، كالمعتاد، ولكن زُخرف الغطاء بخيوط من ذهب

وجواهر لامعة لا تُرى سوى في حرملك الأعيان. صحب العروس اثنتان من قريباتها، واحدة تسير على كل جانب، ويتبعهن الأخريات، بينما تتقدمها امرأة تحمل المروحة المعتادة لتوفر لها الهواء المنعش (بغَضِّ الطرف عن برودة الجو)، كانت المروحة الكبيرة من ريش النعام الأسود، وسارت العروس أسفل مظلة من الحرير الأصفر، ذات عِصيٍّ أربع، وفي قمتها عُقد المنديل المذكور. خلف العروس وموكبها سارت فرقة من الموسيقيين. في النهاية بدا المشهد بأكمله كأنه من كتاب ألف ليلة وليلة، ملون، بديع، شرقي صارخ. سار الركب ببطء كما السلحفاة.

بينما نحن بصدد الحديث عن المواكب والزواج، يمكنني أن أذكر حدثًا سخيفًا وقع مؤخرًا: حادث نشوز زوجة. حُكم على أربعة من المحامين الذين يقنطون حيَّنا بالأعمال الشاقة، وتم اقتيادهم عبر الشوارع على ظهور الحمير بالمقلوب؛ وذلك لأنهم تورطوا في أمر هذا الزواج. لأشرح لك القضية، دعني أولًا أذكِّرك بقضية سمعت أنها أُحيلت لحكم جارتنا ديبوره، وكانت قضية رجل شاب وافق على الزواج من الفتاة العوراء؛ لأنها كانت ابنة رجل أعز منه شأنًا. تزوجا بالفعل، وأنفق الرجل مبلغًا باهظًا نظير مراسم العرس، ولكن لم ينتهِ الأمر كما توقع. لقد اكتشف أن زوجته تبلغ ثلاثة عشر عامًا، طفلة صغيرة رقيقة، ولكنها تملك رباطة جأش جعلتها ترفض الاعتراف به زوجًا لها. ولأنهما قد تزوجا بالفعل، لم يملك الرجل سوى أن يطلقها، أو يعتبرها زوجة قد نشزت عن طوعه؛ بالتالي لم يكن الزوج مُلزمًا بالفتاة كزوجة له، بل جاء دور أسرتها في التكفُّل بها والإنفاق عليها إلى حين ترتدُّ عن هذا النشوز. هناك العديد من تلك الحالات تحدث بصفة مستمرة، وهناك أيضًا امرأة في العشرين تتزوج من رجل في الستين دون غضاضة. أي فتاة تجاوزت بالكاد مرحلة المراهقة لا تتوانى عن القبول بزوج طالما يتسم بصفات الرجولة.

(73) ملحوظة صوفيا لين بول: لقد فقدت تلك السيدة ابنيها.

الرسالة الرابعة والعشرون

فبراير، ١٨٤٤.
صديقي العزيز،

ما كتبه أخي عن الحرملك، وعن عادات وأخلاقيات نساء هذه البلاد وجدته ليس فقط متناهي الدقة، بل أيضًا ذا فائدة كبرى لي، ويخدم مساعيَّ للاستعداد للحياة التي أعيشها الآن. مع ذلك، فمعلوماته في هذا الصدد، التي عرفها من رجال آخرين، هي بالطبع معلومات منقوصة، وقد كان حريصًا أشد الحرص على أن أستعين بملاحظاتي الشخصية، وبقدر ما سمعته من أفواههن عن أخلاقيات النساء والطريقة التي يُعاملن بها، في رأب الصدع الواضح في معلوماته.

بينما كانت تجربتي في الحرملك قصيرة الأمد، ومحدودة الأماكن، أكثر مما هي عليه الآن، كنت غير عازمة على التعبير عن رأيي بخصوص ما أدهشني - كراهية - خلال الشهور القليلة الأولى من إقامتي في البلاد، وهو أن هناك نسبةً كبيرةً من الرجال، وعددًا ليس بقليل من النساء، يرتكبون، بصفة شبه معتادة، أفعال قهر واضطهاد متكررة. على الرغم من مشاهدتي للعديد من محاسن الناس الذين تعرفت إليهم، فإن الرأي الذي عبرت عنه سلفًا ازدادت قوة وصلابة المعطيات التي تعضد هذا الرأي؛ لدرجة تمنعني من مقاومة الاعتراف بحقيقته.

الزوجات والإماء في منازل الأعيان هم عادة، إذا سُمح لي الحُكم بما رأيت وسمعت، يُعاملن من قِبل الزوج والسيد بعطف بالغ. ووضع الإماء، بصورة ما، يبدو أفضل أحيانًا من وضع الزوجات؛ لأن الزوجة دائمًا ما تعيش تحت وطأة الخوف من الطلاق، بينما بيع أَمَة، كانت ملكًا للأسرة لمدة طويلة، هو أمر مُشِين للسمعة إلا في حالة كرب مادي كبير، وإذا أنجبت الأَمَة ابنًا لسيدها، وتأكد أنه من صلبه، يصبح من غير القانوني بيعها. لكن بين الطبقات الوسطى والدنيا، فكلتاهما، الزوجات والإماء، يُعاملن بوحشية بالغة، الزوجة عادة ما تُضرب بشراسة، والأمة، ليس غالبًا، قد تُضرب حتى الموت!

جار لنا جَلَد زوجته، منذ عدة أسابيع، بطريقة بربرية، وطردها خارج البيت؛ لأن وجبة الغداء لم تكن جاهزةً في الوقت المحدد. مع ذلك، بعد مرور يومين، أعادها مرةً أخرى للمنزل. ومن مدة ليست ببعيدة، ضرب الرجل ذاته أَمَة لديه لدرجة طرحتها الفراش أسبوعًا تقريبًا، ثم وافتها المَنيَّة. هذا الرجل كان قبطيًّا، وبالتبعية مسيحي! رجل آخر ضرب واحدة من إمائه حتى ألقت بنفسها من النافذة وماتت على الفور. هذا الرجل أيضًا كان قبطيًّا مسيحيًّا! يُخطئ، الكثيرون، الذين يقولون: «ما الحاجة لبعثة تبشيرية هنا لإرشاد الأقباط، وهم في الأصل مسيحيون؟» لكن المرء الذي يعرف هؤلاء القبط جيدًا أكَّد لي أن وضعهم

الأخلاقي يفوق المسلمين سوءًا، حتى إن المسلمين يتحلون بكثير من صفات المسيحية التي لا تظهر أبدًا لدى المسيحيين القبط. لكن على أيَّة حال، أنماط العنف التي أشرت إليها يمارسها المسلمون والمسيحيون، ولكن المسيحيين أكثر وحشيةً في ممارساتهم. من المحزن أنه ينبغي عليَّ - لقول الحقيقة - أن أكتب تلك الكلمات!

المعهد الإنجليزي في هذه المدينة يعتبِر دوره الرئيس هو تقديم الأقباط للمعرفة الحقَّة التي هي المُتطلَّب الأول لتطوير وضعهم الديني والأخلاقي، وأنا أنظر لهذا المعهد بصفته أفضل المعاهد التابعة لكيان «المجتمع التبشيري». لم تظهر الأخبار التي ينشرها المعهد في جريدة المجتمع التبشيري إلا القليل من أهميتها الكبرى؛ لأن ببساطة الدور التي تؤديه لا يمكن أن يُقدره سوى شخص قد اختبر بنفسه حالة هؤلاء الناس المستهدفين بالمنفعة، بالإضافة إلى مساعيهم التي لا تعرف الكلل، وحماستهم في نكران الذات أمام تحقيق أهدافهم. هناك مُصلّى مُلحق بالمعهد، كبير كفاية لاستقبال المُصلِّين، هناك أحظى بفرص، أمتنُّ لها، للخدمة في كنيستنا، والإنصات للعديد من الترانيم البهيَّة. على أيَّة حال، عليَّ التوقف عن هذا الاستطراد، والعودة إلى صلب الموضوع الذي جنحت عنه.

نادرًا ما تمر عدة أيام دون أن نسمع صرخات مثيرة للشفقة لنساء وأطفال يعانون الصفعَ أو الضربَ بالعصا، وأحيانًا ما نختبر مصاعب في مساعينا لوقف تلك الأعمال البربرية التي يمارسها جيراننا. يتسم دومًا الرد على إدانتنا لتلك الأفعال بأكثر الإجابات تحضرًا، ويصحبها تحية ودودة، وتأكيد حثيث أن، ولصالحنا، من الأفضل مسامحة المتعدي. أعتقد أن العنف، الذي يُعد غالبًا أمرًا عاديًّا لدرجة ما، ناتج عن القمع الذي يعاني منه هؤلاء الناس، وأعتقد أن كُل مَن درس تركيبة العقل البشري يتفق معي؛ لأن، عدا استثناءات قليلة، المظلوم يتحول لأعتى الظالمين.

مع ذلك فالنساء يتسمن بمشاعر عَطُوفة ورقيقة، رغم أنهن (كما لاحظت) أحيانًا ما يمارسن القمع، ومؤخرًا أحبطني ما رأيته من ممارسة عنيفة لاثنتين من جاراتنا المقربات. الأولى، ديبوره العجوز، والتي سبق وذكرتها في رسائلي، قد ضربت بعنف فتاةً صغيرةً تعيش معها في مناسبات عديدة؛ لدرجة أننا كنا نلجأ لاحتضان الفتاة المسكينة في منزلنا في تلك المناسبات، إلى حين أن تعود، برغبتها الخاصة، إلى سيدتها القاسية، والتي يُقال أنها جدَّتها، وقد وعدتنا السيدة بألَّا تُكرر هذا العنف.

أما القضية الأخرى فكانت أكثر إحباطًا. كانت امرأة تسكن المنزل المجاور لنا، وقد فقدت سبعة قروش، واكتشفت أن حفيدها الصغير هو السارق، فأرسلت في طلب رجل، مُسمَّاه الوظيفي الضارب، ليعاقب الطفل. سمع واحد من أطفالي بالأمر، وحين اكتشف أنه إذا صعد سُلَّمًا خشبيًّا قصيرًا سيتمكن من الوصول لنافذة تطل على باحة منزل هذه المرأة، فعل ذلك، وعلى الفور جاء ليؤكد لي صحة الأخبار المترامية، وأخبرني أن الرجل قد وصل وقد ربط قدمَي الطفل المسكين ويديه، وأن الجدَّة تقف شاهدةً على الحدث. ولَمَّا أخبرني

بتواجد الجدة، أكدت لابني أن الأمر لن يتعدى محاولتها لتخويف الطفل، وأنني أكيدة أنها لن تتركه يتأذَّى. رسخ لديَّ هذا الاعتقاد بفضل حبي للجدات الإنجليزيات، اللاتي يعتبرن أحفادهن دُرَّة عمرهن. وا حسرتاه! لقد أخطأت حين اعتقدت أن النساء العربيات يملكن المشاعر الطبيعية لأي امرأة! بالكاد كدت أغادر السُّلَّم الخشبي، حين استدعتني صرخات طفلي العزيز، الذي كان يرغِي ويُزبِد من الألم والإحباط؛ لأن الرجل بدأ في ضرب قدم الطفل، وظهره، وصدره، بينما أخذ المسكين يتلوَّى على الأرض في محاولة بائسة للتخلص من لطمة العصا المؤلمة، بينما العجوز تصرخ بين كل ضربة وأخرى «مُجدَّدًا!» كانت تلك الوحشية لا تُطاق، وقد أرسل أخي على الفور واحدًا من الخدم يُهدد المرأة بالانتقام إذا لم تتخلَّ الآن عن هذا الفعل الوحشي، وتُطلق سراح الصغير على الفور، وهكذا عاد الهدوء إلى منزلنا ولكن لم تعُد السِّكِينة لعقولنا. المرأة الشيطانية ذاتها كانت تندب من حينٍ لآخر فقدان ابنها، وهو والد الصغير، وتملأ السماء بالعويل أيام الإثنين. كانت دائمًا مصدر إزعاج دائم لنا، والآن أصبحت مصدر غضبنا حين فهمنا مدى مداهنة عويلها ذاك.

على أيَّة حال، بالحديث عن الموتى، فإن مراسم المسلمين لموتاهم مثيرة للاهتمام للغاية، وعويلهن كثيرًا ما يترك أثرًا عميقًا في النفس، شريطةَ أن يكون العويل صادقًا وليس بدافع مجاراة الأحداث، ربما لأنهن يعبرن عن أقصى درجات الألم، وانكسار القرب في صرخاتهن. فن النحيب على طريقتهن بدا لي أنه يحتاج للكثير من الممارسة لتحقيقه، ويتم تعيين أساتذة متمرسين في النحيب لحضور مراسم الدفن وذلك في الطبقات الوسطى والعليا. يصحب صرخات العويل والنحيب دُفٌّ ينظم الإيقاع، وأحيانًا ما ينقطع العويل لترديد أناشيد رثاء حزينة. تلك الممارسات، وأفعال النساء المُنتحِبات ككل، قد مُورست لقرون بعيدة، ونراها مُجسدة على جدران مقابر المصريين القدماء، كما ذُكرت في أجزاء عديدة من الكتاب المقدس، مثل الآية ٢٥ في الإصحاح الخامس والثلاثين من الكتاب الثاني في العهد القديم، ومثل الآية ١٨ من الإصحاح التاسع من سفر إرميا، ومثل الآية ١٦ من الإصحاح الخامس سِفْر عاموس، ومثل الآية ٢٣ من الإصحاح التاسع سفر القديس متَّى، كما تُعيد إلى أذهاننا: «الْمُزَمِّرِينَ وَالْجَمْعَ يَضِجُّونَ»(74) لوفاة ابنة جايروس. كما وُضحت في الإنجيل، تلك العادات الشرقية وغيرها تثير بالغ اهتمامي. ويقول إرميا، ليحضَّ أبناء وطنه على الانتحاب لعصيانهم: «تَأَمَّلُوا وَادْعُوا النَّادِبَاتِ فَيَأْتِينَ، وَأَرْسِلُوا إِلَى الْحَكِيمَاتِ فَيُقْبِلْنَ، وَيُسْرِعْنَ وَيَرْفَعْنَ عَلَيْنَا مَرْثَاةً، فَتَذْرِفَ أَعْيُنُنَا دُمُوعًا وَتَفِيضَ أَجْفَانُنَا مَاءً.»(75)، ويبدو أن مشاعر الأسر الشرقية لا تزال تتسم بذات الرهافة في يومنا الحاضر؛ لأنني كثيرًا ما أسمع نحيب النساء وبكاءَهن الواضح يقطع أصوات صرخات النساء المُستأجَرات لتلك المهمة، والبارعات في مهمتهن. المقابر في أحياء القاهرة لها مظهر أكثر جاذبيةً من العديد من المشاهد المحيطة بنا، وفيها تقع جبَّانات خاصة، تخص كل عائلة، إذا كانت الجبانة مِلكًا لعائلة ثرية فتضم أيضًا «بيت الحِدَاد». ويقطن هذا البيت عادةً نساء الأسرة اللائي يقضين فترة عيدَي الإسلام الرئيسين في المقابر يرثين موتاهن. ويُؤثَّث المنزل بالأثاث المناسب لراحتهن، وتمكث النساء في المنزل المذكور أثناء فترة العيدين، أو بعد وفاة أحد الأقارب مباشرةً لمدة ثلاثة أيامٍ وليالٍ، أو يزيد. بعض بيوت الحِدَاد تتسم بمظهر جميل ومبهج،

ويحفُّها عدد من الأشجار والأزهار، وأعتقد أن النساء يجدن كثيرًا من المباهج في زيارتها خاصة وأن حياتهن تتسم برتابة معهودة. بعض النساء، اللائي لا يملكن منازل للحداد في مقابر أسرهن، يُقام لهن خيام بناءً على طلبهن.

قضينا عدة ساعات يوم أمس في المقابر الجنوبية، المتاخمة للمدينة والتي تقوم في قلب الصحراء، وكان من المثير مشاهدة مقابر أسرة محمد علي. بدت المقابر مزيجًا من الأذواق والأنماط والأبعاد المختلفة، بعضها في حالة ممتازة، وتتسم ببنيان صلب. وغيرها له بنيان هش. على الرُّغم من أن العديد من المقابر مُعبَّدة برخام أبيض بديع، فإن أكثرها جاذبيةً هي المقابل الأقدم، لِمَا تُظهره من أذواق بديعة ومختلفة، وتظهر الأذواق البديعة جليَّة في القباب والمآذن، وزخارفها المصنوعة من الأرابيسك الأصفر، وأعمدتها الرخامية البيضاء. المبنى الذي يضم مقابر عائلة الباشا تزينه قباب محدودة الارتفاع، ولا تتسم بما يستحق الإعجاب. كيف يمكنني أن أصف لك المنظر الداخلي المبهج للمبنى؟ داخل المبنى تقع غرفتان فسيحتان متساويتان تقريبًا في الحجم، وفيهما تقع لحود العائلة. تلك الغرفتان مُعبَّدتان بالرخام الأبيض، ومزخرفتان بأبهى الزخارف والنقوش اليدوية. الأرض مُغطاة بسجاد بديع، والمشهد ككل يوحي بشعور هادئ ومريح. كما لا يشي المنظر بكونهما قبورًا للموتى. الألوان البديعة المتنوعة التي تقع عليها العين، والزخارف المميزة تخدع الناظر فلا يتذكر أن هذا المبنى يضم مقبرة كبيرة، لكن سرعان ما تتلاشى الألوان أمام رؤية القبور التي قد تُعدُّ الأفضل في الجوار. وقد منحنا الأفضلية لأم نازلة هانم، وأم محمد بيك دفتدار لتتقدمنا، وكانت الأخيرة على ما أتذكَّر تحمل سعف النخيل.

يبلغ طول القبور عمومًا ما يقرب ثمانية أقدام، وارتفاعها أربعة أقدام، وعلى قمتها هناك لوح مستطيل سُمْكه قرابة القدم، أما الألواح أسفل النُّصُب وأعلاه فيتراوح ارتفاعها بين الثمانية والعشرة أقدام، وعلى اللوح الأعلى هناك غطاء رأس المُتوفَّى، محفورًا في الحجر، ومصبوغًا. في الصالة الرئيسة هناك أربعة قبور فارغة، تم بناؤها دون زخارف. لكن الزينة في العموم تليق بصالات الاحتفالات. الذوق التركي غير مُعتمد كثيرًا في تزيين أماكن المعيشة؛ وكذلك في الأماكن التي لا غنى فيها عن وجود لمسة زخارف هادئة ورسمية. الأمر ذاته لا ينطبق على الذوق العربي لأن الأتراك لهم ذوق مبهرج وصاخب، بينما العرب لهم ذوق عفيف وراقٍ، وهكذا نجده واضحًا في الكثير من العمارة المنزلية وكذلك في زخارف المقابر والمساجد.

شعرت أنه يمكنني في أي وقت زيارة المقابر السالف ذكرها، وذلك بفضل مفاتن المكان، وكذلك الراحة الشخصية التي اعترتني، ودون أن يُعكر صفوي شيءٌ من كآبة المقابر.

ذهبنا إلى زيارة منزل بديع مُلحق بالمقابر، ويليق بمكانة حرملك صاحبه؛ وكذلك لنزور النساء القاطنات فيه، وقد قوبلنا بترحابٍ شرقيّ صادق. كانت السيدة الأولى في الحرملك، والتي ارتدت ثوبًا قرمزيًّا بديعًا مُزخرفًا بخيوط الذهب، امرأةً عَطُوفًا وَدَودًا، مخطئة كُليًّا

في تدبير أمور الأطفال. تم إحضار رضيعين من أبناء الحرملك لنراهما، الأكبر كان صبيًا بالكاد يسير، وبمجرد أن بدا لنا أمرت السيدة الأولى بإحضار عصا لتسلية الصغير، الذي كان بهدوء يعبر السجادة. لَما فهمت أن أمر الضرب هذا قد يكون جادًّا، توسطت للقطة التي تحملها السيدة لكي لا تضربها، حينها أجابتني بغموض: «إنها تروق لي كثيرًا، لا أعتقد أنني سأوذيها.» ثم رفعت يدها بجهد ملحوظ، وتركت القطة تهبط برفق. ثم أمرت واحدة من الإماء أن تركع؛ الأمر الذي فعلته الأمة بترحاب بالغ، وأحنت رأسها في خنوع يستحق السخرية لتتلقَّى كرباجًا، وتكررت المهزلة نفسها. على الرغم من أن كلتيهما - الأمة والقطة - لم تعانيا من أي ألم في هذه المناسبة، فإن ما حدث بالطبع سيترك أثرًا سلبيًّا في عقل الصغير. وا حسراتاه! على الإماء والقطط حينما يشبُّ هذا الصغير ويكيل لهم صنوف العذاب!

(74) ملحوظة المترجمة: إنجيل متَّى ٢٣:٩.

(75) ملحوظة المترجمة: سفر إرميا ٩:١٧.

الرسالة الخامسة والعشرون

صديقي العزيز،

رغم أن الكثيرين قد كتبوا عن الأهرام، وأي وصف جديد سيحمل بين طيَّاته دون شك لمحةً من الحكاية المكررة، فإني وجدت الكثير مما ينبغي عليَّ أن أقصَّه عن هذه الآثار المذهلة، وربما الأعظم من بين عجائب الدنيا، والتي كانت مصدر عجبنا وفضولنا حتى في سن الطفولة، ومجرد النظر إليها يشكل عنصرًا مهمًّا من حياة المرء. مع ذلك، سأحاول، قدر الإمكان، أن أُجنِّبك عناءَ القصِّ المُكرَّر الذي سبق وقرأت عنه أو سمعته عن هذه الأهرام في كتابات العديد من الرحَّالة.

بعدما قررت، أثناء زيارتنا، أنه لا مفرَّ من قضاء عدة أيام في مغارة جنائزية، وقضاء ليالينا في خيمة، بدأنا في تلك الرحلة القصيرة البديعة ونحن نحمل في قلوبنا أبهى التوقعات. السراب هو ظاهرة اعتيادية في الشرق، يسببها عادةً نقاء الجو الاستثنائي، وهو يزداد بصورة واضحة كلما اقتربت من الأهرام. وإنه من الملاحظ أيضًا أننا كلما اقتربنا من وجهتنا، بدت أقل ضخامةً وجاذبيةً مما بدت عليه عن بُعد. حين اقتربت أول الأمر من الأهرام، أظن أنني كوَّنت رأيًا غير دقيق إطلاقًا عن أبعادها. بمجرد أن عبرنا النهر بدت الأهرام على بُعد ميلٍ من موضعنا، وبعدما تحركنا قرابة الفَرْسَخ عن الجيزة، بالكاد صدقت أن أمامنا مسافة طويلة لنصل إلى سفح الأهرام؛ وذلك لأن المسافة من الجيزة، عبر الطريق الذي سرناه، تبلغ أكثر من ستة أميال، رغم أن الخط المستقيم بين الجيزة والأهرام يبلغ خمسة أميال فقط. حين أصبحنا على بُعد ميل من الأهرام، تعاظم السراب، وهكذا أصبحت الأحجار واضحة بالنسبة إلينا، وكان من السهل حساب أن تلك الأحجار لا تفوق في عددها عدد قرميد منزل يتراوح ارتفاعه بين الخمسين والستين قدمًا. سبَّبت تلك الأحجار لَبْسًا جليًّا لي أعجزني عن حساب مساحة هذا الصرح؛ خاصةً وأنا غير معتادة على رؤية أحجار لها هذا الحجم الضخم ومستخدمة في البناء. ولكن ربما هذا الخلط ما وقع لو كان هناك أي مبنى مجاور للأهرام يمكن مقارنته بها. وهذا ما اقتنعت به تمامًا حين وصلت لسفح الهرم. عندها شعرت بإثارة لرؤية هذا الصرح عن قرب بعدما ظننت أنني قد وصلت لغاية رحلتي. كاد السراب الناتج عن نقاء الجو يخدعني مرةً أخرى، ولكني تلك المرة كنت أنظر لأشياء أعرف أحجامها الطبيعية جيدًا كالنخيل والقرى وخيام الأعراب. بدا لنا، بينما نقترب من الأهرام، طلَل جسر قديم، أغلب الظن أنه كان جزءًا من الجسر الذي بناه قراقوش بغرض نقل الأحجار من الأهرام إلى القاهرة أثناء بناء القلعة وسور المدينة الثالث، وربما هذا الصرح قد بُني على الأطلال التي وصفها هيرودوت لجسرٍ أقدم بُني لتسهيل نقل الأحجار من محاجر الضفة الشرقية للنيل إلى موقع الهرم الأكبر. بينما كنا على بُعد ميل تقريبًا من وجهتنا، قُلت لأخي: «الأهرام لا تبدو ضخمة الحجم كما تخيلتها، ونحن الآن على مقربة منها.»، فأجابني: «بالكاد على مقربة منه! انتظري قليلًا ثم بعد ذلك أخبريني بما تفكرين.»

وهكذا استمررنا بالمسير، والمشهد المخادع الذي أوحى لي بقربنا من الصرح العظيم استمر في مفاجأتي بينما ندنو أكثر فأكثر. في هذا الفصل من العام كان يلزمنا ثلاث ساعات لنصل الأهرام قادمين من القاهرة، وفي هذا الشهر، بفضل طقسه البارد، هو الشهر الأمثل لمثل تلك الرحلة. استبقنا صديق وَدُود إلى الأهرام، هو السيد بونومي المعروف بطول المدة التي قضاها في هذه البلاد، ومعرفته الواسعة بآثارها، وأعدَّ لنا خيمة ومسكنًا مريحًا داخل واحدة من المغارات الجنائزية في الصخور، والتي كانت لفترة من أساسات الأهرام، رُغم ما لحق بها الآن من دمار. وجدنا هذا المكان مناسبًا ويمتاز بهواء منعش بفضل ثلاث كَوَّات كانت بمثابة نوافذ، بالإضافة إلى المدخل. نُصبت خيمتنا بجوار المغارة، وفُرش السجَّاد، وكان منزلنا في الصحراء مريحًا لدرجة بالكاد تقبَّلتها. هناك شيء يُذكِّرك بالمنزل كثيرًا حين تحمل معك سجَّادتك الخاصة، أينما حللت، سواء في مَرْكَب أو في الصحراء، يقع نظرك عليها حين تفكر، فتمنحك أشكالها المألوفة أدفأ ترحاب. وعادة فَرْد السجادة الصغيرة فوق السَّرْج يمنح المرأة المشرقية رفاهيةً حَملها معها أينما حلت وارتحلت. حين تخلُص للراحة، تقوم مساعداتها بفرش سجادتها، ولا يوجد أفضل من الاستلقاء فوقها خلال رحلة صحراوية، والحصول على وجبة بسيطة من الخبز والفواكه، ورشفة من ماء النيل اللذيذ.

صعدنا، فور وصولنا، إلى التل الذي بُني فوقه الأهرام، وهناك اختبرت التأثير الذي وصفته بشأن حجم الأشياء التي مررنا بها في طريقنا. لون الأهرام اللامع، الذي كما يبدو لم يتغير كثيرًا على مرِّ آلاف السنين التي مضت على بنائها، لم يمنحها مظهرًا عتيقًا بل على العكس هناك لمحة من الحداثة أدهشتني. بالنظر إلى حجمهم الهائل، وجدت أن ظني عاد غير خائبٍ حين صعدت التلَّ الذي تستقر عليه تلك الصروح. حين كنت على بُعد ياردات قليلة من سفح الهرم الأكبر، تمكنت أخيرًا من إدراك حجمه الشاسع.

مكثنا لوقت متأخر أمام الأهرام، وأذهلتنا مشاهدة ظلال الهرم الأكبر والأوسط تمتد عبر السهل الأخضر وصولًا للنهر بينما كانت الشمس تميل للغروب. المشهد من فوق الهضبة الشاسعة التي بُنيت عليها الأهرام هو أكثر جاذبيةً من قدرتي على الوصف.

عند عودتنا للمغارة، حظينا بوجبة المساء بشهيَّة مفتوحة كسائر مسافري الصحراء، ثم خلدنا للراحة مسترجعين ما رأيناه اليوم من معالم، ومُتفكِّرين في موقعنا الجديد ذاك.

لم نكن سكان المغارات الوحيدين خلال مكوثنا بالقرب من الأهرام، حيث كان هناك صف من مساكن عمال تنقيب عملوا في هذه المنطقة بحثًا عن جبَّانات المصريين القدماء، قد بدأها الكولونيل ڤيس وجماعته عام ١٨٣٧، ويستغلها الآن جماعة من النوبيين كمسكن مُؤقَّت (مقابل إيجار زهيد) للمسافرين. علاوة على ذلك، وعلى مقربة من المغارة، سكن أعرابي واحدة من المغارات ولكنها كانت أفضل حالًا من مغارتنا. وقد عاش في هذه المغارة ناسكًا زاهدًا الدنيا، فاعتبره سكان القرى المجاورة واحدًا من القدِّيسين، ويزودونه عادةً باحتياجاته من مأكل ومشرب. من المُرجَّح أن الرجل قد خلص إلى حياة الزُّهْد بسبب

كسله، وقد وجد من الأيسر الاعتماد على الآخرين ليجني قَوت يومه. من الرائج رؤية الكثير من العرب يعهدون بالخبز والطعام وأحيانًا النقود إلى هؤلاء الناسكين؛ خاصةً أيام الجمعة، حيث يستقبل الناسك العديد من الزيارات.

قد سكن أخي، خلال زيارة طويلة للأهرام عام ١٨٢٥، واحدة من المغارات التي يملكها النوبيون. هناك أعمال تنقيب في الجهة الشرقية الأمامية من موضع الهرم الأكبر. آنذاك كان هناك عائلة تتكون من رجل عجوز (يُدعى علي)، وزوجته (التي كانت أصغر من نصف عمره)، وابنة صغيرة، يسكنون في المغارة المجاورة، وقد أودع كافيلجيا(76) في حمايتهم عددًا من التحف والآثار. لم يكن لأخي جيران غيرهم سوى سكان قرية تبعد نحو ميلٍ عن مغارته. وقد أبدى الشيخ عليّ فائدة كبيرة بإحضار المياه من بئر كان كافيلجيا قد حفرها في السهل الرملي، على مقربة من المغارات. كان رجل يتسم بقليلٍ من الدهاء، لكنه يملك مشاعر قوية، تبينت لأخي بسبب واحدة من الحوادث التي وقعت أثناء إقامته بالقرب من الأهرام. ذات يوم خلال فترة بعد الظهيرة، أرسل الطاهي الذي يعمل لدى أخي ابنة العجوز علي إلى القرية المجاورة لتبتاع بعض التبغ. شعر أخي بالقلق البالغ حين غربت الشمس ولم تعُد الفتاة، وأرسل خادمه للبحث عنها وإعادتها. ساور القلقُ قلبَ عليّ بدوره، وأرسل زوجته في عملية بحث هي الأخرى، ولكن حين دنت أستار الليل، ولم يرَ أي بادرة لعودة ابنته الصغيرة، انتابته نوبة جنون وأخذ يلطم صدره، وتململ على الأرض، وأخذ يصرخ دون توقف: «يا مبروكة! يا مبروكة!» (اسم ابنته، والذي يعني المباركة.). بعدما حاول أخي لفترةٍ تهدئته، رحل الرجل إلى القرية ليستطلع ما جرى. مرت خمس دقائق أخرى وأخي يجلس أمام مغارته، يتساءَل عن سبب عدم عودة الجميع، حتى إن حارسيه الاثنين من البدو لم يأتيا في المساء كعادتهما، حينها سمع صرخات عالية مثيرة للشفقة تتصاعد من السهل الصحراوي المنبسط أمامه. ركض أخي نحو البقعة الصادر عنها الصرخات - تاركًا خادمًا في المغارة لأن غريبًا كان يمكث بها. لكن لأن الليل قد خيَّم بظلامه الدامس، لم يستطع أخي رؤية أي شيء، مع ذلك بعدما دنا قليلًا من مصدر الصوت، سمع الكلمات التالية تتكرر بسرعة مرة تلو أخرى: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله» وحينها وجد المسكين علي راقدًا على الأرض. قال علي لأخي إن عفريتًا قد أمسك به من حلقه، وألقاه على الرمال، وأنه كاد يختنق. (يبدو أن العرب يُعانون تشنجاتِ الحلق، والتي ينسبونها دائمًا للسبب المذكور). في الآن ذاته، كان البدويان اللذان انضمَّا للخادم وزوجة علي لمساعدتهما في البحث، قد وجدا الطفلة، وقد جذبتهما، كما أخي، الصرخات الصادرة عن الرجل. ساعدوه في العودة، لكن المسكين كان مذعورًا ومتوترًا؛ لدرجة أنه استمر لعدة أيام يتصرف تصرفات حمقاء.

في اليوم التالي، بعدما زار أخي الأهرام، جاء شاب بدوي، الغريب الذي سبق وذكرته، سأله أن يستمر في البقاء معه. وقد حدث له ما أراد حيث لم يغادر البدوي مغارة أخي إلى حين رحل أخي عنها، وأظهر دهاء يافع، جعل أخي يستمتع بصحبته إلى أقصى درجة. كان يقصُّ كل ليلة على أخي، بينما يدخن غليونه، حكايا وأشعارًا من قصص «أبو زيد» التراثية

الشهيرة، ولكن في الآن نفسه كان يهجو كثيرًا خدم أخي المصريين، بسبب احتقاره للفلاحين. وقد اعترف بصراحة أنه هرب من جيش الباشا، ويخشى أن يدلف إلى إحدى القرى خشيةً أن يتعرف إليه أحد ويعيده إلى معسكر الجيش. حين عزم أخي على مغادرة موقع الأهرام، سأل هذا الشاب عما ينوي فعله؛ خاصةً وأنه لا يجرؤ على ولوج القرى. فأجابه: «مَن أحضرك لي؟ الله واسع عليم.».

خلال زيارتنا للأهرام سأل أخي حراسنا إذا كان أحدهم يتذكر أو يعرف علي العجوز، فأجاب أحدهم أن علي والده، وأنه قد وافته المَنيَّة منذ عدة سنوات. سأله أخي تاليًا ما إذا كانت مبروكة في قيد الحياة، فأجابه الرجل بنعم وأضاف: «إنها بخير، وتزوجت، وأُمّ لطفلين.» ثم استطرد الرجل ليؤكد لأخي أنه يتذكر زياراته السابقة جيدًا، وأنه يشعر - الرجل - بارتياح لحراسة رجل من المعارف القدامى. هذا الرجل، رغم ما يتمتع به من صدق وشهامة، فإنه ليس مميزًا بمكانة اجتماعية، فقد تزوج عشر مرات، وأخبرنا أنه يود لو تزوج عشرين زوجة لو كان يقدر على تحمُّل نفقات تلك الزيجات، مؤكدًا أنه بالرغم من طلاقه أكثر من مرة فإنه طلق تلك النسوة لأنهن استحققن ذلك، لماذا؟ لأنهن فشلن في تلبية واجبهن نحوه، ولم يُقدِّرن عطفه معهن. وفقًا لقوله، فإنه كان دائم التعامل برفق معهن، لم يَسبَّهن قط، كان يضربهن فقط! سهولة الطلاق هي من عمل الشيطان اللعين، وعادة ما تسبب العوزة والبؤس. من المحزن انتشار تلك الحالات، وطلاق الزوجات لأسبابٍ تَوَافِه، بينما وعظ رقيق قد يجنِّب الأزواج من الوصول لتلك النقطة، وسيمنحهن مساعدة غالية. يؤسفني القول أن النساء هنا عادةً ما يتطلقن على حين غِرَّةٍ منهن.

حراسنا الثلاثة كان لهم مظهر جذاب، أقرب لمظهر البدو من مظاهر الفلاحين، وكانوا أبناء قبيلة قد قايضت - ليس من سنوات بعيدة - حياة بدو الصحراء الهائمين، بحياة الزُّراع المستقرين، ولكنهم احتفظوا بزيّ آبائهم وهو قميص فَضْفَاض، وقطعة صوفية ضخمة تشبه الغطاء تلف جسدهم، وتمنح صاحبها مظهرًا بدائيًّا للغاية. في البداية كان مسليًا الإنصات لأولئك الرجال ينادون بعضهم البعض طوال الليل خشية أن ينام أحد منهم، ولكن بعد ذلك أصبح الأمر مزعجًا ومنهكًا، نداؤهم المستمر: «افتح عينك! افتحهما جيدًا!» جعلنا في النهاية نراقب الأوضاع بدورنا. واحد من الحراس كان يرقد خارج الخيمة على مقربة من رأسي، وأخذ يُسرِّي عن نفسه بالغناء المستمر. كنت أودُّ لو وقف بيني وبين جاري النَّشِط فاصل أكثر صلابةً من القماش. نهضنا منهكين في الصباح، ولكن هواء الصحراء القوي سرعان ما بث في نفوسنا النشاط، وبدأنا مغامرتنا بطاقة متصاعدة.

التلُّ الصخري الذي بُني فوقه الأهرام يرتفع عن السهل الرملي الذي يفصل الأهرام عن الأرض الزراعية بنحو مائة وخمسين قدمًا. كان التل من الحجر الجيري الأحمر يعجُّ بالحفريات التي أخبر سترابو أنها تتواجد بوفرة حول الأهرام، واقترح أنها حفريات نبات العَدَس الذي كان يقتات عليه العمال المشاركون في بناء الأهرام! وقد تناثرت تلك النباتات في أجزاء عديدة من سلسلة الجبال التي تحاذي هذه الضفة من وادي النيل. حين يُنحت

الحجر من الجبال حديثًا يكون له لون أبيض فاقع، ولكن بتعرضه للهواء يتغير لونه درجاتٍ أدكن حتى يتحول إلى لَونٍ أصفر واضح. الأجزاء العليا من الصخور مغطاة بالرمال والحصى وشظايا الأحجار، ونجد بينها قطعًا من الجرانيت والصخور السماقية، وكريستالات الصخور، والعقيق، وعددًا من المحارات المتحجرة إلخ.

الهرم الأكبر هو الذي وصفه هيرودوت بكونه من بناء فرعون يُدعى شويوس، وسماه ديودورس خويوس(77). كما أضاف ديودورس أن البعض ينسب بناء هذا الهرم لملكٍ سمَّاه آرمايوس. وفقًا لمانيثون(78) (وهو المصدر الأوثق في هذه الحالة) فإن خوفو هو من بنى الهرم الأكبر، وهو ثاني ملوك الأسرة الرابعة، وهي الأسرة الثانية من أربع أسر شكَّلت ملوك المملكة القديمة.

وكان أهم اكتشافات الكولونيل ڤيس هو اكتشاف النقوش الهيروغليفية لأسماء الملوك بُناة الهرمين: الثاني والثالث، وقد أكد اكتشافه صحةَ ما ذكره مانيثون وغيره من المؤرخين عن هذه الآثار. أما اسم مُؤسِّس الهرم الأكبر، وفقًا لنطق عدة لهجات، فهو شوفو أو خوفو، وخوفو يتفق مع الاسم الذي ذكره مانيثون في كتاباته، أما شوفو فأقرب للاسم الذي أطلقه هيرودوت.

ارتفاع الهرم الأكبر ليس أعلى بكثير من ارتفاع الهرم الثاني، وقد فقد الهرم الأكبر الكثير من قمَّته، بينما الجزء العلوي من الهرم الثاني شبه مكتمل. مع ذلك فإن قاعدة الهرم الأكبر كبيرة بدرجة ملحوظة، رغم أن الفارق غير واضح للعين المجردة، ولكن صلابة وانتظام بناء الهرم الأكبر أفضل كثيرًا.

لا تختلف المتعة التي يشعر بها المسافر في عصرنا المعاصر لمشاهدة الأهرام، عن متعة النظر إليها في أيامها الجليلة، والتفكير في عدد الفلاسفة والأبطال الذين وطئُوا مواقعنا سلفًا متأملين الأهرام زاد من شعور الإعجاب والدهشة. المساحة الشاسعة لحجم الهرم الأكبر تصبح جليَّة حين يقف الناظر بجوار واحدة من زواياه. لكن مشاهدة الهرم عن بُعد، رغم أنها النقطة الأفضل لمشاهدته، لا تمنح الناظر القدرة على تحديد حجمه الدقيق؛ لأن الموضع البعيد عن زاوية الهرم يُهيئ للناظر أن زواياه قريبة من قمته، أما حقيقة الأمر فهي أن زوايا الهرم تقف على الأقل على بُعد نصف الطريق إلى القمة. بالتالي كثيرًا ما يخدع هذا البنيان الاستثنائي عين الناظر.

تبلغ مساحة كُل جانب من جوانب الهرم الأكبر سبعمائة وثلاثة وثلاثين قدمًا مربعًا، ويبلغ طوله عموديًّا أربعمائة وستة وخمسين قدمًا، ذلك وفقًا لقياسات أخي. يضم الهرم الأكبر مائتين وثلاثة مسارات، أو طبقات من الأحجار، وعليه يبلغ متوسط ارتفاع طبقة الأحجار نحو قدمين ورُبع القدم، ولكن الحقيقة أن الطبقات تتراوح في الارتفاع بين قدم وأربعة أقدام. والطبقات السفلى من الهرم أكثر ارتفاعًا من الطبقات العليا، وأحجار الطبقات السفلى

من الهرم من الصخور الصلبة؛ وكذلك جزء من الطبقة الثانية. في الزاوية المقابلة لموضع أخي، على بُعد اثني عشر قدمًا تقريبًا، هناك ساحة مربعة، عرضها اثنا عشر قدمًا، وعمقها يتراوح بين اثنين وثلاثة إنشات، على ما يبدو هي موضع حجر الأساس الأول لبناء الهرم الأكبر. عند منتصف كل جهة من جهات الهرم الثلاث هناك العديد من الأحجار الخارجية المُهشَّمة بسبب الأحجار التي سقطت من أعلى قمته، ولكن أحجار الزوايا لم يمسَّها سوء؛ وبالتالي من السهل استخدامها لارتقاء الهرم. الأحجار العليا والسفلى من الأهرام لها سطح مصقول، ولكن جوانبها خشنة وفي حالات كثيرة فقدت أبعادها المربعة. وقد سُدَّت الفجوات بإسمنت خشن له قوام وردي اللون. هذا الإسمنت، في بعض الأحجار، له الملمس الحاد للصخور ذاتها، وأحيانًا ما يصعب ارتقاؤه. قد لاحظنا بين الغبار وشظايا الأحجار المتساقطة من قمة الهرم، والتي استقرت على أسطح الصخور التي نطؤها، عددًا كبيرًا من بذور العدس المُتحجِّرة التي سبق وذكرتها لك.

تحدث الدكتور ليبسيوس، مؤخرًا، في اجتماع الجمعية المصرية في القاهرة عن طريقة بناء مثيرة للاهتمام قد اتبعها المصريون القدماء لبناء الأهرام، كما بُنيت على شاكلتها العديد من الآثار الشبيهة، كما رجَّح السيد ويلد المعماري الإنجليزي الذي شارك الدكتور حديثه.

الرسم التالي يوضح الطريقة التي اتُّبعت في بناء الهرم الأكبر:

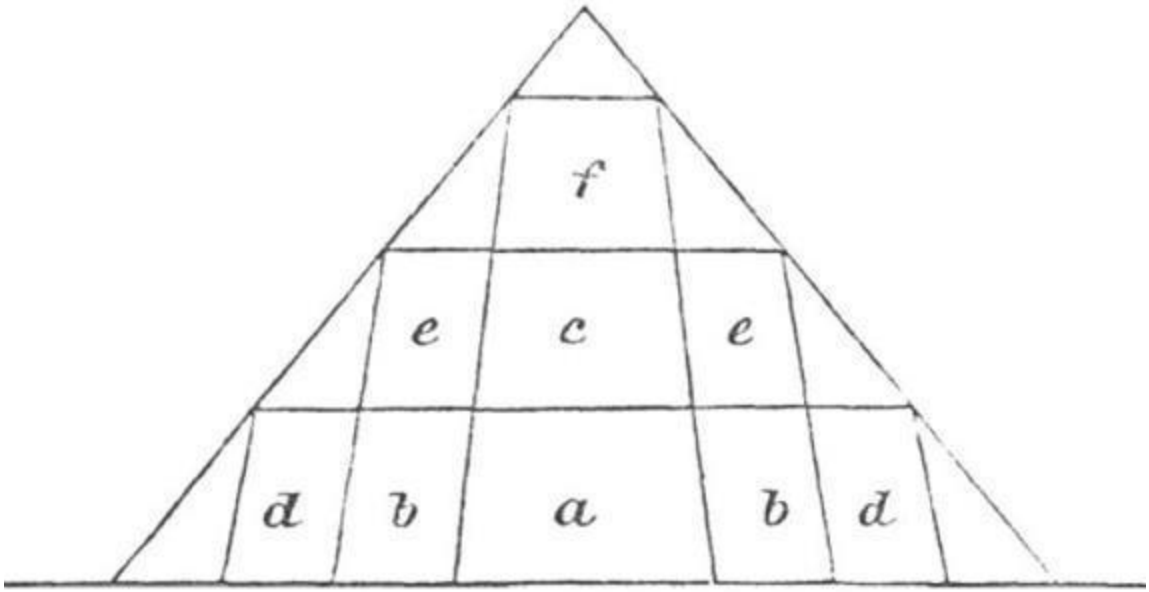

بناء متوسط الحجم مُشار إليه بالحرف اللاتيني a تميل جدرانه إلى الداخل قليلًا، ويضم، أو يغطي، غرفة الدفن، له قمة مستوية، وهو أول ما بُني في الهرم. ثم بُني الجزءان المشار إليهما بالحرف اللاتيني b، ولهما نفس ارتفاع البناء a؛ وكذلك جدرانهما تميل ذات درجة الميل، ولهما قمة مستوية، وقد بُنيَ حول البناء a. تاليًا، بُني جزء آخر وهو المشار له بالحرف اللاتيني c، فوق الجزء الأول a. وتلا بناءه، بناء الجزءين d إلى جوار البناءين b، وبعدهما بُني الجزءان e جوار البناء c،
ثم بُني الجزء f فوق الجزء c. وفقًا لهذه الطريقة، يمكن اعتبار الهرم قد بُني (على غرار المقابر الملكية في طيبة) طوال فترة حُكم مُؤسِّسه الفرعون. أما هيرودوت، فقد ذكر أن البناء قد تم من أعلى لأسفل. أي أن هرمًا صغيرًا قد بُني في أعلى نقطة من السقَّالات المُعدَّة للبناء، ثم تم بناء الأجزاء التالية وفقًا لدرجة ميل السقالات، وهكذا بُني الهرم في وجهة نظره. كانت السقالات العديدة وسيلة ملائمة تشبه درجات السلالم والتي احتاجها العمال لرفع الأحجار الهائلة المستخدمة في البناء. هذه الطريقة بالتأكيد قد اتُّبعت أيضًا في بناء الأهرام المجاورة، و الأهرام الأخرى كافة، عدا الأهرام صغيرة الأبعاد. وقد أثبت الكولونيل ڤيس أن الهرم الأكبر والأهرام المجاورة لها جوانب مسطحة.

أسفل الجوانب الثلاثة للهرم الأكبر تراكمت شظايا الصخور والأحجار التي سقطت من قمة البناء، وشكلت كتلة هائلة ارتفعت لتصل لقرابة الخمسين قدمًا من قاعدة الهرم. وقد كان لرمال الصحراء مساهمة ضئيلة في زيادة ارتفاع هذا التل، الذي تقريبًا ما يتساوى في ارتفاعه من جوانب الهرم كافة. أما التل الواقع في الجهة الشمالية من الهرم، فيمثل منحنى صاعدًا ملائمًا للولوج لمدخل الهرم.

الصعود لقمة الهرم الأكبر لا يُعد مجازفة خطيرة، إلا أنها حمقاء، لِمَا ذكرته من وصف عن الجزء الخارجي للهرم. هناك، في الجوانب الثلاثة من الهرم، مواضع آمنة لنطأها صعودًا، ولكن بعضها يصل طولها مترًا أو يزيد، وهي بالتأكيد مسافة كبيرة للتسلُّق دفعة واحدة. كنت عازمةً بالتأكيد على محاولة ارتقاء الهرم الأكبر، ولكن الرياح هبَّت بضراوة أثناء زيارتنا، ولم أجرؤ على الإقدام على محاولتي. آمُل أن يحالفني مزيد من الحظ في مناسبة أخرى. من الجدير بالذكر أن ديودورس الصقلي قد ذكر أن قمة الأهرام تبلغ مساحتها تسعة أقدام مربعة، أما بليني فيذكر أن مساحتها، في عصره، تبلغ خمسةً وعشرين قدمًا، وفي بعض النسخ من أعماله قُدِّرت المساحة بخمسة عشر قدمًا، وهو الرقم الأدق من بين التكهنات السابقة كافة. على مرِّ العصور تساقطت العديد من صخور الهرم؛ مما جعل مساحة الطبقة الأخيرة منه تبلغ نحو ثلاثة وثلاثين قدمًا مربعًا، والتي لا زال يظهر بالقرب من حافَّتها الشرقية أطلال وبقايا أحجار كانت جزءًا من الطبقات الأخرى المندثرة. وقد نقش العديد من الرحالة أسماءَهم على هذه الصخور المتآكلة. تتميز هذه الطبقة بسطحٍ مستوٍ، وأحجار متراصَّة بعناية حيث يملأ فراغاتها الإسمنت الصلب. تستغرق عملية ارتقاء الهرم الأكبر مدةً تتراوح بين خمس عشرة إلى عشرين دقيقة.

أخبرني أخي أن المنظر من أعلى قمة الهرم الأكبر هو أبدع المناظر الطبيعية وأكثرها استثناءً عن سواها. من جهة الشرق يقع البصر على مساحة شاسعة من السهول الخضراء والتي تسقيها العديد من القنوات المائية، وتضم قرى قد أُقيمت على تلال من القمامة وتحفُّها أشجار النخيل. على مسافة بعيدة نرى النيل، وخلفه تتبدَّى للناظر مآذن قلعة القاهرة العالية، وخلفها تظهر المساحة الصفراء لهضبة المقطم. إلى جهة الغرب يرى الرحالة مشهدًا معاكسًا تمامًا لِمَا رآه في الشرق، فبدلًا من مساحات النخيل الشاسعة وحقول الذرة، تقابل الأنظار مساحات لا نهائية من التلال الرملية الممتدة عبر الصحراء السورية. كما يظهر الهرم الثاني مَهِيبًا ضخمًا من هذه النقطة، ويظهر جزء صغير من الهرم الأصغر، وإلى جنوبه واحد من الأهرام الصغيرة المتاخمة. المساحة التي تقع غرب الهرم الأكبر وشمال الهرم الثاني، تضم مقابر لها أبعاد مستطيلة، ولها أشكال أهرام غير مكتملة، وتبدو، من ارتفاع، أشبه برقع من الحصى. في اتجاه الجنوب والجنوب الشرقي يُرى رأس «أبو الهول»، وأهرام «أبو صير» وسقَّارة ودهشور البعيدة.

بعد نصف ساعة أو يزيد من مغيب الشمس، تُسْهم العتمة في إضفاء مزيد من العظمة والرونق للمشهد المَهِيب. صعد أخي الهرم الأكبر، من قبل، قبل ساعتين تقريبًا من بزوغ النهار وانتظر على القمة حتى أشرقت الشمس. كان الطقس باردًا بشدة، والرياح التي هبَّت من جهة الشمال كان لها صوت كهدير الشلالات البعيدة. أما الهرم الثاني فبالكاد لوحظ في هذه الساعة المظلمة، وكان من العسير تحديد أبعاده الحقيقية. لكن الضوء الأخير للقمر قد كسا جهته الشرقية ومنح المشهد تأثيرًا جليلًا.

في اليوم التالي من الزيارة التي أشير إليها، وبعدما تناول وجبته، ذهب للتجوال دون بندقيته، كان المساء قد حلَّ، ولامه أحد حراسه على هذا الفعل قائلًا: «كان من اليسير على واحد من قومنا (البدو) أن يسرقك، وإذا قاومت لكان قتلك، وألقاك في أحد مواقع الحفر، وما كان أحدٌ قط ليعرف بمكانك.» في اليوم الثالث، صعد أخي الهرم بمفرده ولكن حرص على اصطحاب سلاحه، حين وصل إلى القمة، رأى - عبر التليسكوب - أعرابيًّا وحيدًا يدنو من الهرم من جهة الغرب. بدأ الأعرابي في صعود الجهة الجنوبية الغربية من الهرم، وحين وصل إلى منتصف المسافة تقريبًا، وبينما لم يخطر في باله قط أن أخي وجَّه تليسكوبه نحوه، توقف وأخرج بندقيته من غطاءٍ علَّقه في نطاقه، تأملها، ثم استمر في الصعود. وكما بدا لأخي أن الرجل كان يُبطِن نيَّاتٍ سيئة ناداه أخي وسأله أن يهبط الهرم، ولكنه لم يُجِب إما لأنه لم يسمعه أو لأنه لم يكن عازمًا على طاعته. حينها جهز أخي بندقيته في إشارةٍ أنه محصَّن. حينها عاد الأعرابي أدراجه على الفور وحين وصل إلى قاعدة الهرم تحرك رويدًا في الصحراء.

في ظل رعاية الحكومة الحالية، نادرًا ما يتعرض الرحَّالة لمخاطر السكان الأصليين في هذه البقعة من البلاد أو مختلف البقاع الأخرى، ولكن كثيرًا ما يعاني الرحالة من إزعاج المرشدين الأعراب في منطقة الأهرام تحديدًا. هؤلاء الأعراب غالبًا ما يجولون على

مسافات معقولة من الأهرام، وقد يصلون أحيانًا إلى الجيزة، في محاولةٍ لاقتناص الأموال من الرحَّالة حين يصلوا إلى القمة ودون مساعدتهم في هبوط الهرم. منذ عدة أيام، اتفق رجل مرموق المكانة مع جماعة من الأعراب ليساعدوه في الصعود إلى قمَّة الهرم الأكبر، وحين صعدوا طالبوه بالمبلغ المتفق مُدَّعين أنهم قد أوفوا بعهدهم. ولأن الرجل خشى أن يهبط دون مساعدتهم، رضخ لابتزازهم ودفعه لهم خمسة دولارات.

من الأمور التي تستحق الرثاء هي عجلة المسافرين من الهند وإليها إذا سنحت لهم الفرصة لزيارة الأهرام. رأينا بعضًا من هؤلاء المسافرين يصلون خلال إقامتنا، هرولوا صعودًا للهرم الأكبر، ثم هبطوا مسرعين ليقضوا دقائق معدودة داخل الهرم، ثم غادروا في غضون ساعة أو أقل(79).

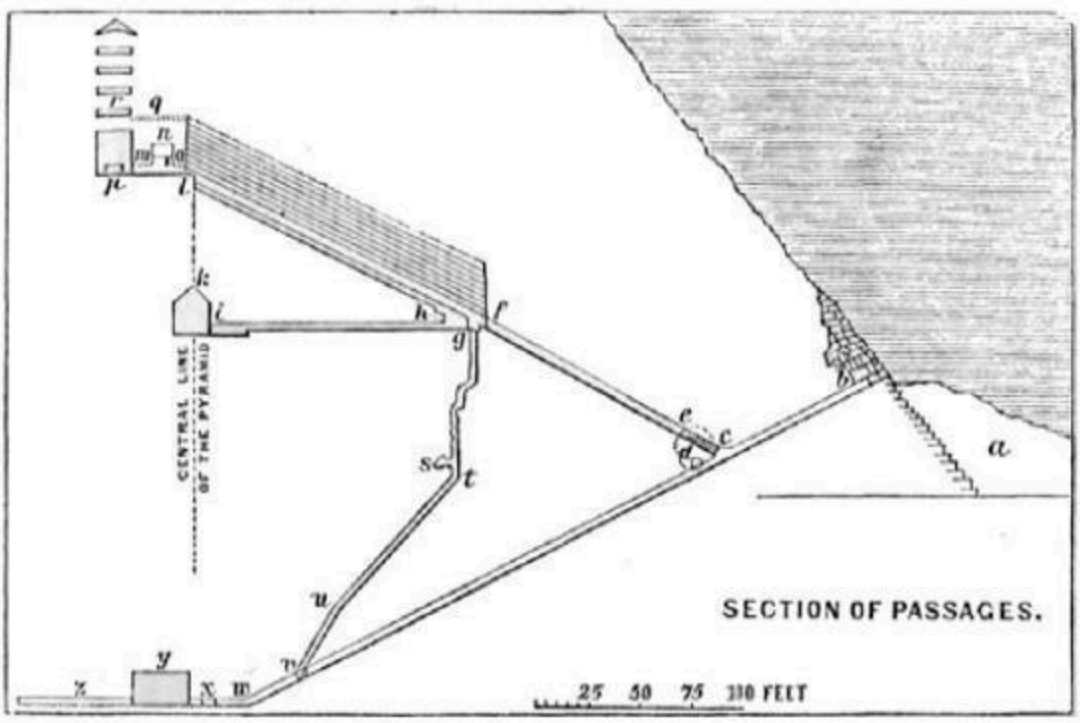

SECTION OF PASSAGES

(76) ملحوظة المترجمة: جيوفاني باتيستا كافيليجيا باحثًا أنثروبولوجيًّا وعالم آثار وعالم مصريات، له العديد من الإسهامات في اكتشاف الآثار المصرية القديمة.

(77) ملحوظة المترجمة: خويوس وشويوس هما اسمان هلِّينيَّان للملك خوفو.

(78) ملحوظة المترجمة: هو كاهن مصري من سمنود عاش في عهد بطليموس الثاني وكلفه الملك بكتابة تاريخ مصر القديمة.

(79) ملحوظة صوفيا لين بول: معظم زوار شلّالات نياجرا مضطوين، لسوء حظهم، للهرولة بالطريقة ذاتها. ولكن بهاء الشلالات العظيمة لا يمكن أبدًا الشعور بقدره في خلال زيارة سريعة، يمكن القول أن الانطباع الأول يكون مُخيِّبًا للغاية.

الرسالة السادسة والعشرين(80)

فبراير، ١٨٤٤.
صديقي العزيز،

مدخل الهرم الأكبر(81) يقع على ارتفاع ستة عشر طابقًا، ما يقرب خمسين قدمًا فوق قاعدة الهرم، وكما ذُكر يقود منحدر من القمامة إلى المدخل(82). يتوسَّط المدخل منتصف الهرم تقريبًا، أو على الأقل على مسافات متساوية من زواياه الشمالية، وبالكاد قد تميز العين المجردة الفروقات في المسافة، لكن المدخل يميل نحو الغرب قرابة عشرين قدمًا أو ربما يزيد. يبدو أن مدخل الهرم قد صُنع بصعوبة شديدة، حيث تم هدم عدد من الأحجار المجاورة والمتاخمة للكوَّة النافذة لقلب الهرم. هناك درجة ميل واحة بزاوية ستٍّ وعشرين درجة ونصف قبل مدخل الهرم، وتستمر داخل الرُّواق المُفضي إلى قلب الهرم. من الجدير بالذِّكْر حجم الأحجار عند المدخل، والطريقة التي صُفَّت بها. لا يوجد أحجار الجرانيت عند مدخل الهرم، جميعها أحجار جيرية. قبل أن يدلف الرحَّالة إلى قلب الهرم عليه أن يخلع عنه بعض الملابس (لأن الحرارة في الداخل خانقة) ويرتديها مباشرة حين يخرج ليتجنَّب لطمات الهواء لجسده المُتعرِّق. المَمرُّ المفضي إلى قلب الهرم يبلغ ارتفاعه أربعة أقدام، وثلاثة أقدام وستة إنشات (تقريبًا ما يعادل ذراعين بالمقياس المصري القديم) عرضًا؛ مما أجبرنا على الهبوط إلى قلب الهرم رابضين. يحدُّ الرواقَ من الجوانب كافةً قوالب من الحجر الجيري(83)، وهي مضغوطة بصورة أكبر من الأحجار الأخرى المستخدمة في بناء الأهرام. يبدو أن تلك الأحجار الفريدة قد أُحضرت من المحاجر الواقعة على الجهة الشرقية من النيل، تحديدًا المحاجر المقابلة لموقع مدينة منف؛ وذلك لأن الأحجار التي تتميز بتلك المواصفات لا يمكن العثور عليها في مناطق قريبًا من موقع بناء الهرم. كما أكَّد هيرودوت، والعديد من الكُتَّاب القدامى، أن المحاجر العربية(84) قد وفرت الخامات لبناء الهرم. مما لا شك فيه أن القدماء قد أكدوا حقيقة الاستعانة بأحجار تلك المحاجر لبناء الهرم، لكن الواقع لم يكن كذلك. في حقيقة الأمر، أغلب الأحجار التي بُني بها الهرم نُحتت من صخرة مجاورة لموقع الأهرام الحالي. من الجدير بالذكر أيضًا مهارة صفّ الأحجار في هذا الرُّواق. أحيانًا لا يمكن تمييز الفواصل بين الأحجار إلا بالفحص والتدقيق عن كَثَب. في هذا الممر، والممرات الأخرى المنحدرة داخل قلب الهرم، تم حفر شقوق حادة، تشبه مواضع القدم، وذلك لمنع انزلاق أقدام السائرين، ولكنني أحسست أنهم لا يؤدون المهمة المنوطة بهم، بعد أن صقلتهم أقدام الأدِلَّاء العارية. كانت تلك الشقوق من صنع المستكشفين المعاصرين. على مسافة ما يقرب سبعين قدمًا (قياسًا من السطح الخارجي للصخرة الضخمة الواقعة أعلى المدخل) وجدنا أحد الأحجار في سقف الممر، وقد نُحتت بدقة عند النقطة التي يتفرع فيها الممر إلى مَمرٍّ ثانٍ أكثر انحدارًا (انظر الحرف C في الرسم السابق). في ذاك الممر نكتشف في نهايته قالبًا مربعًا ضخمًا من حجر الجرانيت يسد مدخل الممر الثاني، وقد نُحت لملء هذا التجويف بالتحديد. ولَمَّا لم يستطع المستكشفون الذين كشفوا عن مدخل

الهرم أن يزيلوا هذا الحجر الضخم، قرروا صنع هذه الوصلة السابق ذكرها بين الممر الأول والممر الثاني. على مسافة ثمانين قدمًا (من مدخل الهرم) تقع تلك الكوَّة الجديدة، في الجهة اليمنى من الممر (انظر d في الرسم السابق). وقد صُنعت عن طريق تجويف السقف وقطع الجزء العلوي من أحجار الممر الهابط.

في هذه المنطقة على المستكشف أن يضيء شمعته (لو لم يكن قد فعل ذلك من قبل)، وحين يهبط الممر إلى نهايته سيصل إلى غرفة واسعة، تبدو كأنها كهف طبيعي في الصخور، الآن نرى الجزء العلوي من صخرة الجرانيت التي ذكرتها، أو ربما لصخرة أخرى لم أرَها. وفوقها تقع صخرة أخرى قد تآكل جزءٌ منها. فوق هذا الممر (e f) نرى بوضوح الأحمال الصخرية الأخرى تمتد فوقنا، إما في اتجاه الجنوب، أو تهبط مُشكِّلةً سقفًا للممر. تلك الأحجار لها نفس أبعاد الصخور التي وصفتها في الممر الأول، ونفس درجة الميل، ولكن لها سطح خشن، يوحي أنها قد قُطعت من صخور صلبة، لكنها ليست الحقيقة. يبلغ طول الرُّواق مائة وتسعة أقدام (قياسًا من أقصى جنوب قوالب الجرانيت المذكورة سلفًا)، والأرضية تبلغ مساحتها قدمًا ونصف القدم في الاتجاه نفسه. هبوط هذا الممر مرهق للغاية. وحين خرجنا منه وجدنا أنفسنا وقد وصلنا عند عتبة الممر الأكبر (انظر f m في الرسم السابق).

هذا الممر الفسيح، الهابط إلى الغرفة الرئيسة داخل الهرم، هو، بالمقارنة مع الممرات التي أفضت إليه، أوسع وله سقف مرتفع. هو أيضًا أطول من الممرَّات الأخرى، وصُبغ جانباه بلون أسود، يشبه الدخان، كما فشلنا في رؤية نهايته من حيث موضعنا في بدايته، في المجمل يتسم هذا الممر بمظهر جذاب. إلى يميننا رأينا المدخل، أو الفم، الذي كان يُطلق عليه لفظة «البئر» (انظر g). وقد لاحظنا أيضًا عددًا من النقوش العربية وقد نحتها إزميل غير مُتقن. تلك النقوش، في وجهة نظري، قد لاحظها للمرة الأولى السير جاردنر ويلكِنسُون(85). قرأها أخي على مسامعي قائلًا: «أيبك وبيبرس مرَّا من هنا.»، «بيبرس وقلاوون الألفي كانا هنا.»، «سلطان محمد سعيد.» هؤلاء الرجال الثلاثة كانوا من سلاطين المماليك لمصر والذين حكموا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، وفي هذه الفترة، على ما يبدو، فُتح الهرم الأكبر، لو كانت هذه النقوش أصلية؛ لأن أخي يميل للشك في شأنها.

أسفل الممر الكبير، يمرُّ أفقيًّا ممر آخر قصير وضيق. المدخل الأخير (h) تبلغ مساحته خمسة عشر قدمًا وثلاثة إنشات. أما ارتفاع الممر فيبلغ ثلاثة أقدام وأحد عشر إنشًا، وعرضه ثلاثة أقدام، وخمسة إنشات. وجدت صعوبة مساوية تقريبًا في السير هنا كما وجدتها في صعود الممرات المنحدرة وهبوطها؛ خاصةً بسبب الغبار والحرارة الخانقين هنا. يستمر طول الممر بالأبعاد ذاتها لمسافة ثلاثة وتسعين قدمًا. هنا نجد هبوطًا في الأرض يبلغ قدمًا وثمانية إنشات؛ لذا يمسح الممر بسير الشخص شبه مُنحنٍ دون أن يحتاج لخفض رأسه حتى ركبتيه. على مسافة مائة وعشرة أقدام وتسعة إنشات (من المدخل) ينتهي الممر (انظر i في الرسم السابق) عند الركن الشرقي من الجهة الشمالية للغرفة،

والتي يبلغ طولها تسعة عشر قدمًا، واتساعها سبعة عشر قدمًا (انظر k). أطلق بعض الرحَّالة على هذه الغرفة اسم «غرفة الملكة»، مدفوعين بافتراض أن الملكة الأُمّ لمؤسس الهرم دُفنت فيها. السقف يتكون من قوالب من الأحجار الطويلة يميل كل منها على الآخر. ارتفاع الغرفة، من بداية السقف، يبلغ ثلاثة عشر قدمًا ونصف القدم، ومن القمة يزيد نحو سبعة أقدام. جانبا الأرضية والسقف تم بناؤهما من الحجر الجيري كسائر الممرات. في نهاية الجهة الشرقية (وليس في المنتصف، بل نحو اليمين قليلًا) هناك تجويف ضيق مرتفع، يبلغ من القاع خمسة أقدام عرضًا، ولكنه يزداد ضيقًا في اتجاه القمة، مثل جوانب الممر الأكبر. يبلغ عمقه ثلاثة أقدام وخمسة إنشات. داخله، وعلى ارتفاع أربعة أقدام من السطح، يقع مدخل ممر مختلق، مساحته أربعة أقدام. المدخل مُربع نُحت داخل الأحجار بعناية، ولكن تتعرَّج جدران الممر كلما تعمقنا في السير داخله، ينتهي على بُعد خمسين قدمًا حيث تقع كوَّة كبيرة أقل انتظامًا من البقية. لم يجذبنا الكثير في هذه الغرفة أو الممر المذكور؛ لذلك عُدنا إلى الممر الأكبر.

أعلى مدخل الممر الأفقي الذي يفضي إلى الغرفة المذكورة أعلاه، هناك تعامُد (انظر h). هذا التعامد إلى جانب ارتفاع الممر المذكور يبلغ طوله سبعة أقدام وثلاثة إنشات. ثم يهبط الطريق في الاتجاه نفسه مثل الممر الهابط الآخر وبزاوية ستٍّ وعشرين درجة ونصف الدرجة. على مسافة ثلاثة أقدام وخمسة إنشات هناك تعامد آخر أو بالأحرى درجة تبلغ ثمانية إنشات فقط، فوقها الأرضية لها نفس درجة الميل السابق ذكرها، وقد حُفرت شقوق في الأرض لتسهيل عملية الصعود، التي ليس من اليسير فعلها دون أحذية. هناك مصطبتان من الحجر تمتدان بطول الممر على الجهتين، وفوقها هناك تجاويف مستطيلة، ليس معروفًا الغرض منها. عرض الممر (بما يضم المصاطب والتي يبلغ بروزها قدمًا وثمانية إنشات ونصف الإنش) يبلغ ستة أقدام وعشرة إنشات؛ أي ما يُعادل أربعة أذرع حسب القياس المصري القديم. وتتألف جوانب الممر من تسع طبقات من الحجر الخارجي للهرم. بعض الرحَّالة رجحوا أن تكون تلك الأحجار من خام الرخام الأبيض، لكن لم أرَ أي رخام مستخدم في بناء أي جزء من الهرم. بالحديث عن الطبقات السابقة، فأدنى طبقتين متساويتان في المساحة، لكن الطبقات الثلاث فوقهما أصغر ثلاثة إنشات؛ وكذلك تقلُّ مساحة كل طبقة صعودًا إلى قمة الهرم. على مسافة خمسة أقدام وإنش واحد قبل أن نصل للنهاية العليا من الممر، هبطنا إلى مفترق طرق آخر يبلغ ارتفاعه قدمين وأحد عشر إنشًا. كان السطح أفقيًّا أشبه بمصطبة صغيرة (انظر l). ثم يبدأ ممر أفقي يبلغ ارتفاعه ثلاثة أقدام وسبعة إنشات، وعرضه ثلاثة أقدام وخمسة إنشات ونصف الإنش (انظر m). داخل الممر من جهة اليمين، يقع مدخل آخر للممر المختلق السابق ذكره، صُنع للبحث عن غرف أخرى غير المكتشفة بالفعل. على مسافة أربعة أقدام وخمسة إنشات (من مدخل الممر الرئيس) تبدأ مساحة واسعة (انظر n)، الجزء العلوي منها والذي يبلغ عرضه تقريبًا ضعف عرض الممر، يبلغ طوله تسعة أقدام وثمانية إنشات، لكن الممر أسفلها له نفس الارتفاع ويدعم السقف قالبان من الجرانيت الواحد يعلو الآخر، يبلغ سُمك القالب قدمًا وثلاثة إنشات، وقد وصل القالبان عبر فتحتين صغيرتين تشبهان الأخاديد. أما الممرُّ (من

الجرانيت) فهو مفتوح، كغيره، على مساحة مرتفعة، وهناك أخاديد يسدها ثلاث دعامات من الجرانيت، ظن المعماري الأول للهرم أنها ستمنع المتسللين من الولوج للغرفة الغامضة التي تضم التابوت، لكن تلك الصخور الجرانيتية قد تآكلت عبر الزمان وتناثرت بقاياها. الممر العلوي (انظر o)، له نفس أبعاد الممر السالف ذكره، ويبلغ طوله مسافة ثمانية أقدام وخمسة إنشات، أما طوله بالكامل بدايةً من الممر الأكبر وحتى نهايته فيبلغ اثنين وعشرين قدمًا ونصف القدم. وينتهي عند أقصى الشرق من الجانب الشمالي للغرفة الكبيرة (انظر p).

تستحق أبعاد الغرفة الكبيرة أن أذكرها بالتفصيل. يبلغ طولها أربعة وثلاثين قدمًا وأربعة إنشات ونصف الإنش؛ أي ما يعادل عشرين ذراعًا حسب القياسات المصرية القديمة، أما العرض فمساحته نصف الطول تمامًا. بُنيت الغرفة بالكامل من الجرانيت الأحمر. قرب نهايتها الغربية يقع التابوت، والمصنوع بدوره من الجرانيت الأحمر. طوله يبلغ سبعة أقدام ونصف القدم، وعرضه ثلاثة أقدام ونصف القدم، وسُمك جوانبه يبلغ نصف القدم. لم يُنقش على التابوت أي حروف هيروغليفية أو نقوش أخرى، سواء داخله أو خارجه، جانبا التابوت مصقولان بالكامل، وله شكل الصندوق المستطيل. سُرق غطاء التابوت؛ وكذلك محتوياته الأصلية، ولم نجد داخله سوى الغبار وشظايا الأحجار. وقد تعرض أحد أركان التابوت لتخريب واضح على يد الرحَّالة؛ حيث كسروا أجزاءً منه ليحملوها معهم للذكرى. حين يُقرع التابوت بأي غرض ثقيل، أو حتى بقبضة اليد، يُصدر صوتًا أشبه بطنين الجرس. وقد استقر التابوت فوق قالب من الجرانيت أكبر - كثيرًا - من أي قالب جرانيتي آخر مستخدم في بناء الغرفة.

لماذا وضعت هذه الكتلة الهائلة هناك؟ تابوت المرمر الذي اكتشفه وفتحه بلزوني في المقبرة الكبرى بوادي «بيبان الملوك» في طيبة، أغلق مدخل سلالم عميقة لم يُكتشف من قبل نهايتها. وكان لطبيعة الصخرة الملساء التي نُحت منها التابوت الفضل في صد أي محاولات لزحزحة التابوت واكتشاف ما وراءه. ربما القالب الجرانيتي الضخم المستقر أسفل التابوت في الهرم الأكبر يلعب دورًا مشابهًا، أو ربما يسد فوَّهة خزنة، أو حفرة. لذلك؛ في حالة أن نجح أحد مُدنِّسي الصرح المقدس (متخطيًا عقبة الأخاديد)، والولوج إلى الغرفة الكبرى، ربما يُصدق، حين ينهب كنوز التابوت، أنه قد حقق مُنيته. دُشنت رحلة استكشافية (أعتقد بقيادة الكولونيل هاورد ڤيس)، في محاولة للكشف عمَّا أسفل الصخرة الضخمة، ولكن بالكاد تمكنوا من زحزحتها. أما عن الغرفة، فجوانبها تتكون من ستِّ طبقات من قوالب الجرانيت التي تصطفُّ في دقة متناهية، ولها سطح أملس مصقول، غير أنها خالية من أي نقوش هيروغليفية أو زخارف أخرى. في الجهة الشمالية، بالقرب من زاوية المدخل تقع كوَّة صغيرة، وكوة أخرى تقع في الجهة الجنوبية المقابلة لها. الكولونيل ڤيس اكتشف نهاية كل كوة، حيث تفضي إلى خارج الهرم، من المعتقد أنها صُمِّمت لغرض التهوية. سقف الغرفة يضم تسعة قوالب طويلة من الجرانيت تمتد بطول الغرفة. نصف تلك القوالب هو الظاهر للعين المجردة، والنصف الآخر يختفي داخل الجدار.

بعد عودتنا من هذه الغرفة توقفنا عند مصطبة عند الجزء العلوي من الممر الأكبر (انظر l) (86). هنا لاحظنا في قمة الجدار الشرقي (وهو يقع إلى يسار الشخص حين ينظر إلى نهاية الممر)، على ارتفاع أربعة وعشرين قدمًا، كوَّة مربعة هي المدخل لممر آخر (q). نُحتت شقوق صغيرة في زوايا الطريق صعودًا؛ لتحمل قطعًا خشبية صغيرة شكَّلت ما يشبه السُّلَّم. وقد نُزعت تلك القطع الخشبية مما جعل الصعود أكثر صعوبةً وخطورة. حين زار أخي قلب الهرم منذ عدة سنوات، أقنعه أعرابيَّان باستغلال تلك الشقوق لتسلُّق المنحدر، وأحضروا معهم حبلًا سميكًا. ربط أخي طرف الحبل بخصره، بينما الأعرابيان قبضا على الطرف الآخر وجذباه لأعلى. فور ما وصل أخي وتخلص من الحبل، طالباه بجائزة مهددين أنه إذا رفضه فسيتركانه وحيدًا هنا. رغم أن أخي سخر من تلك التهديدات، فإنهم لم يعترفوا أنهم يمزحون إلا بعد مرور عدة دقائق. الممر الذي هبط إليه أخي كانت مساحته قدمين وأربعة إنشات مربعة. ويلتف مباشرةً نحو اليمين لمسافة عدة أقدام داخل دهليز تبلغ أبعاده نفس أبعاد الممر، لكن يرفل في عباءة من القذارة، أفضى الدهليز إلى ممرٍّ غير متساوي الأبعاد أو البناء من الجانبين، وكان من الصعب على أخي أن يسير خلاله، وقد فاجأته بين حينٍ وآخر عدة خفافيش هاربة من عُشِّها. ينتهي الممر المذكور على مسافة أربعة وعشرين قدمًا في اتجاه الزاوية الشرقية الشمالية من غرفة فسيحة لكن منخفضة السقف (r). هذه الغرفة (إذا جاز الإشارة إليها بلفظة الغرفة) اكتشفها السيد داڤيسون، الذي شغل منصب القنصل الإنجليزي في الجزائر العاصمة، وزار مصر رفقة السيد ورتلي مونتاج بين عامَي ١٧٦٣ و ١٧٦٤، وقد أُطلق على الغرفة اسم مكتشفها. تقع تلك الغرفة مباشرة فوق الغرفة الكبرى، ولها نفس عرض الغرفة الكبرى، لكنها أطول بأربعة أقدام. أحجار الجرانيت الطويلة التي تشكِّل سقف الغرفة السفلى هي ذاتها أرضية الغرفة العليا، وبداية ونهاية تلك الأحجار يمكن رؤيتها بالكامل من هذه الغرفة. سطح كل حجر يتسم بخشونة واضحة، ولا تتساوى الأحجار في سُمكها. تلك الغرفة - مثل نظيرتها - لها سقف من ثمانية ألواح جرانيتية. الارتفاع يزداد قليلًا على ثلاثة أقدام. في الزاوية الجنوبية الشرقية هناك ممر مُختلَق صغير مرتفع عدة أقدام. هذه الغرفة العلوية الواقعة فوق الغرفة الكبرى بُنيت لتأمين سقف الغرفة الكبرى؛ حتى لا يقتحمها المُدنِّسون عبر السقف.
الكولونيل ڤيس اكتشف ثلاث غرف أخرى مماثلة لغرفة داڤيسون تقع فوقها بالترتيب، وفوق أعلى تلك الغرف يقع سقف مدبب. وقد حقق الكولونيل بهذا الاكتشاف أهمية كبيرة حيث اكتشف اسمين كُتبا بالهيروغليفية بنقوش رديئة، أحدهما بالتأكيد هو اسم المُؤسِّس، السالف ذِكْره، الثاني، وفقًا لبعض التكهنات، اشتقاق من الاسم نفسه، وثمَّة تكهنات أخرى تعتقد أنه اسم أحد أسلافه، أو خلفائه.

أعتقد أنني لا حاجة لي في إخبارك أنني لم أهبط هذا الممر المُسمَّى بالبئر. لقد اسكتشفه السيد داڤيسون ثم من بعده الكولونيل كوتيل عام ١٨٠١. لكن نهايته، وفائدته، بقيتا لُغزًا حتى سبر كاڤيلجيا أغواره عام ١٨١٧. إلى يمين الجهة المنخفضة من الممر الأكبر، وعلى مسافة قدمين أسفل الأرض، هناك ثلاث درجات منخفضة يبلغ طولها أربعة أقدام ونصف القدم. تُفضي تلك السلالم إلى مدخل العمود الأول الذي تبلغ مساحته قدمين وإنشين

مربعين. في هذه المنطقة نُحتت بعض الشقوق لتسهيل تسلقها، ولأن العمق ضحل يمكن للمرء أن يهبط دون استخدام الأحبال، وهذا ما فعله أخي، لكنه شعر بخطورة وصعوبة الأمر. عملية الصعود أقل خطورة وتشبه التسلق داخل مدخنة. على عمق عدة أقدام يصبح الممر غير منتظم ومتعرجًا، ويستمر هذا التعرُّج إلى عمق خمسين قدمًا. بعد هبوط ما يزيد على ستين قدمًا، تُرى، في الجهة الجنوبية، كوة هي مدخل لِمَا يُشبه المغارة (s)، ارتفاعها يتراوح بين خمسة وستة أقدام، وطولها نحو ثلاثة أضعاف الارتفاع، وتميل إلى جهة اليمين. هذه المغارة تجويف داخل ما يشبه الحصى الخشن المضغوط، والبئر، بسبب هذا التجويف تصطفُّ مع خط البناء لمسافة عدة أقدام أسفل المغارة وأعلاها. عند نهاية هذا الخط، تنحدر البئر في اتجاه مستمر ومنتظم نحو القاع، ولكن بالقرب من القاع يصبح مسار البئر أشد انحدارًا (انظر u). الممرات المنحدرة كافةً نُحتت في صخرة مربعة صلبة تقع أسفل الهرم. في قاع البئر (v) هناك ممر أفقي يبلغ طوله ستة أقدام، يتصل بالممر الأول ويقع على عمق مائتَيْ واثني عشر قدمًا أسفل الكوَّة التي تُفضي إلى الممر الثاني.

الممر الأول داخل الهرم من الكوة المذكورة يتصل في خطٍّ مستقيمٍ في اتجاه واحد، وله أبعاد مساوية، ولكنه نُحت في صخرة صلبة لا تصطفُّ مع خط البناء. الكوة التي تفضي إلى قاع البئر يبلغ عرضها قدمين وتسعة إنشات. وتقع إلى اليمين من مهبط الممر الأول. يستمر هذا الممر لمسافة ثلاثة وعشرين قدمًا في الاتجاه نفسه (انظر w)،
بصورة أفقية، وتتكدس القمامة في الممر، كما له سقف منخفض يجبر المستكشف على الانحناء. هناك تجويف (x) يقع على مسافة ستة عشر قدمًا وتسعة إنشات في الجهة اليمنى، يبلغ عمقه ثلاثة أقدام وأربعة إنشات، وعرضه ستة أقدام وخمسة إنشات. على بُعد أربعة أقدام ونصف القدم من هذا التجويف ينتهي الممر في أقصى الشرق من الجهة الشمالية لهذه الغرفة الشاسعة (y).

هذه الغرفة العظيمة تقع تقريبًا أسفل منتصف الهرم. عرضها سبعة وعشرون قدمًا، وعرضها ستة وستون قدمًا. لها سطحٌ مُستوٍ، لكن الأرضية متعرجة. يبلغ ارتفاع مدخل الغرفة خمسين قدمًا، في اتجاه الغرب تقع صخرة متعامدة مع السقف، كما أن هناك كُتلًا أخرى غير منتظمة الأشكال وذات ارتفاعات شاهقة تكاد تلمس سقف الغرفة. أما الطابق السفلي، فهو مساحة مجوَّفة واسعة مليئة برَوَث الفئران. قبالة المدخل يقع ممر صاعد (z)، منخفض وضيق، يتجه نحو الجنوب، وينتهي دون تمهيد على مسافة خمسة وخمسين قدمًا. أرضية الغرفة ترتفع عن القاعدة الخارجية للهرم بمسافة مائة قدم. وبدا لأخي جليًّا أن هذه الغرفة لم يتم اكتشافها بالكامل حتى الآن. السيد سولت كان له رأي آخر: «لقد امتدح نفسه قائلًا أنها الغرفة التي وصفها هيرودوت تحوي قبر خوفو، والتي وصل لها ماء النيل عبر قناة، لكن عدم وجود مخرَج واضح، وارتفاع الغرفة بمقدار ثلاثين قدمًا فوق أعلى مستوى يسجله النهر، وضعت حدًّا لهذه الفكرة المُضلِّلة.» هذه الغرفة اكتشفها كاڤيلجيا الذي ذُكرت عمليات استكشافه للهرم الأكبر والمقابر المجاورة في العدد التاسع عشر من «كوارترلي ريڤيو». بعدما اكتشف البئر، وسعى، هباءً، لإزالة القمامة التي تكدَّست في نهايته، أوْلَى

كاڤـيلجيا انتباهه لتنظيم الممر الأول، والذي لا يزال يُعتقد أنه ينتهي عند الكوة التي تفضي للممر الثاني. خلال هذه العملية (التي تُعد من أصعب العمليات التي أنجزها كاڤـيلجيا بسبب تكدس القمامة وبقايا الأحجار المتهدمة)، اكتشف كاڤـيلجيا المدخل إلى قاع البئر، ولَمَّا استمر في مسعاه، سرعان ما اكتشف الغرفة الكبرى.

ما قدمته لك هو كل ما قد تم اكتشافه حتى الآن داخل الهرم الأكبر. هناك حسابات تؤكد احتمالية وجود نحو ثلاثة آلاف وسبعمائة غرفة داخل الهرم الأكبر، جميعها لها نفس مساحة غرفة التابوت، وتسمح بحماية محتويات الغرف بفصلها(87). على أيَّة حال، يبدو أن هذا الصرح الهائل قد بُني فقط ليكون غرفة دفن، وليضم، ربما، مومياء واحدة، على أيَّة حال لا يوجد أي مما وضع في هذا الهرم الآن(88). إلا إذا كان هناك مزيد من الرُّفات المَلكيَّة غير المكتشفة والتي لم تُدفن في غرفة الجرانيت. يؤكد هيرودوت وكذلك ديودورس الصقلي أن الهرم الأكبر استغرق بناؤه عشرين عامًا، ووفقًا لهيرودوت، عمل في بنائه مائة ألف رجل، أما الأخير فيؤكد أنه اشتغل في بنائه ثلاثمائة وستين ألف عامل.

يحيط الهرم الأكبر، من الجهات الثلاث، عدد لا يُحصى من المقابر. وإلى الشرق ثلاثة أهرام صغيرة، وفي الجهة ذاتها وإلى الغرب والجنوب تقع عدة مقابر مستطيلة لها قمة مسطحة، وتميل جدرانها إلى الداخل. أعتقد أن القلة اللامنطقية التي تشك أن الأهرام هي آثار جنائزية، يجب عليهم، في اعتقادي، أن يعترفوا بخطئهم بعد اكتشافات الكولونيل ڤيس، وقبلها بفترة طويلة وجد أخي عظامًا وبقايا قماش كان مُستخدمًا في التحنيط داخل هرم سقارة.

(80) ملحوظة المترجمة: هناك رسم مشار إليه في الرسالة، ولكنه غير متوافر في الكتاب.

(81) ملحوظة صوفيا لين بول: انظر إلى b في الرسم السابق.

(82) ملحوظة صوفيا لين بول: انظر إلى a في الرسم السابق.

(83) ملحوظة صوفيا لين بول: وصف بعض الرحَّالة، وقد خدعتهم ذاكرتهم، تلك الأحجار بكونها أحجارًا من الجرانيت، بينما أكَّد آخرون أنها من الرخام الأبيض.

(84) ملحوظة صوفيا لين بول: الجبال الواقعة في شرق النيل لقَّبها الكُتاب من قدماء اليونان والرومان بهذا النعت، كما أطلقوا على الجبال الواقعة غرب النيل بـ «الجبال الليبية».

(85) ملحوظة المترجمة: السير جـون جاردنر ويلكنسون، رحَّالة وكاتب إنجليزي، ورائد في علم المصريات خلال القرن التاسع عشر، يُعدُّ «أبًا لعلم المصريات البريطاني».

(86) ملحوظة صوفيا لين بول: هناك صدى صوت واضح يتردد في هذا الممر، ومن عادة الرحَّالة إطلاق طلقات البارود لسماع الدَّوِيّ.

(87) ملحوظة صوفيا لين بول: وفقًا للكوارترلي ريـفـيو العدد التاسع عشر، الصفحة ٤٠١.

(88) ملحوظة صوفيا لين بول: يؤكد أغلب الكتاب القدامى الذين اختصوا بوصف هذا الأثر، على عكس أقوال ديودورس، أن مؤسسه قد دُفن داخله.

الرسالة السابعة والعشرون

فبراير، ١٨٤٤.
صديقي العزيز،

أخشى أن أُرهقك إذا وصفت لك وصفًا كاملًا للهرمين الآخرين، ولأنهما أقل أهمية بكثير من الهرم الأول، سوف أصفهما وصفًا سريعًا، ولكن دعني أخبرك بعض المعلومات المهمة عنهما، والتي أدين لأخي بمعرفتها، ولا أتمادى لو رجَّحت أنها معلومات ستثير اهتمامك. أؤكد لك أنه ليس بالأمر الهيِّن على امرأة أن تكتشف داخل الهرم الأكبر. استمرت صعوبة الأمر راسخة في ذهني لفترة طويلة ولم أستطع نسيانها بسهولة، حتى إنها زارتني في أحلامي. لكن من الأيسر الحديث عن استكشافات الآخرين.

اسم مُؤسِّس الهرم الثاني، وفقًا للإغريق، هو شيفرنيس، رغم ما يشوبه من الشك. لكن وجد في بعض المقابر المجاورة اسم ملك كُتب بالهيروغليفية، والذي وفقًا للهجات القديمة المختلفة، يُقرأ: خفرع أو شيفرع، ومن الأرجح أن هذا هو اسم مؤسس الهرم الثاني.

هذا الهرم أصغر قليلًا من حيث الحجم من الهرم الأكبر. من بعض الزوايا يبدو أحيانًا أن الهرم الثاني أكثر ارتفاعًا من الهرم الأكبر؛ وذلك لأن الهرم الثاني بُني على أرض ترتفع نحو ثلاثين قدمًا عن الأرض المنبسطة التي بُنيَ فوقها الهرمان: الأول والثالث، وقمته شبه مكتملة. جزء كبير من غلافه المصقول لا تزال آثاره باقية على الجزء العلوي من الهرم، تشكل ما يشبه القبَّعة التي تمتد من القمة وحتى تقريبًا ربع المسافة هبوطًا إلى القاعدة. على الرغم من هذا السطح المصقول الذي يجعل تسلُّق الهرم عسيرًا، عادةً ما يصل الأعراب وغيرهم من العرب إلى قمة الهرم الثاني، كما حقق ذلك الإنجاز العديد من الرحالة الأوروبيون. عبرنا ممرًّا منحدرًا، مطابقًا للممر الأول في الهرم الأكبر، ولكنه مُهِّد بالجرانيت، ثم دلفنا إلى ممر طويل أفقي نُحت في الصخر، ويقطعه ممران متعامدان، ثم ممر آخر صاعد، حتى وصلنا إلى الغرفة الكبرى. هذه الغرفة مطابقة في الشكل لغرفة الملكة في الهرم الأكبر، وتضم تابوتًا أصمَّ من الجرانيت، يقع بين قوالب من الجرانيت، ومُثبت في كوة حُفرت في الأرض.

هناك العديد من النقوش العربية التي أحدثها إزميل محفورةً في أجزاء مختلفة من الغرفة. أغلب تلك النُّقوش قد كُتب قبل أن يكتشف بلزوني فتحة هذا الهرم، وعادةً ما تسجل تلك النقوش زيارات العرب بحروف عربية حديثة، أغلبها غير مقروء. لم يستطع أخي العثور على أي تواريخ بين تلك النقوش. لكن دعني أنسخ هذه الملاحظات من دفتره، والتي كتبها بشأن هذه النقوش التي أثارت لديه انتباهًا خاصًّا:

«يتكون النقش من سطرين، كُتب بنفس الحروف التي كُتبت بها بقية الجمل، لكنها بالكاد مقروءة. لاحظ بلزوني بالتحديد إلى هذين الخطين، واصطحب كاتبًا قبطيًّا لينسخهما له، ولكن الرجل لم يؤدِّ مَهمَّته على أتم وجه، ولخَّص الأمر بكون السطر الثاني تتمَّة للسطر الأول، وهذا ادعاء بعيد تمامًا عن الحقيقة، كما وفر نسخة ادعى أنها تضم الحروف الأصلية المفقودة. هذه النسخة المكتوبة ترجمها فيما بعد السيد سالمي: «السيد محمد أحمد، القاهر، فتح تلك الغرفة، وقد حضر السيد عثمان هذا الافتتاح، كما حضر الملك علي محمد من بداية الافتتاح لنهايته.» حيرت تلك النقوش المستشرقين الأوروبيين، وتكبدوا الكثير من الصعاب لاكتشاف هُويَّة الملك المقصود، وفي أي عصر حكم. لكن لسوء الحظ كان السطر الأول بأكمله معطوبًا بسبب مسافر قد نقش اسمه فوق حروف السطر، مع ذلك أول كلمتين لم تُطسما. هنا يجب أن أوضح شكِّي البالغ، هل كانت الكلمتان كما كُتبتا في النص السابق، وبالتالي يحتوي النقش فعلًا على لفظة «افتتاح» الأهرام. لكن السطر الثاني وهو الأهم لم يُطمس مثل السطر الأول، ومن الصعب أن نخطئ في قراءة كلماته التي كانت كالتالي: «الخليل علي بن محمد.، كان هنا» أو بالترتيب العربي للجملة: «كان هنا الخليل علي بن محمد» من الواضح أن اللفظة الموجودة في نسخة بلزوني «الملك» هي اسم علَم. هناك خطأ آخر في النسخة التي نشرها بلزوني وهي محو كلمة ابن بعد كلمة علي، وهي كلمة مهمة. بالتالي نجد أن هذا النسخ (عِوَضًا عن تسجيل زيارة الملك، أو ربما، تسجيل افتتاح الهرم) ما هو إلا نسخ لنقوش عربية، مثلها مثل العديد من النقوش المحفورة بوحشية على العديد من آثار مصر. على أيَّة حال، هذا النقش، وغيره، توضح أن الهرم فُتح منذ ردح من الزمن.».

الهرم الثالث، والمنسوب بناؤه لمنكاورع، أو منقرع، فتحه الكولونيل قيس حيث وجد داخله تابوت مومياء مُؤسِّسه تحمل اسمه منقوشًا بالهيروغليفية: «منكاورع». هذا الهرم، رغم صِغَره مقارنةً بالهرم الأكبر والهرم الثاني، تبلغ مساحة قاعدته نحو ثلاثمائة وثلاثين قدمًا، وطوله عموديًّا يبلغ نحو مائتَيْ قدم، وهو من الآثار المَهِيبة. يتميز هذا الهرم ببنائه المتقن، كما يتميز أيضًا ببناء جزء كبير منه، ويرجح البعض بناءَه كُليًّا، من الجرانيت. وهناك على الجزء السفلي من الهرم طبقة من الجرانيت كانت تغلف الهرم بأكمله. الغرفة التي تضم المومياء وكذلك الممر الرئيس من الجرانيت، بينما سقف الممر قد نُحت في الصخور ليشكل مدخلًا مقنطرًا إلى غرفة الدفن. فُقدت المومياء في البحر أثناء نقلها إلى إنجلترا. كان الهرم الثالث هو أول الأهرام التي دلفت إلى داخلها، وقد سرَّني المنظر سرورًا جَمًّا، ذلك بعدما استجمعت شجاعتي لأدلف عبر المدخل الذي كان شبه مغلق بكتل من أحجار ضخمة.

بجوار الهرم الثالث هناك عدة أهرام أخرى أصغر حجمًا، ولا تستحق الذكر مقارنةً بالأهرام الثلاثة؛ لذلك لن أصفها لك، كما لن أتحدث لك بالتفصيل عن المقابر العديدة المجاورة التي سبق وأشرت إليها. معظم تلك المقابر يقع في مساحة فسيحة إلى جنوب الهرم الأكبر، وشمال الهرم الثاني، وجميعها، عدا استثناءات بسيطة، تم بناؤه في خطوط مستقيمة من

الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، وعلى جوانب الأهرام، تواجه جدران تلك المقابلة الاتجاهات الأربعة الكاردينالية. بعض المقابر دُفنت جزئيًّا أسفل الرمال، والغالبية قد اندثرت تمامًا أسفله. لا تضم بعض المقابر غرفًا فوق الأرض، بل هناك مدخل من فتحة في السقف يهبط إلى غرفة الدفن. البعض الآخر يضمُّ غرفًا ضيقة لها جدران فاصلة ومُوشَّاة بنقوش عن الزراعة وغيرها من أمور الحياة. أغلب تلك المقابر بُنيت في زمن بناء الهرم الأكبر. هناك في أحد المقابر الأحدث نقوش لأشخاص يمارسون العديد من الفنون وأعمال النجارة وصناعة السفن من البردي (ربما مثل القارب الذي كُشف فيه موسى)؛ كذلك أعمال الزراعة، وعصر العنب لصناعة النبيذ، كما تكشف النقوش عن طقوس الطعام والرقص... إلخ. من بين النقوش التي رأيناها في المقبرة هنا نقش لرجلين يجلسان إلى منضدة قصيرة رُصَّت عليها صنوف شتى من الطعام، أحدهما يحمل في يده اليسرى دجاجة، وبيده اليمنى ينتف ريشها، أما الآخر فيحمل مفصل حيوان برِّي على وشك أن يقضم منها. كلا الرجلين شبه عارٍ، لو كانا يرتديان المزيد من الثياب لكانا صورة حيَّة وحقيقية لرجلين من المصريين المعاصرين أثناء وجبة الغداء أو العشاء. تم اكتشاف الكثير من الجبَّانات في الصخرة المجاورة للأهرام. وجدنا في واحدة من تلك المقابر نقشًا يوضح عدد أسراب الطيور، وقطعان الماشية التي امتلكها صاحب المقبرة وقد حُدد كل نوع وكُتب إلى جواره عدده كالتالي: ٨٣٥ ثورًا، ٢٢٠ بقرة وصغارها، ٢٢٣٤ جديًا، ٧٦٠ حِمارًا، ٩٧٤ كبشًا. هذا القبر المثير للاهتمام ينتمي إلى حقبة الملك خفرع. ويقع أمام التل الصخري المرتفع الذي يقع عليه الهرم الأكبر، إلى اليمين قليلًا من مربع الكولونيل ڤيس، في مواجهة وادي النيل.

لو شرعت في البداية أن أصف لك الأهرام والآثار المجاورة لها وصفًا تقليديًّا، لكان حريًّا بي أن أستهل حديثي بوصف «أبو الهول» العظيم، الذي يواجه المسافر المقترب من الهرم الأكبر عبر أسهل الطرق والذي يأتي من الجنوب الشرقي، ويقف على مسافة ليست ببعيدة عن الطريق. أما أقدامه الأمامية هائلة الحجم والممدودة لمسافة أمام جسده، فغُمر الجزء الأكبر منها تحت الرمال والقمامة. رأس «أبو الهول» يبلغ ارتفاعه منفردًا عشرين قدمًا. الوجه (الذي يُعتقد أنه نحت لوجه تحتمس الرابع، الملك الذي يعتقد الكثيرون أنه حكم مصر في عهد عبودية المصريين لبني إسرائيل، أو قبل تلك المرحلة أو بعدها بفترة وجيزة، كما يُعتقد أنه الفرعوني الذي نزح في أثناء حكم بني إسرائيل من مصر) مُشوَّه بدرجة كبيرة، وقد كُسر الأنف. ضياع الأنف يضفي لمحة زُنْجيَّة على ملامح الوجه، ولكن ملامح الوجه الأخرى القريبة من ملامح المصريين القدماء يميزه كثيرًا عن الزنوج، كما تختلف أنوف المصريين في تكوينها عن أنوف الزنوج. بدا لي وجه أبي الهول في البداية، على حالته المشوهة تلك، قبيحًا للغاية، ولكن حين دنوت منه، لاحظت عذوبة مُحيَّاه، ولم أتعجب من الإعجاب الجَليّ الذي يثيره هذا الوجه في نفوس العديد من الرحَّالة. من المؤكد أن هذا العملاق الضخم صُبغ جسده بالكامل حين بنائه، ولا زال الوجه يحتفظ برتوش من تلك الصبغة الحمراء التي تميل للصفرة أو لدرجة فاتحة من درجات البُني، وقد استخدمها المصريون القدماء لرسم وجوه وملامح أبناء جلدتهم، أما الأصفر أو الوردي فكانت الألوان

المستخدمة لرسم ملامح النساء المصريات. نُحت أبو الهول من كتلة صخرية ضخمة من الحجر الجيري، والتي من المحتمل كانت تشبه قليلًا الشكل الذي أصبح عليه أبو الهول.

لم أتخيل قط أن أكتب لك كل تلك السطور عن الأهرام والآثار المحيطة بها، ولكني حين طرقت صلب الموضوع وجدت من العسير أن أتوقف عن الإسهاب. بديعة هي الأهرام، ومثيرة للدهشة بالنظر لتاريخ بنائها البعيد؛ لدرجة تجعل كل ما صنع الإنسان سواها، في رأيي، لا قيمة له مقارنة بها. بالكاد يمكنني التصديق أن هذا الصرح الهائل، والبناء البديع، قد تم منذ عشرات القرون من تاريخ نزوح بني إسرائيل، حتى إن برج بابل، ربما واحد من الصروح البديعة التي قد تتساوى عظمة مع الأهرام، قد بُني في حقبة أقرب إلينا من حقبة بناء الأهرام.

خلال هذه الرحلة سُررت أيضًا لأنني لم أرَ بين العرب القاطنين في القرى المجاورة ضريرًا واحدًا، رغم ما سبق وذكرته لك عن شيوع فقدان البصر في القاهرة. هؤلاء الفلاحون رغم ما يتمتعون به من قليل مباهج الحياة، فإن الهواء الذي يهبُّ عادةً على تلك البقاع له تأثير كالسحر على صحتهم وأرواحهم.

في نهار رحيلنا جاء إلى خيمتنا عدد من شباب البدو المتأنقين هم أبناء شيخ القرية البعيدة. بعدما دار بيننا حديث طويل بلغت مدته قرابة الساعة، اعترف أحدهم لنا أنهم قطعوا مسافة أميال عديدة على أمل مقابلة وجوه سيدات أوروبيات، حيث أنهم عرفوا بزيارتنا الأهرام لعدة أيام، وقد خاب ظنهم للغاية حين قابلونا - النساء - ونحن مسدلات خمار الوجه. منذ عدة أسابيع استمتع هؤلاء الشباب بمقابلة سيدة أمريكية كانت تزور مصر، وذكروها بكونها امرأة جميلة. سألهم واحد من أصدقائنا عن رأيهم في هذه السيدة فأجاب أحد البدو: «بديعة»، ثم استطرد الآخر: «لكن، ورب السيف! ورب السيف! لو كنا نجرؤ على استخدامه، لقتلنا هذا الرجل (يشير إلى رفيق السيدة) سواء كان زوجها أو أخاها، ونحصل عليها لأنفسنا.» إنه لمن حسن حظ النساء المسافرات إلى الشرق أن هؤلاء الأعراب الخارجين على القانون يخضعون لدرجة من درجات الالتزام بالقانون في حضرة الحكومة الحالية.

الرسالة الثامنة والعشرون

مارس، ١٨٤٤.
صديقي العزيز،

ربما قد توارد إلى مسامعك الحديث عن ساحر شهير في مدينة القاهرة، والذي، رُغْمًا من انعدام احتمالية امتلاكه لقدرات السحر التي امتلكها سحرة فرعون وحكماؤه، قد خلب ألباب العديد من الرحَّالة بأفعال شديدة الشبه بما مارسته ساحرة إندور(89) بأمر من الملك شاؤول. لاستحضار أي روح بناء على طلب مدفوع، ينقش الساحر على كفِّ اليد اليمنى لفتى أو فتاة صغار مربع السحر، ثم في منتصفه يسكب قطرات من الحبر، ويدَّعي عن طريق تكرار طلاسم معينه أنه يستدعي روحين، ثم يحرق قُصَيْصات من الورق نُقشت عليها الطلاسم التي رددها في طبق عميق به جمرات فحم مشتعلة والكندر(90) وبذور الكزبرة أو أي عطور أخرى، ثم يطلب من الفتى أن ينظر داخل هذا الطبق ليرى صورة الشخص، حيًّا كان أو ميتًا، الذي طُلب منه استحضاره. وصف أخي ما شهده من ممارسات الساحر بالكامل التي حضرها بنفسه هو وجماعة من الرحَّالة الآخرين عشر سنوات أو يزيد، لم تكن كل الممارسات التي شهدها أخي غير قابلة للتفسير، لأن بعض الأناس الذي استدعاهم الساحر لمساعدته كانوا غرباء عن المكان، والبعض الآخر يمكن وصفه بـ «تخمين بحت»، لكن الحقائق التي قصَّها عن مشاهدات الآخرين تضمُّ عددًا من الأشخاص الذين يمكنني أن أسميهم لك لتصدق أثر القوى الخارقة على أفعالهم. مع ذلك، فاللغز المزعوم، يظن أخي أنه قادر على تفسير الآن، على الأقل بدرجة تفي لإقناع أي رجل عقلاني قد أدهشته تلك الممارسات السحرية المشار إليها المذكورة في كتابي المصريون المعاصرون.

منذ أسبوعين، طلب اثنان من الإنجليز، هما لورد ن. والحاكم ج. من أخي أن يحضر لمشاهدة واحد من عروض هذا الساحر، وليكون مترجمًا لهما في هذه المناسبة حتى يشعروا بقليل من الأمان؛ ولكي لا يتورطوا في أي معضلة. لكني ينبغي عليَّ أن أكتب لك تحديدًا ما قاله عن تلك المناسبة.

«لم أكن عازمًا»، هكذا استهل أخي حديثه ثم أردف: «أن أقبل العرض المقدم لي، وأظهر خمولًا واضحًا تجاهه، ولكنني مسرور بحضوره على أيَّة حال. حاول الساحر تأدية عروضه بمساعدة فتيين، ولكنه فشل مع كليهما في تأدية ما أراد. كان عذره أن الفتيين لهما خَصْلة الكذب، ولذلك وصفا ما رأياه بطريقةٍ تختلف عن ماهيته الحقيقية، كما أضاف أن إنجازاته لا يؤديها وحده؛ وبالتالي فهو غير معصوم من خداع الآخرين وكذبهم. الآن إذا كنا لا نزال عازمين على التصديق في وجود شيء يُدعى سحرًا حقيقيًّا، وأننا نعرف من الإنجيل بوجود السحر ذات يوم، يجب أن نصدق أيضًا أن أخطاء الرجل القليلة لا تعني أنه ساحر مزيف، طالما يحتاج لوسيط يُعتمد على صدقه وأمانته في نقل المعلومة كاملة. اعترف لي

الساحر، ربما مدفوعًا بشعور الدفاع عن عزَّته، أو بالرغبة في استدعاء ما أنجزه من عروض سابقة تسلب العقول، أنه كان ناجحًا أيام عثمان أفندي مترجمه، وأنه منذ وفاته حالفه سوء الحظ.

كانت تلك ملحوظة مهمة بالتأكيد بالنسبة إليه. إشارته إلى هذا الرجل بصفته تميمة حظه كانت إشارة لا مفرَّ منها؛ خاصةً حين تفكَّرت في كل المحافل المفاجئة التي نجح فيها والمتتالية كذلك والتي تواردت إليها أخبارها، كان وقتها عثمان أفندي يعمل رفقته، الآن، حين أمعنت التفكير، بعدما مات هذا الرجل منذ تسع سنوات تقريبًا، شهد المئات على عروض الساحر، وأكد لي الكثيرون أنها لا يمكن أن تُدعى التخمينات الناجحة أو الصدف البحتة، كما أنه فشل في مناسبات كثيرة. لم أحاول في البداية تصديق أن الرجل الذي دائمًا ما اعتبرته رجلًا صادقًا(91)، والذي أعرف جيدًا ما يملكه من خصال حميدة، يحاول أن يتلمَّس أي وسيلة لإثارة الانتباه، وكما ذكرت كذلك، خلال العروض التي حضرتها بنفسي، أنه لم يحاول أبدًا أن يملي أفكاره على المتطوعين سواء قولًا أو فعلًا، حتى إنه كثيرًا ما كان يجهل ملامح المتطوعين، كما حرصت بدوري على ألَّا يتحدث مسبقًا مع أحد منهم، وكذلك رأيت التجربة تفشل رغم أنه كان قادرًا على إنجاحها إما بتوجيه المتطوعين أو الساحر. لكن ما أشار إليه الساحر من سوء حظ، مدعومًا بالحقائق الواضحة للعين المجردة، تتفوق بالتأكيد على الحقائق التي ذكرتها، وذلك لأنها لا تستند لتخمينات الآخرين فحسب، بل أيضًا إلى اعتراف الساحر الشخصي. ربما عثمان استهان بدوره البسيط في توجيه الأحداث، أو ربما لم يرغب في ممارسة هذا الدور أمامي خشية أن أكشفه إذا حاول ذلك. علاوة على ذلك، لو كانت العروض العديدة التي قدمها الساحر أقل إدهاشًا من تلك التي شهدتها ربما لجنى شهرة أقل. لكني أواسي نفسي حين أذكر أن الطفل الذي تطوع في العرض المذكور في كتابي المصريون المعاصرون لم يكن مدربًا على دوره؛ لأنني اخترته بنفسي من بين زخم السائرين في الشارع، كما أشعر بالرضا حين أذكر أن الصور التي وصفها هو والفتى الآخر، كانت قريبة إلى الصور التي تشكلت على صفحة الحبر؛ وكذلك قد رفض الطفلان تقبُّل الهدايا التي عرضتها عليهما نظير أن يعترفا إذا كانا يُخادعان بشأن ما رأياه. بالتالي؛ كنت على حق كامل بخصوص النقطة الأولى، أما النقطة الثانية فيبدو أنني خُدعت. أعتقد أن الفتيين لم يشاهدا شيئًا في صفحة الحبر، ولكنهما خدعانا خشية الاعتراف بالحقيقة. كذلك أجد صعوبة في تفسير أمر آخر. لقد أقر اثنان من الرحالة الأوروبيين (أحدهما هو السيد ليون ديلابوردي، والآخر رجل إنجليزي)، بعدما التزما بأوامر الساحر، أنه نجح في إنجاز ما أراد. ولكن، أليس من المحتمل أن تلك الإنجازات كلها حدثت بفضل المترجمين؟ ربما المترجم الذي نقل الكلام في مرات عديدة ليضلل الناس معلنًا عن عجائب قدرة الساحر، فعل ذلك هنا أيضًا.

لقد ذكرت كل ما أملكه في صالح الساحر وضده، وأترك الأمر في يد القارئ ليُقرر. من جانبي، أعتقد أن نجاحاته كلها تُنسب للمترجم، وجزئيًّا إلى الصدفة البحتة؛ وكذلك إلى الأسئلة الأساسية التي يطرحها الساحر على الناس بشأن أوصاف من يشاءُون استحضاره.

دعنا نطبق تلك العوامل الثلاثة على واحدة من حالاته. تم استحضار صور عدد من الناس على صفحة الحبر، وقد نجح المتطوع في وصف أغلبهم (ربما جميعهم) وصفًا صحيحًا. على الجهة الأخرى كان المترجم يعرف مسبقًا أوصاف أولئك الناس؛ وبالتالي هو قادر على تلقين المتطوع الصغير بما يجب أن يصفه. وحتى لو لم يكن يعرف أوصاف عدد ممَّن تم استحضارهم فهو قادر على التخمين خلال العرض. على سبيل المثال، أخبر أحد المتابعين عن السمات الأساسية لمَن يريد استحضاره، وهكذا يمكن تخمين هيئته بصورة جزئية بفضل الأسئلة الرئيسة التي يطرحها الساحر. حين يستحضر الساحر رجلًا له قدم واحدة، أو قدمًا أقصر من الأخرى، أعتقد أنه قد وصفه وصفًا فجًّا هكذا، وحين يُسأل الفتى عن أي علامات مميزة في مظهر الصورة التي يراها على صفحة الحبر، ربما حينها يصله الإيحاء بضرورة وجود شيء مميز، وحينها يمكنه أن يقول بأريحية إنه لا يرى سوى قدمٍ واحدة، وإذا كان هذا الوصف غير كافٍ فهو قادر على الارتجال قائلًا إن الرجل قد استدار وهناك في طريقة سيره عرجة خفيفة. الوسيلة الثالثة (التخمين) لا يمكن أن يعوَّل عليها كثيرًا دون مساعدة الآخرين، ولكن بمساعدتهم يمكن أن تساعد كثيرًا في توفير مواصفات جانبية، وحين يُخطئ التخمين بشأن التوافه تلك، يُعدُّ خطأ الساحر غير ذي أهمية، لكن حين يصدق الساحر في استحضار صورة الرجل كاملة حتى أنها تضم تلك التوافه الهامشية، يصبح وصفه دقيقًا للغاية.

باءت آخر العروض التي حضرتها لهذا الساحر بالفشل الذريع حيث وصفته امرأة بأوصاف رجل، ووصف رجل طويل بأنه قصير أو متوسط الطول، ووصف العجوز شابًّا... إلخ. وقد طلب الساحر تطوع فتيين كالعادة، أحدهما بدا أحمق مذعورًا، أما الآخر فبدا معتادًا على هذه العروض.

وصف لي صديقي آخر عروض الساحر، ويمكنك بالكاد أن تستخلص منها أي شيء سوى سوء الحظ والعبثية. ذهب صديقي لإشباع فضوله مع جماعة من الرحَّالة الإنجليز إلى الفندق الفرنسي، المسرح المعتاد لعروض الساحر، حيث عادةً ما يجد الفتية المستعدين لمساعدته، وعارفين بخدعه، كما يجد المترجم الذي يتواطأ معه في تصدير خداعه. طلب الساحر صبيًّا ليساعده، وبعد التحضيرات المعتادة، سُمِّي اللورد أوكلاند لتظهر صورته على صفحة الحبر. وصفه الصبي بكونه قصيرًا ونحيفًا. تلاه وصف اللورد أوكونيل وجاء الوصف أنه قصير ونحيف ويرتدي الأبيض، شاب، حليق الذقن، ويعتمر قبعة بيضاء وقد لفَّ حولها منديلًا (مثلما يفعل الإفرنجي ليقي نفسه حرارة شمس الصيف المصري) ويملك يدًا واحدة. تلا أوكونيل العديد من الأشخاص، أغلبهم على صلة بالحضور؛ مما أدى إلى ارتفاع الضحكات الساخرة مع كل وصف، وفي النهاية اتهم الساحر الفتى أنه لا يخبر بما يراه تحديدًا. حل محل الصبي فتًى آخر، وبدا أنه قد تطوَّع من قبل لخدمة الساحر. بعد أن فشل الصبي عدة مرات فشل فشلًا ساحقًا، تم وصف أمير ويلز بكونه أبيض الشعر، له لحية صفراء، ويرتدي معطفًا أسود وبنطالًا أبيض. (يجب أن أذكر أن العديد من الأوروبيين هنا يُطلقون لِحَاهم). اتفق الجميع على ألَّا يضحكوا، ودبروا أمرًا آخر. مرروا أسماءَهم

(الحضور) إلى الساحر بصفتهم آناسًا يريدون استحضار صورهم على صفحة الحبر. وهكذا شهدت القاعة العديد من الإخفاقات، فالبعض وصف وصفًا صحيحًا بكونه طويل القامة، لكنه لم يكن مكتنزًا كما وصف، أصاب الفتى في وصف لون المعطف، وأخفق في لون البنطال، وهذا ما أكد دون مجال للشك أن الأمر برُمَّته تخمين. في النهاية حظي الساحر بمبلغ سخيّ نظير عرضه على أيَّة حال.

إذا شئت الاطِّلاع على طبيعة عروض هذا الساحر في الأيام الخوالي؛ أي عروضه الأبرز، اقرأ ما كُتب عنهم في الصفحة ١١٧ من «كوارترلي ريڤيو» وخاصةً الملاحظات التي تلحق بتعليقات المحرر. ستكتشف حينها أن الأمر في بدايته استحق جذب الأنظار، وأن اكتشاف الطرق التي نهجها الساحر في تأدية عروضه، والتي ظُن في براعتها، كان أمرًا لَحُوحًا. لم تكن تلك الوسائل مقتصرة على الأسئلة التي يطرحها الساحر ليستنبط ملامح مَن يستحضره، كما رجَّح أحد الكُتاب، وهذا يتضح جليًّا حين بدأت عروض الساحر في الاضمحلال بعد وفاة مترجمه عثمان، كما ليس من المرجح أن الرحَّالة الأذكياء (الذي يمكنني ذكر أسماء العديد منهم) عجزوا عن تفسير ما رأوه من حوادث، إذا كان الأمر وقتها اقتصر على التخمين والأسئلة.

هناك ملاحظة أخيرة يجب أن أذكرها قبل أن أختم حديثي في هذا الشأن، هناك فضل كبير يرجع لمُخيِّلة هؤلاء الأولاد الذين استغلهم الساحر كوسطاء ساهمت فعلًا في تشكيل صور حقيقية على سطح الحبر، ولكنها كانت صورًا من خيال الصبي وبنات توقعاته. أرجع البعض نجاح العروض إلى التنويم المغناطيسي، كما نسب البعض هذه النجاحات إلى الممارسات الشيطانية. ولأن الاكتشافات الأعظم في تاريخ العلوم كانت الأبسط على الإطلاق، فما يبدو لنا في البداية لا تفسير له يكون له أبسط التفاسير.

(89) ملحوظة المترجمة: وفقًا للعهد القديم ساحرة إندور هي امرأة أمرَها الملك شاؤول باستحضار روح الملك صموئيل، وذُكرت قصتها في الفصل الثامن والعشرين من سِفْر صموئيل الأول.

(90) ملحوظة المترجمة: اسمه الشائع «اللبان الذَّكَر» وهو من صمغ شجر اللبان.

(91) ملحوظة المترجمة: يقصد عثمان أفندي.

الرسالة التاسعة والعشرون

أبريل، ١٨٤٤.
صديقي العزيز،

حين وعدتُكِ بالكتابة إليكِ عن وصف الحمَّامات، لم أتوقع أنني سأتحدث عن هذا الموضوع بقدر من الشغف. مهما كانت آراء الآخرين، أعترف أن الاستحمام على الطريقة الشرقية هو أمتع الطرق بالنسبة إليَّ، كما وجدته ذا نفع كبير في إزالة آثار الإنهاك التي يُخلِّفها طقس البلاد. الحق يُقال أن الاستحمام في الحمام الشرقي يتبعه شعور بالإجهاد العام، ولكن سريعًا ما يتلو هذا الشعور شيء من الاسترخاء اللذيذ، ونتائج الأمر برُمَّته أعتبرها ممتعة تمامًا كالمتعة التي أشعر بها أثناء عملية الاستحمام.

تتساوى تقريبًا أحجام المباني التي تضم تلك الحمامات، كما تتقارب كثيرًا في المظهر الخارجي، الواجهة تُزيَّن بزخارف مبهرجة باللونين: الأبيض والأحمر، أما الداخل فيضم عدة غرف مُهدت أرضيتها بالرخام. سأصف لك أفضل، باقتضاب، واحدًا من أفضل الحمامات في القاهرة، وقد زرتُه رفقة ثلاثة نساء من صديقات - إنجليزية، وحبشية، وسورية.

بعدما عبرنا رُواقين، دلفنا إلى غرفة كبيرة، هي غرفة الاسترخاء حيث تجلس النساء عاريات قبل أن يدلفن إلى غرف البخار، وفيها يرتدين ملابسهن بعد الاستحمام ويسترحن على مصطبة من الرخام، أو مقعد عريض مفروش بالسجَّاد والحصير. في منتصف الغرفة هناك نافورة تجري فيها المياه الباردة، فوقها قبَّة مرتفعة. ولأمنحك وصفًا مفصلًا عن حمامات القاهرة العامة سأستعين بوصف أخي، وسوف أقصُّ باقتضاب المشاهد التي رأيتها في زيارتي السالف ذكرها.

في الغرفة الأولى، سترَتْ كُلٌّ منا جسدها بقطعة قماش، يمكن أن أسميها - بسبب حجمها - وشاحًا، ثم سرنا نحو غرفة أصغر حيث الحرارة أقل حدَّةً من الغرفة الرئيسة التي اتسمت بحرارتها الشديدة. هذه الغرفة لها شكل الصليب، في كل ركن هناك تجويف في الجدار، وتجويف في الجدار الأوسط، يغطيها جميعًا أقبية مرتفعة. الممرات ممهدة بالرخام الأبيض والأسود، وقطع صغير من البلاط الأحمر وُضِعت ببراعة شديدة لتُزين الأرض. في المنتصف هناك نافورة تتدفق منها المياه الساخنة عبر بناء أسطواني من الرخام، تحيطه مصطبة رخامية تسمح بجلوس العديد من النساء معًا. التجاويف الجانبية ترتفع عدة إنشات عن طول التجويف الأوسط، وأحدها يضم حوضًا صغيرًا يتدفق منه المياه الساخنة باستمرار عن طريق أنبوب يهبط من القبة العالية. كانت الغرفة كلها ضبابية الأجواء.

حين دلفنا إلى تلك الغرفة الصغيرة رأيت مشهدًا حريًّا بالوصف. رغم أن صديقاتي قد مهدن لي أن أستعد لرؤية الكثير من النساء العاريات، لكن تخيل دهشتي حين وجدت على الأقل ثلاثين امرأة من مختلف الأعمار، العديد من بينهن لا تزال فتياتٍ أو أطفالًا، عاريات تمامًا. بالكاد ستُفكر في احتمالية ألَّا يكون هناك من ستر عورته بقطعة قماش سوانا. جماعات من مختلف الأعراق وألوان البشرة، نساء زُنْجيات، وصاحبات بشرة دكناء، ونساء بيضاوات كاللبن الصافي، يشكلن جماعات، يتحدثن كما لو كُنَّ في كامل ثيابهن، لا مبالياتٍ تمامًا بهذا العُرْي، بينما أخريات يتجولن هنا وهناك، أو يجلسن ببساطة حول النافورة. في واقع الأمر، لا يمكنني أن أصف الحمَّام ككل بكونه مكانًا بديعًا؛ لأن هناك بعض الجوانب المقززة، ويؤسفني أنني لم أستطع الوصول إلى غرفة خاصة في الحمام دون أن أُمُرَّ على هذه الغرفة العامة الفسيحة.

سأعود بالحديث للشأن الجدير بالذكر - عملية الاستحمام - التي أعتبرها فاخرةً للغاية. الشعور الذي ينتابك حين تدلف للمرة الأولى لأكثر الغرف حرارة هو شعور مهيمن؛ ذلك لأن الحرارة غالبًا ما تكون خانقة، وفي البداية ظننت أنني لن أتحمل كثيرًا تلك الحرارة، ولكن بعد مرور الدقيقة الأولى، شعرت بارتياح طفيف، وبعد ذلك اعتدت الوضع وعُدت لا أشعر بالحرارة الخانقة. تلتزم كل سيدة بإحضار زوج من القباقيب المرتفعة، ووعاءً كبيرًا من النحاس لحفظ الماء الساخن، ووعاءَين صغيرين من النحاس، ومناشف.

المرحلة الأولى من الاستحمام تكون بفرك الجلد فركًا رقيقًا، أو فركه بالصابون. ثم بعد ذلك تقوم العاملات في الحمام بفرقعة مفاصل من تشاء الحصول على هذه الرفاهية. أعترف أنني لم أرغب في الوقوع فريسة تلك المعاناة. بعض النساء المحليات يرغبن بعد ذلك في صنفرة أجسادهن، وتُستخدم ليفة صنفرة ناعمة للجسد، وأخرى أكثر خشونةً للأقدام، ولكنني لم أرغب كذلك في الحصول على تلك الخدمة. لأنني فضَّلت استخدام حقيبة صغيرة من الصوف حيث تُدخل العاملة يدها بداخلها وتستخدمها في عملية الصنفرة. بعد ذلك تتم تغطية الرأس والوجه برغوة كثيفة من الصابون، وذلك عن طريق فرك الصابونة بقطعة من مشتقات سعف النخيل، والتي يُطلقون عليها لفظة الليف، ولها قوام مطاطي حسن المظهر. من السُّخف الكامل رؤية إحدى النساء تخضع لهذه العملية. حين يتم تغطية وجهها ورأسها بالكامل بالرغوة يستخدم الماء الدافئ لإزالة بقايا الصابون، وقد يظن المبتدئ أن العملية تنتهي عند هذا الحد، لكن العاملات لا يرتضين إلا بتكرارها مرتين أو ثلاثة على الأقل؛ لتسري في نفوسهن الطمأنينة الكاملة بتأدية المهمة. ثم يأتي الجزء الأفضل من عملية الاستحمام - غسيل وصنفرة الجسد بأكمله، والتي تمارسه الخادمات بنعومة مثالية، وبطريقة ممتعة؛ مما يجعلها عملية فاخرة بالنسبة إليَّ، وقد اقتنعت أن طريقة الاستحمام الشرقية غاية في الإفادة للجلد والبشرة.

حين أنهيتُ استحمامي، تدثرت بقطعة من القماش الجاف، تشبه ثوب الحمام، وتم اقتيادي لغرفة الراحة حيث ارتديت ملابسي وذهبت لأحصل على الراحة وتناول بعض المُرطِّبات،

بينما أفكر مجددًا في المشهد العجيب الذي شهدته. كنت أود لو أقول إنني لم أواجه أي عقبات أثناء تلك العملية الفاخرة التي استمتعت بها، ولكن يجب أن تغلق المرأة الإنجليزية عينيها، وتسد مسامعها طالما تتواجد في الحمام العام في مصر إذا شاءت أن تستمتع بالرفاهية التي تقدمها تلك الحمامات، ليس فقط تجنبًا للمشاهد الغريبة الصادمة، ولكن لأن صرخات الأطفال مزعجة ولا تتوقف. خلُصت في النهاية إلى أن درجة الاستمتاع القصوى للاستحمام على الطريقة الشرقية، لا يمكن أن تتم إلا في حمَّام خاص وبحضور «بَلَّانة» متمرسة.

الرسالة الثلاثون

أبريل، ١٨٤٤.
صديقي العزيز،

أتذكر حين كتبت لك، ببساطة، أنني أعتقد أن محمد علي باشا لديه زوجتان، ولكنني اكتشفت خطئي حين قابلت زوجة ثالثة هي والدة حليم بك، وحينها عرفت بوجود زوجة رابعة وهكذا يكمل محمد علي النِّصَاب الذي يسمح به الإسلام من عدد الزوجات.

الصعود إلى القلعة ليس رحلة ممتعة؛ وخاصة في هذا الوقت يحفُّها بعض المخاطر بعد أن أمر الباشا بإصلاح الطريق الممتد من باب الوزير إلى القلعة؛ وبالتالي هناك أكوام من الأحجار والقمامة تكاد تسد الطريق. اخترت هذا الطريق لأنه غير مُعبَّد وقد جعلتني تجربتي أخشى المدخل المُعبَّد الزَّلِق عند البوابة العظمية وأنا أمتطي بغلة عتيدة. رغم قلقي من التعثر على الطريق الوعر فإنني لم أغفل ملاحظة حجم الأحجار الهائل التي أُلقيت من جدار قديم، وهي تشبه كثيرًا الأحجار المتناثرة في منطقة الأهرام؛ وكذلك أشكُّ أنها نُقلت من منطقة الأهرام في عهد بناء قراقوش للقلعة.

القصر المخصص لحريم الباشا في القلعة هو صرح مَنِيف، وأفضل البنايات التي رأيتها في مصر. التصميم الداخلي مماثل للتصميمات الداخلية التركية. في الطابق الأرضي هناك صالة واسعة مُعبَّدة بالرخام الأبيض، ويحيطها غرف عديدة مفتوحة عليها، والطابق الأول له النسق نفسه. عبرت، بصحبة صديقتي السيدة سييدر، المدخل الرئيس إلى ساحة واسعة متساوية الأبعاد، ثم عبرناها إلى صالة الطابق الأرضي، ثم صعدنا على سُلم أنيق من الرخام إلى صالة الطابق الأول. في هذه الصالة تبدَّى أمامنا واحد من أجمل المناظر التي رأيتها: ثلاث نوافذ مقابلة للسلم، تطلُّ على القاهرة بأكملها، والسهل المنبسط خلفها، وبدت كل مناظر القاهرة من شمالها إلى غربها تتألق أمام نظرنا في أبهى رداء، كما امتد بصرنا إلى الشمال ليصل إلى أطراف بساط الدلتا الأخضر وسهل أرض جوش. كنت لأبقى بكل سرور أمام تلك النوافذ طوال الزيارة، لكن الخادمات كُنَّ على عجل لاقتيادنا إلى غرفة السيدة الأولى.

كانت تجلس في غرفة بُسط فيها سجَّادة كبيرة، تحفُّها الأرائك الوثيرة من كل جانب، وبصحبتها ثلاث نساء. استقبلتنا باحترام وترحيب بالغين، أدهشني حديثها الوَدُود المهذب خاصة لِمَا تردد عنها من سمعة تصفها بالغطرسة والتعجرف. تحدثت معي بحُريَّة عن أبنائي، وأخبرتني أن ابنها لم يبلغ بعد العشرين من العمر، كما قدمت إليَّ فتاتين بديعتَي الحُسن من أطفال الحريم، إحداهن قدمت لي باقة من الورد. الحديث عن عدد الأبناء وصحتهم وأعمارهم هو دائمًا الحديث الأثير لسيدات الحرملك، والأقرب لقلب كل الأمهات.

سألتني سيدة بحذرٍ شديدٍ عمَّا إذا تزوج أحد من أبنائي، الذين لم يتعدوا الثالثة عشرة بعد. ولكني خمنت أنها تقصد تمت خطبتهم؛ لأن التعبير عن الخِطْبة والزواج له كلمة واحدة في لغتهم. فشرحت لها أننا في إنجلترا يجب أن يصبح الفتى رجلًا رشيدًا قبل أن يفكر في الزواج أو حتى الخطبة، وإذا تزوج الفتى في عمر العشرين والفتاة في عمر الخامسة عشرة اعتبرهم الجميع صغارًا جدًّا على هذه الزيجة. أنصتت لي السيدة ورفيقتها بتركيزٍ شديد، وقالت إحداهما بصدق واضح إن الإنجليز لهم كامل الحق في الاعتراض على هذه الزيجات المبكرة التي تحدث باستمرار في الشرق.

يمكنني ذِكْر واحدة من محاسن هذا الحرملك، رغم ما رأيته من زخارف بديعة، إلا أنه لم يسترَعْ انتباهي سوى عقد السيدة الأولى المصنوع من اللؤلؤ؛ وكذلك عقدان اثنان من الحاضرات، كان العقد يضم أكبر حبَّات اللؤلؤ التي رأيتها في حياتي، ولكنه معقود في قمة العنق بصورة خانقة.

بعد مغادرتي الحرملك، ساعدتني النساء في ارتداء الحبَّارة في المراسم التي سبق وذكرتها لك عدة مرات، وكان ذلك خلال عبوري الصالتين حتى وصلت إلى الستائر التي تفصل الحرملك عن سائر القلعة. وقد تنافست الوصيفات، على شاكلة رؤسائهن، في إظهار أجلِّ علامات الاحترام والتهذُّب لنا، وكانت سيدات الحرملك كافةً يرسمن على وجوههن ابتسامات جلية.

عرفت أن هذا الحرملك لم تدلف إليه من قبل أيٌّ من النساء الغربيات، وأصدق هذا القول، على الرغم من أن الجزء الآخر من المبنى ذاته، والذي ندلف إليه من جهة أخرى، وأثثه الباشا على الطريقة الأوروبية، كان وجهة للعديد من الرحَّالة الأوروبيين. عرضت عدة سيدات أوروبيات، منذ مدة قصيرة، تقديم مبلغ عشرين دولارًا نظير السماح لهن بالولوج للحرملك، وقوبل طلبهن بالرفض. لم أعرض أي رِشًا؛ لأنني لم أحاول قط الولوج لأي حرملك بمساعدة الخادمات، بل قدمتني إلى الحريم صديقتي الوَدُود السيدة سييدر، ولم يقابلني أي عقبة في زيارة الحرملك المختلفة. قبل المغادرة من الضروري تقديم هدية لكبير الأغاوات أو للحارس.

بعد تلك الزيارة، ذهبت لزيارة صديقاتي القدامى، في حرملك حبيب أفندي، وأبوح لك أنني، عند اقترابي من منزلهن، خشيت أن أُقابل استقبالًا فاترًا لا يتسق مع الاستقبالات الدافئة السابقة، وذلك بسبب الأوضاع الراهنة. لقد طالبت فرنسا وإنجلترا من السلطان أن يمنح امتيازات خاصة لكل المسيحيين الراغبين في ذلك، ولكن لَمَّا كان السلطان المسلم غير قادر على تلبية هذا الطلب، ولَمَّا لم تكن نتيجة المفاوضات قد كُشفت بعد، كان من المتوقع لنا أن نلقى ترحابًا، في زيارتنا لأقارب السلطان، أقل حفاوة مما سبق وتلقينا. كانت نساء حرملك حبيب أفندي على دراية كاملة بالأحداث، ولأن حديثنا دائمًا ما اتخذ مسارًا عفويًّا، فأخذ الحديث تلك المرة منحى نحو الشئون السياسية، وبمجرد أن استقر مجلسنا

يوم أمس، عرَّجنا بالحديث على الأحداث الراهنة، وتساءلنا بحُريَّة عن مصير الأمور الدينية موضع النقاش. هنا يجب أن أذكر لك حديثًا سرني كثيرًا. بينما كنت أتحدث مع السيدة الجالسة جواري، سمعت كلتانا حديث الجميع، بنات حبيب أفندي والزائرات، وقد تعالى، ثم دلفت السيدة الأولى إلى الغرفة فانخفضت أصوات الجميع. مبهج جدًّا هذا الاحترام للوالدين، النادر هنا كما الحال في إنجلترا، والمقتصر غالبًا على أبناء الأعيان، ومبهج أكثر كونه مصحوبًا بإخلاص واضح نابع من قلب بنات حبيب أفندي لأمهن. سمحت لهنَّ والدتهم المحبة أن يستمررن في الحديث؛ مما زاد من إعجابي وبهجتي.

حيَّتنا المرأة الوَدُود، واتخذت مقعدها، ثم أقعدتني، كما فعلت دائمًا، إلى يُمناها، ثم استقر الجميع بعد ذلك في مقاعده، وأخذت السيدة تنصت باهتمام بالغ لحوارنا، والذي ترجمته لها واحدة من بناتها. من المعتاد في هذه البلد أن السيدات الأتراك لديهن إلمام بقواعد العربية المستخدمة في أغراض الحديث اليومية، ولكن حين يبدأ النقاش حول أمر مهم جميعهن يُحبِّذن أن يُترجم لهن الحديث بلغتهن الخاصة.

طلبت الابنة الكبرى أن نخبرها تحديدًا بطبيعة المتطلبات التي قدمتها إنجلترا وفرنسا مؤخرًا للسلطان، وحين فسرنا لها أن المطلوب منه هو منع قتل أولئك الذين كانوا في البداية على الدين المسيحي ثم أعلنوا إسلامهم، ثم عادوا لسيرتهم الأولى، أجابت بحماسٍ جذب انتباهي وانتباه صديقتي: «هذا تحقُّق للنبوءة! حين كنت طفلة صغيرة، أُخبرت أن في هذا العام ستبدأ حوادث عظام، وستستمر ثلاث سنوات.».

بالطبع قد جملت هذه السيدة تفسير الأفعال المؤلمة التي يُقدم عليها أبناء دينها والتي تتصل بقواعد هذا الدين. وهناك يجب أن أُعلق إرضاءً لضميري، أنني لم أقابل قط في المجتمع الأنثوي المشرقي سيدة تعادل هذه السيدة في الرقة والعذوبة وحسن الخلق؛ وكذلك الفطنة. وقد وصفتها سُموُّ السيدة دامر بكونها سيدة تعيش في «برجها العاجي»، كما خصت دامر أمها بالمديح. لا ينبغي أن أغفل إخبارك بفضول الحرملك بشأن كتاب السيدة دامر. حيث عرفن أنها تصفهن، وسألنني بإلحاحٍ عن هذه المسألة. وقد سرَّنا أن نؤكد لهنَّ أن الكتاب اختصَّهن بذكر استقبالهن المُرحِّب الجليل، وأخلاقياتهن المبجلة، وأدبهن الجَمّ. كما سألن عن الحقبة الزمنية المحددة التي زارت فيها مصر، حتى يتمكَّن من تذكُّرها. وبسبب عزلتهن، كانت تلك النساء تتذكر زيارات الأوروبيات لهن كما تتذكر فصول حياتهن بوضوح بالغ، كما تخبرني قناعاتي أنهن يشعرن بسعادة واضحة ويعبرن عنها دون خجل حين نزورهن.

أطلعتهن السيدة سييدر على رسم السلطان الحالي الذي حوته طيَّات كتاب السيدة دامر، وقد نسخته الابنة الكبرى ولوَّنته بألوان بديعة تليق بسيدة تركية. سيثير هذا الرسم بالتأكيد كل زوار العائلة، أما لو لم يُحفظ في إطار زجاجي، فربما ستبهت صورته ويهترئ

كُليًّا في خلال أسابيع، شأنه كشأن صورة واحد من الباشوات الأتراك التي حدثني أحدهم عنها مؤخرًا.

ختام الرسائل

1. الغلاف
2. سيدة إنجليزية في مـصـــــــر
3. مُقدِّمة الكاتبة
4. الرسالة الأولى
5. الرسالة الثانية
6. الرسالة الثالثة
7. الرسالة الرابعة
8. الرسالة الخامسة
9. الرسالة السادسة
10. الرسالة السابعة
11. الرسالة الثامنة
12. الرسالة التاسعة
13. الرسالة العاشرة
14. الرسالة الحادية عشرة
15. الرسالة الثانية عشرة
16. الرسالة الثالثة عشرة
17. الرسالة الرابعة عشرة
18. الرسالة الخامسة عشرة
19. الرسالة السادسة عشرة
20. الرسالة السابعة عشرة
21. الرسالة الثامنة عشرة
22. الرسالة التاسعة عشرة
23. الرسالة العشرون
24. الرسالة الحادية والعشرون
25. الرسالة الثانية والعشرون
26. الرسالة الثالثة والعشرون
27. الرسالة الرابعة والعشرون
28. الرسالة الخامسة والعشرون
29. الرسالة السادسة والعشرين(80)
30. الرسالة السابعة والعشرون
31. الرسالة الثامنة والعشرون
32. الرسالة التاسعة والعشرون
33. الرسالة الثلاثون